

قابوس نامه



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

كتاب النصيحة

المعروف باسم

قابوس نامه

تأليف

الأمير عنصر المعالي

كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير



تعريب

محمد صادق نشأت و أمين عبد المجيد

دار الشروق

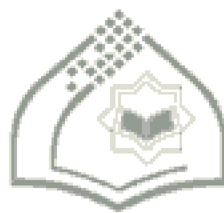
باسمك اللهم نستفتح

إنى رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابًا فى يومه إلا قال فى غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيْدَ كذا لكان يُستحسنُ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أَجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقصَ على جُملة البشر.



العماد الأصفهانى

المحتويات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تعريف بالكتاب

كتاب النصيحة الذى نقدمه للقراء هو ترجمة الكتاب الفارسى نصيحتنامه المعروف باسم قابوسنامه، والكتاب فى إيران وخارجها يتمتع بشهرة واسعة فى الأوساط العلمية عامة وبين المستشرقين خاصة، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أن له ترجمة ألمانية لـ «دييز Fr.v. Dies» طبعت فى برلين سنة ١٨١١م ـ ١٢٢٦هـ، وترجمة فرنسية لـ«كويرى Querry» طبعت فى باريس سنة ١٨٨٦م ـ ١٣٠٤هـ . ويذكر برون Brown فى الجزء الثانى من كتابه عن تاريخ الأدب الفارسى أن للكتاب ثلاث تراجم تركية [١]، وتوجد منه مخطوطات فى ليدن وبرلين ومخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم Or .3,252 ، وأنه طبع على الحجر فى طهران سنة ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨/ ٩م، وقد ترجمناه نحن عن نسخة مطبوعة فى لندن سنة ١٩٥١م ـ ١٣٧١هـ، أشرف على طبعها «روبين ليوى Reuben Levy» أستاذ اللغة الفارسية فى جامعة كمبردج وهذه النسخة إحدى مطبوعات سلسلة جيب التذكارية

[٢] E.J.Gibb Memorial Series. New series 18

ومقيدة بمكتبة جامعة فؤاد الأول تحت رقم ١٧١٨ فا .

وفى تاريخ تأليف هذا الكتاب تناقض بيِّن بين مؤرخى الأدب وكتاب التاريخ؛ فقد ذكر برون Brown أن الكتاب مؤلف حوالى سنة ١٠٨٢/ ٣م «٤٧٥هـ»، ويقول دكتور رضا زاده شفق فى كتابه «تاريخ أدبيات إيران» إن الكتاب ألف فى حدود سنة ٤٧٥هـ كذلك، بينا نرى فى دائرة المعارف الإسلامية ومعجم الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى لزامباور أن الأمير كيكاوس مؤلف الكتاب حكم من سنة ٤٤١هـ إلى ٤٦٢هـ ـ (١٠٤٩ ـ ١٠٦٩م) أما ابنه كيلانشاه الذى من أجله ألف هذا الكتاب فقد ولى الحكم بعد أبيه من سنة ٤٦٢ هـ إلى سنة ٤٧١ هـ (١٠٦٩ ـ ١٠٧٨م) كما هو مبين بالمعجم، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أنه خُلع ومات عام ٤٧٠هـ ـ ١٠٧٧م[٣]. فتاريخ

(١) سمعت أن لقابوسنامة ترجمة روسية .

(٢) فى عام ١٣١٢ هـ ش الموافق ١٩٣٣م، قام الأستاذ سعيد نفيسى بطبع هذا الكتاب بطهران عن مخطوط بمكتبة آقاى حاج حسين آقاى ملك كتب سنة ٧٥٠ هـ وقدم له وعلق عليه .

(٣) جاء فى الجزء الثانى من تاريخ طبرستان لابن إسفنديار طبعة عباس إقبال أن مؤلف الكتاب توفى سنة ٤٦٢ هـ وخلفه ابنه كيلانشاه .

تأليف الكتاب كما تحدده كتب الأدب يقع بعد وفاة المؤلف بحوالى ثلاث عشرة سنة، وبعد وفاة ابنه الذى كان آخر أمراء الأسرة الزيارية بحوالى أربع أو خمس سنوات فبم تعلل هذا؟

إذا رجعنا إلى آخر الباب الرابع والأربعين من الكتاب نجد العبارة الآتية:

«وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائة».

وعلى هذه العبارة اعتمد مؤرخو الأدب فى تحديد زمن تأليف الكتاب، ولا نجد تعليلا لهذا إلا أن ناسخ الكتاب قد أخطأ فى نقل هذه العبارة فكتب سنة خمس وسبعين بدل سنة سبع وخمسين.

والمؤلف يذكر أنه بدأ تأليف الكتاب فى هذا التاريخ ولم يقل أتمه ولم يبين متى فرغ منه، ولكن الروايات تتفق مع مقدمة الكتاب فى أنه ألفه فى أخريات أيامه، وعلى ذلك يقع تاريخ تأليف هذا الكتاب فى رأينا بين سنتى ٤٥٧هـ و ٤٦٢هـ.

يقول المؤلف فى مقدمة الكتاب:

«اعلم يا بنى أنى هرمت وغلب علىّ الضعف، وأرى من شعرى كتابة منشور اعتزالى الحياة مسطورة على وجهى، فلما رأيت يا بنى أن اسمى فى دائرة الراحلين رأيت من المصلحة، قبل أن يصل كتاب عزلى، أن أكتب لك كتابا فى ذم الأيام وطلب الذكر الحسن بموجب الحب الأبوى؛ حتى تنظر فى كلامى بعين العقل، وتدرك من هذه النصائح الرفعة وطيب الذكر فى الدارين قبل أن تسحقك يد الزمان».

ثم يقول: «اعلم يا بنى أن الناس جُبلوا على أن يكدوا ليتركوا ما يكون من نصيبهم فى هذه الدنيا لأعز أقربائهم، وهذا الكلام كان نصيبى من الدنيا، وأنت أعز إنسان عندى، فلما أزمعت الرحيل بعثت إليك بما كان من نصيبى».

ويقول فى ختام الكتاب:

«فاعرف الآن يا بنى أنى ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلا فى كل باب، وكل ما كان من عادتى جعلته جملة كتابا فى أربعة وأربعين بابا من أجلك، واعلم أن هذه كانت دائما عادتى من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة، وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة».

* * *

ومن هذه العبارات نرى أن المؤلف قد انتهى من تأليف كتابه قبيل ارتحاله عن هذا العالم، وأنه ضمنه ما حصّله فى عمره الماضى من معارف وتجارب، وأنه يرى فى هذا الكتاب أثمن تراث يورثه لأعز الناس عليه، وقد وضع محصول عمره بين يدى ابنه كيلانشاه ليبصره بما يعود عليه بالسعادة فى دنياه وأخراه.

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن المؤلف : أمير شيخ ، دبر الإمارة وساس الرعية واحدا وعشرين عاما ، وأنه ألف كتابه فى آخر عمر طويل قضاه من شبابه إلى شيخوخته في الاستزادة من الحكمة وطلب العلم والمعرفة ، وأنه ضمن كتابه هذا ما حصله من علم ومعرفة وتجربة وخبرة بالأمور والناس ، أدركنا قيمة هذا الكتاب وسر ما نال من شهرة واهتمام فى الأوساط العلمية فى إيران وخارج إيران ، ومن دواعى الأسف أننا لا نقدر تراثنا إلا بعد أن يبصرنا به المستشرقون ، ويصبح بالنسبة إلينا بضاعة مجلوبة وكأننا لا نقدر هذا التراث الغالى لذاته بل تشبها بهم ، وعلى كثرة ما ترجمنا ونقلنا من كتب الغرب لا نعلم أن هذا الكتاب نقل إلى اللغة العربية قبل الآن ، فأقدَمْنا على ترجمته لسد هذا النقص فيها ، ولنضع بين يدى قُراء العربية صورة واضحة أشد الوضوح للحياة العلمية والاجتماعية ومقتضياتها فى العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى . وقد افتن صاحبها فى إبرازها دقيقة متقنة رائعة ، ولكنها صادقة كل الصدق بعيدة عن المبالغة والتكلف وليس فيها خط واحد من وهم الخيال .

يجد الباحث فى هذا الكتاب موضوعات خصبة ومجالا فسيحا للدرس والاستقصاء . والمؤلف لا ينتهى من باب حتى يمهد للباب الذى يليه إلى أن يفتح للقارئ الباب الرابع والأربعين ، فلا يخرج من هذا الباب إلا وقد أحاط بالعالم الذى عاش فيه المؤلف وشاركه العيش وبلى أهل هذا الزمان ، وأدرك ما عليه الأمير من علم واسع ومعارف شاملة وتجارب وافرة ونظرة مدققة صادقة ودراية تامة بحياة عصره وأهلها وسبل العيش فيها .

وإذا ألقينا نظرة عامة شاملة على أبواب الكتاب أمكننا تقسيمها من حيث موضوعها إلى ستة أقسام :

١ ـ المؤلف فى الأبواب التسعة الأولى يقف من ابنه موقف الواعظ الناصح ؛ فيتحدث عن معرفة الله وخلق الأنبياء ، وشكر المنعم ، وزيادة الطاعة بازدياد القدرة ، ومعرفة حق الوالدين ، وزيادة الجوهر من زيادة الفضل ، والكلام من حسن وقبيح ، ويورد نصائح أنوشيروان العادل ، ثم يتكلم عن الشيخوخة والشباب .

ويمكننا أن نلحق بهذه الأبواب التسعة الباب الثانى والعشرين فى حفظ الأمانة لأنه إلى موضوعها أقرب وفى بابها أدخل .

٢ ـ وفى الأبواب من العاشر إلى التاسع عشر يعلمه آداب اللياقة وقواعد الحياة الخاصة التى تليق بالأمراء وعلية القوم ؛ فيتكلم عن ترتيب الطعام والشراب ، وآداب الضيافة والتضييف ، ولعب النرد والشطرنج والعشق ، والاستمتاع ، والذهاب إلى الحمام ، والنوم ، والراحة ، والصيد ، وضرب الصولجان .

٣ ـ وفى الأبواب الحادى والعشرين ومن الثالث والعشرين إلى الثلاثين يتناول المعاملات من جمع

المال، وشراء الرقيق، والبيت، والضياع، والخيل، والزواج، وحق الولد، واختيار الصديق، وتدبر أمر العدو، والعفو والعقوبة.

٤ - والأبواب من الحادى والثلاثين إلى التاسع والثلاثين تدور حول العلوم والمهن التى يحتاج إليها المرء فى كسب معاشه؛ تدور حول طلب علم الدين، والقضاء، والتجارة، وعلم الطب والنجوم والهندسة والشعر والغناء، وخدمة الملوك ومنادمتهم، والكتابة وشرائطها، ويدخل فى جملتها الباب الثالث والأربعون فى الفلاحة.

٥ - أما فى الباب العشرين والأبواب من الأربعين إلى الثانى والأربعين فيعالج المؤلف الشئون العليا فى الدولة؛ فيفيض فى الحديث عن الحرب وشرائط الوزارة والقيادة والملك.

٦ - ثم يختتم الكتاب بالباب الرابع والأربعين وهو أطول أبواب الكتاب؛ متحدثا عن المروءة ومفهومها عند كل طائفة من الناس، وآداب أهل التصوف والصنعة.

وجدير بالمربين أن يقفوا مليًا عند الباب السابع والعشرين فى معرفة حق الولد، والباب الحادى عشر فى ترتيب الشراب؛ ليروا فى الأول كيف يتعهد القوم البنين والبنات من المهد إلى الرشد، ورأيهم فيما يجب تعليمه للفتى والفتاة، ومكان كل منهما من البيت والحياة، ونظرتهم إلى العقوبة البدنية بيد المعلمين، وموقف الآباء من البنين، ويتبينوا فى الثانى مواجهة الآباء للأمر الواقع فى علاج مشاكل الشباب ووضع الحلول العملية الصريحة لها فى شجاعة وغير مواربة.

فإذا تركنا موضوع الكتاب إلى الأسلوب ألفيناه صورة للنثر الفارسى فى القرن الخامس الهجرى؛ فهو ساذج فى جملته؛ خلو من الصناعة اللفظية لا ترد فيه إلا عفوا؛ ويتخلله شعر فارسى ركيك فى مبناه ومعناه من نظم المؤلف، وأمثال ونتائج لا تتسق مع سياقها ومقدماتها فى أكثر من موضع من الكتاب، وتحتل القصة بين أبوابه مكانا ظاهرا، يستعين بها المؤلف على توضيح غامض أو تأييد دعوى، وقلَّ أن يخلو منها باب من الأبواب.

وعبارته الفارسية فيها كثير من التراكيب ويسودها تكرار ممل وغامضة فى بعض الأحيان، ولا تخلو من استعارات وتشبيهات على جانب من الغرابة أو جمل مبتورة هنا وهناك.

وكاد كل هذا يسبب ركة فى الترجمة، ويوهن من قوتها لولا ما أمدتنا به اللغة العربية من وفرة فى المترادفات ومرونة بالغة فى الاشتقاق، واستخدام الضمائر بدل الكلمات التى تتكرر أحيانا فى سطور متوالية، وإضافة بعض كلمات لا يوجد ما يقابلها وتتطلبها استقامة الجملة وجلاء المعنى، وقد وضعت هذه الكلمات بين أقواس صغيرة « . . . . . » للدلالة عليها، كما جعلنا الجمل العربية الواردة بالكتاب بين أقواس كبيرة (. . . . .) لتمييزها.

والترجمة العربية مع مطابقتها تمام المطابقة لعبارة المؤلف وتقيدها بالنص المترجم كل التقيد؛ جاءت فى جملتها أقوى تعبيرا وأشد وضوحا من الأصل.

ولما كان هذا الكتاب الأول من نوعه فى الأدب الفارسى الإسلامى من حيث الموضوع؛ فقد قلده المتأخرون، فظهر فى حدود سنة أربع وثمانين وأربعمائة من الهجرة ١٠٩١م، كتاب سياستنامة المنسوب إلى نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى، ويقال إن ماكيافيللى ترسم هذا الأخير فى تصنيفه كتاب الأمير. وفى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس ظهر بالفارسية كذلك كتاب نصيحة الملوك المنسوب إلى حجة الإسلام الإمام الغزالى، وقد ترجمه أحد تلاميذه إلى العربية باسم «التبر المسبوك فى حكايات وحكم ونصائح الملوك».

ومؤلف هذا الكتاب هو الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير، من الأسرة الزيارية التى أسسها مرداويج بن زيار فى طبرستان وجرجان سنة ٣١٥هـ أو ٣١٦هـ (٩٢٧ - أو ٩٢٨م). وتمكن مرداويج من بسط سلطانه على أصفهان وهمدان ودفع بقواته إلى حلوان، وكان يحكم هذه البلاد باسم الخليفة العباسي ولكن أخاه وخليفته وشمكير قدم ولاء اسميا للسامانيين. وعندما ظهر شأن البويهيين كاد سلطان هذه الأسرة ينحصر فى جرجان وطبرستان. وفى أيام قابوس ابن وشمكير أغار عضد الدولة البويهى على أملاك الزياريين عام ٣٧١هـ - ٩٨١م، وانتزعها من يد قابوس، وظلت فى حوزة البويهيين إلى أن استردها قابوس عام ٣٨٨هـ - ٩٩٨م بعد وفاة فخر الدولة البويهى، وضم إليها كيلان واستمر خلفاؤه يحكمون هذه البلاد إلى أن استولى السلاجقة فى أواخر أيام الأمير الزيارى أنوشيروان بن منوچهر عام ٤٣٣هـ[١] ١٠٤١ / ٢م على طبرستان وجرجان فصار الأمراء الزياريون من ذلك الوقت يحكمون كولاة للسلاجقة، ويقال إن آخر أمرائهم كيلانشاه بن كيكاوس كان يحكم كيلان فقط[٢]، وقد خلعه ملكشاه السلجوقى وتوفى عام ٣٧٠هـ أو ٣٧١هـ (٩٨٠ أو ٩٨١م) وبوفاته انقضت أيام بنى زيار.

وإذا رجعنا إلى معجم الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى للمستشرق النمسوى إدورد فون زامباور Edward von Zambaur نراه يذكر أمراء هذه الأسرة ويحدد أيام حكمهم على النحو التالى:

(١) مرداويج بن زيار. سنة ٣١٥هـ - ٩٢٧م.

(٢) ظهير الدولة أبو منصور وشمكير بن زيار. سنة ٣٢٣هـ - ٩٣٤/ ٥م.

(٣) ظهير الدولة أبو منصور بيستون بن وشمكير. سنة ٣٥٦هـ - ٩٦٦/ ٧م.

(١) ابن الأثير جـ٨ سنة ٤٣٣ ذكر ملك طغرلبك جرجان وطبرستان.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) شمس المعالى أبو الحسن قابوس بن وشمكير. سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٦م.

وبالمنفى من سنة ٣٧١ ـ ٣٨٨هـ (٩٨١ ـ ٩٩٨م).

(٥) فلك المعالى منوچهر بن قابوس. سنة ٤٠٣هـ ـ ١٠١٢م.

(٦) أبو كاليجار أنوشيروان بن منوچهر. سنة ٤٢٠هـ ـ ١٠٢٩م.

(٧) دارا بن قابوس. سنة ٤٢٤هـ ـ ١٠٣٢/ ٣م.

أمراء زياريون عمال للسلاجقة:

أنوشيروان (للمرة الثانية). سنة ٤٢٦هـ ـ ١٠٣٤/ ٥م.

(٨) إسكندر بن قابوس. سنة ٤٣٤هـ ـ ١٠٤٢م.

(٩) كيكاوس بن إسكندر (مؤلف الكتاب). سنة ٤٤١هـ ـ ١٠٤٩م.

(١٠) جهانشاه بن كيكاوس (كيلانشاه) من سنة ٤٦٢ ـ ٤٧١هـ (١٠٦٩ ـ ١٠٧٨م).

* * *



وقد اعتمد زامباور فى ذلك على:

١ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير

٢ ـ كتاب اليمينى للعتبى.

٣ ـ تاريخ طبرستان لابن إسفنديار.

٤ ـ الآثار الباقية لأبى ريحان البيرونى.

* * *

أما المستشرق الأيرلندى «لين بول Lane Poole» فى كتابه عن الأسر الحاكمة الإسلامية The Mohammadan Dynasties فقد اعتبر تاريخ تأسيس مرداويج لهذه الأسرة عام ٣١٦هـ، لا عام ٣١٥هـ، كما ذهب إلى ذلك زامباور، ويقف بتسلسل أمراء هذه الأسرة عند أنوشيروان ويجعل مدة حكمه من ٤٢٠ إلى ٤٣٤هـ، فهو بهذا يعتبر الأمراء الزياريين الذين حكموا بعده مجرد ولاة سلاجقة وأن حكم هذه الأسرة ينتهى فى عام ٤٣٤هـ.

* * *

وتتفق دائرة المعارف الإسلامية مع لين بول فى أن تاريخ تأسيس هذه الأسرة هو عام ٣١٦هـ، وتجعل وفاة آخر أمرائها كيلانشاه عام ٤٧٠هـ لا عام ٤٧١ كما جاء فى معجم زامباور.

* * *

وقد حكم الأمير كيكاوس تحت سلطان السلاجقة إحدى وعشرين سنة تقع بين عامى ٤٤١و٤٦٢هـ، وهو زوج ابنة السلطان محمود الغزنوى، وكان فى وقت ما نديما لحفيده السلطان مودود بن مسعود بن محمود.

يقول فى الباب الثانى والأربعين من هذا الكتاب:

«كنت ثمانى سنوات نديما للسلطان مودود بغزنين».

ويقول فى موضع آخر من هذا الباب: «اعلم يا بنى أنه فى أيام ابن خالك السلطان مودود بن مسعود جئت إلى غزنين فأعزنى وأكرمنى كثيرا، ولما انقضت مدة ورآنى وجربنى أسند إلىَّ منادمته الخاصة».

ويدل تأليفه لهذا الكتاب على سعة معارفه ودرايته بالطب والنجوم والرياضيات والتاريخ، ويقال إن له أشعارا بالفارسية والطبرية، ولكن ما ورد من شعره فى قابوسنامه ركيك متكلف غير محكم ولا يدل على أنه شاعر مجيد.

وتحدثنا دائرة المعارف الإسلامية بأنه اشترك مع الغزنويين فى غزوات الهند، واشترك كذلك فى بعض الغزوات بجورجيا وأرمينية وكنجة، وحج فى أيام القائم.

وكان الأمير كيكاوس شديد الإعجاب بجده قابوس بن وشمكير فتسمى باسمه وعرف بقابوس الثانى وسمى كتابه قابوسنامه. ويقول فى مقدمة الكتاب مخاطبا ابنه كيلانشاه: «وجدك الأعلى الملك شمس المعالى قابوس بن وشمكير حفيد أرغش فرهادان، وكان له فى عهد كيخسرو مُلك كيلان وقد ذكره أبو المؤيد البلخى فى الشاهنامة وقد بقى منه مُلك كيلان تذكارا لأجدادك».

والحق أن قابوس كان أكبر أمراء هذه الأسرة، وكان عالما فاضلا وكاتبا مجيدا وشاعرا مطبوعا، يقرب العلماء والأدباء ومدحه الشعراء، عاش فى بلاطه محمد بن أحمد البيرونى الفيلسوف الرياضى المشهور المتوفى عام ٤٤٠هـ ـ ١٠٤٨م بضع سنوات، وبإشارته ألف كتابه المعروف «الآثار الباقية»، تولى حكم جرجان وطبرستان عام ٣٦٦هـ ـ ٩٧٦م، ثم أغار عضد الدولة البويهى على بلاده عام ٣٧١هـ ـ ٩٨١م لإجارته أخاه فخر الدولة، ثم استرد ملكه عام ٣٨٨هـ ـ ٩٩٨م بعد أن قضى فى منفاه سبع عشرة سنة، وامتلأت نفسه فى هذه المحنة مرارة وحقدا على الناس وفقد ثقته بهم، فلما عاد إلى ملكه صار شديد السطوة مرهف الحد مسرفا فى القسوة والاستبداد؛ فخافه الناس

وأبغضوه، ونفر منه الجند وكرهوه، وثاروا عليه وخلعوه، وولوا مكانه ابنه منوچهر فنزل له عن الملك إبقاء على البلاد في بيته وأسرته، ولكن الجند لم يأمنوا جانبه وبيتوا قتله فاقتحموا عليه قلعة جناشك (بين جرجان وإستراباذ) وجرّدوه من ثيابه بينما كان منشغلا بالوضوء للصلاة، وكان يقول لهم أعطوني ولو جل دابة أتدثر به فلم يعطوه وتركوه يعاني صولة البرد وقسوة الزمهرير فقضى نحبه على هذه الحال عام ٤٠٣هـ ـ ١٠١٢م.

وهكذا عاش قابوس في صراع مع الأيام إلى أن صرعته، ولكنه لم يهن في حياته ولم يستكن إلى أن ختمت أيامه بهذه المأساة.

يقول عنه الثعالبي في ختام الجزء الثالث من يتيمة الدهر: (إن الله جمع له إلى عزة الملك بسطة العلم، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم).

ويقول ابن الأثير في حوادث ٤٠٣هـ: (وكان قابوس غزير الأدب وافر العلم له رسائل وشعر حسن، وكان عالما بالنجوم وغيرها من العلوم).

ولقابوس بين أيدينا رسائل عربية مجموعة في كتيب بعنوان «كمال البلاغة»، وقد جمع هذه الرسائل الإمام أبو الحسن علي بن محمد اليزدادي وطبعت بمصر سنة ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٢م بالمطبعة السلفية على نفقة المكتبة العربية ببغداد، وقدم لها محب الدين الخطيب صاحب المطبعة المذكورة، وأورد ابن إسفنديار شيئا منها في تاريخ طبرستان. وفيما يلي بعض فقرات من هذه الرسائل وبعض أبيات من شعره ليقف القارئ بنفسه على مدى تمكن الرجل من أسلوب الكتابة في عصره وقوة شاعريته في العربية.

* * *

يقول في رسالة له إلى أبي الفضل بن العميد:

لم يزل الأستاذ منذ تعارفنا، وفي سبيل التصافي تصرفنا، يرى السعي في مصالحي من أكرم مساعيه، ورعاية العهد فيه من أهم ما يراعيه، ويبذل لي نخيلة الود، ومنخوله خير ما يبذل، ويجتني ثمرة الفؤاد وكل جميل يجتنيه يذبل. . . . . إلخ.

ومن رسالة له في التعزية:

الدهر ـ أطال الله بقاء الأستاذ ـ شر كله، مفصله ومجمله. مركب النوائب؛ وملعب العجائب. شأنه نكث العهود، وتبديل البيض بالسود. ما قصد أحدا بخير إلا اختتمه بشر. وما عهد في الرعاية عهدا، إلا نقض ذلك غدا. . . إلخ.

ومن شعره في الفخر والحماسة :

إني أنا الأسد الهزبر لدى الوغى خيس القنا ومخالبي أسيافي
والدهر عبدي والسماحة خادمي والأرض داري والورى أضيافي

ويقول وقد استولى عضد الدولة على بلاده :

لئن زال أملاكي وفات ذخائري وأصبح جمعي في ضمان التفرق
فقد بقيت لي همة ما وراءها منال لراج أو بلوغ لمرتقي
ولي نفس حر تأنف الضيم مركبا وتكره ورد المنهل المتدفق
فإن تلفت نفسي فلله درها وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق
ومن لم يردني والمسالك جمة فأي طريق شاء فليتطرق

ويقول :

قل للذي بصروف الدهر عيَّرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
فإن تكن نشبت أيدي الزمان بنا ونالنا من تمادي بؤسه الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ومن غزله :

خطرات ذكرك تستثير مودتي فأحس منها في الفؤاد دبيبا
لا عضو لي إلا وفيه صبابة فكأن أعضائي خلقن قلوبا

* * *

واشتهر قابوس بن وشمكير فوق ذلك بجمال الخط فكان الصاحب بن عباد إذا رأى خطه يقول :

هذا خط قابوس أم جناح طاووس؟

فحق لحفيده أن يفخر به وأن يتسمى باسمه .

أمين عبد المجيد

خريج معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الأول
وأمين مكتبة معهد التربية للمعلمين بالقاهرة

محمد صادق نشأت

أستاذ الأدب الفارسي بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول



کتاب النصیحة

قابوسنامه




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين. هكذا يقول جامع هذه النصائح، الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير مولى أمير المؤمنين، لابنه كيلانشاه:

اعلم يا بنى أنى قد هرمت، وغلب على الضعف، ومن شعرى أرى رقما لمنشور اعتزالى الحياة مسطورا على وجهى لا تستطيع محوه يد المدبرين، فلما وجدت يا بنى اسمى فى سجل[1] الراحلين، رأيت من المصلحة - قبل أن يصل كتاب عزلى - أن أدون كتابا فى ذم الزمان والاستمتاع بالذكر الجميل، وأقدم لك منه نصيبا بموجب الحب الأبوى حتى تنظر بعين العقل فى كلامى قبل أن تسحقك يد الزمان، ومن طريق هذه النصائح، تجد الرفعة وتحصل طيب الذكر فى الدارين، وإياك أن يتخلف قلبك عن قبول هذه النصائح، إذ قد تحقق منى ما هو شرط الأبوة، فإذا لم تحسن الإفادة من قولى فقد يكون هنالك آخرون يغتنمون سماعه والعمل به، ولو أن طبيعة الأيام مجبولة على أن لا يعمل ابن بنصح أبيه لشعلة فى باطن الشباب تجعل ظنهم - من قبيل الغفلة - يحملهم على أن يروا علمهم أسمى من علم الشيوخ، ومع أن هذا كان معلوما لى إلا أن الحب الأبوى لم يسوغ لى السكوت، فكل ما وجدته فى طبعى جمعت منه كلمات فى كل باب، وكل ما كان أوجب وأفضل دونته فى هذا الكتاب، فإن تحقق منك العمل فيها، وإلا فأكون قد أديت شرط الأبوة، فقد قيل ليس على القائل أكثر من الكلام، فإن لم يكن السامع مشتريا فلا ضير.

اعلم يا بنى بأن الناس قد جبلوا على أن يكدوا ويعملوا ليخلفوا ما يكون قد أصابوه فى دنياهم لأعز ذوى قرباهم وقد جاء هذا الكلام نصيبى من الدنيا، وأنت أعز إنسان عندى، فلما أزمعت الرحيل، بعثت إليك بما كان من نصيبى، لكيلا تكون متابعا لهواك، وتجنب ما لا يليق، وتحيا حياة خليقة بأصلك الطاهر، إذ أن لك أصلا شريفا، وأنت من كل جانب كريم الطرفين، وقد كان أجدادك دائما ملوك الدنيا، وجدك الأعلى الملك شمس المعالى قابوس وشمكير، كان حفيد أرغش فرهادان، وكان له ملك كَيلان فى عهد كيخسرو، وقد أورد أبو المؤيد البلخى ذكره فى الشاهنامة، وقد بقى منه

(١) الترجمة الحرفية: دائرة.

ملك كَيلان ذكرى فى أجدادك، وأمى جدتك كانت بنت ملكزاده مرزبان بن رستم شروين، المصنف لمرزبان نامه، وجدها الثالث عشر كايوس بن قباد كان أخا نوشيروان العادل، وأمك ابنة الملك الغازى محمود بن ناصر الدين، وجدى حسن فيروزان كان ملك ديلمان، فكن كيسا فطنا يا بنى واعرف قدر أصلك ولا تكن من السافلين، وإنى وإن كنت أتوسم فيك الخير والتوفيق إلا أنى رأيت من الواجب تكرار هذا الكلام.

واعلم يا بنى أن يوم رحيلى قريب، وسيكون مجيئك على إثرى قريبا، واعلم أن هذه الدنيا مزرعة من خير وشر، وما تزرع تحصد، ولا يأكل أحد حصيده فى مزرعته، بل يأكله فى العمار، والعمار هو الدار الباقية، وللرجال الصالحين فى هذه الدار همة الأسود وللطالحين همة الكلاب، فإن الكلب يأكل حيث يصيب طعامه، والأسد يأكل صيده فى مكان آخر، ومكان صيدك هذه الدار الفانية، وصيدك العلم والإحسان فاصطد هنا لكى تستطيع - وقت الأكل بالدار الباقية - أن يكون أكلك أيسر. وطريق ذلك طاعة الله عز وجل، ومثل الذى يطلب الله كمثل النار كلما تنكسها تطلب العلو والازدياد، والذى يبتعد عن طريق الله وطاعته كالماء، كلما ترفعه يطلب الانحدار، وقد وضعت هذا الكتاب فى أربعة وأربعين بابا وها هى الأبواب التى أكتبها:

الباب الأول: فى معرفة الله تعالى (فى معرفة الله تبارك وتعالى).

الباب الثانى: فى خلق الأنبياء ورسالتهم.

الباب الثالث: فى شكر رب النعمة.

الباب الرابع: فى ازدياد الطاعة عن طريق القدرة (فى زيادة الطاعة من طريق القدرة).

الباب الخامس: فى معرفة حق الوالدين.

الباب السادس: فى ازدياد الجوهر بازدياد الفضائل (فى زيادة الجوهر من زيادة الفضل).

الباب السابع: فى الكلام من حسن وقبيح.

الباب الثامن: فى نصائح أنوشيروان العادل (فى نصائح أنوشيروان العادل لابنه).

الباب التاسع: فى الشيخوخة والشباب.

الباب العاشر: فى آداب أكل الطعام (فى ترتيب تناول الطعام).

الباب الحادى عشر: فى آداب الشراب (فى ترتيب تناول الشراب).

الباب الثانى عشر: فى الضيافة والمؤانسة (فى التضييف والضيافة).

* العبارات التى بين الأقواس هى العناوين التى وضعها المؤلف لهذه الأبواب فى صلب الكتاب وهى تختلف بعض الاختلاف عن عناوينها التى وضعها لها فى المقدمة فأثبتناها هنا للتنبيه إلى موضع الخلاف.

الباب الثالث عشر : في لعب النرد والشطرنج (في المزاح ولعب النرد والشطرنج) .

الباب الرابع عشر : في العشق .

الباب الخامس عشر : في الاستمتاع .

الباب السادس عشر : في الذهاب إلى الحمام (في أدب الذهاب إلى الحمام) .

الباب السابع عشر : في النوم والراحة .

الباب الثامن عشر : في الصيد والطرد .

الباب التاسع عشر : في لعب الصولجان .

الباب العشرون : في القتال (في قتال الأعداء) .

الباب الحادي والعشرون : في جمع المال .

الباب الثاني والعشرون : في حفظ الأمانة (في إيداع الأمانة) .

الباب الثالث والعشرون : في شراء الرقيق .

الباب الرابع والعشرون : في الدور والضياع (في شراء البيت والضياع) .

الباب الخامس والعشرون : في شراء الخيل .

الباب السادس والعشرون : في خطبة النساء (في الزواج) .

الباب السابع والعشرون : في معرفة حق الأبناء (في تربية الولد) .

الباب الثامن والعشرون : في اختيار الأصدقاء (في الصداقة واتخاذ الأصدقاء) .

الباب التاسع والعشرون : في الحذر من العدو .

الباب الثلاثون : في العفو والعقوبة .

الباب الحادي والثلاثون : في طلب علوم الدين والقضاء (في طلب علم الدين والقضاء وغيرهما) .

الباب الثاني والثلاثون : في الإتجار (في التجارة) .

الباب الثالث والثلاثون : في طلب علم الطب (في علم الطب) .

الباب الرابع والثلاثون : في علم النجوم والهندسة .

الباب الخامس والثلاثون : في رسم الشعر .

الباب السادس والثلاثون : في أدب الغناء (في الغناء) .

الباب السابع والثلاثون : في خدمة الملوك .

الباب الثامن والثلاثون : في منادمة الملوك (في آداب المنادمة) .

الباب التاسع والثلاثون : في الكتابة وشرائطها (في الكتابة والإنشاء) .

الباب الأربعون : في شرائط الوزارة .

الباب الحادي والأربعون : في قيادة الجيوش (في شرائط القيادة) .

الباب الثاني والأربعون : في الملك (في آداب الملك) .

الباب الثالث والأربعون : في الفلاحة (الزراعة والصناعة) .

الباب الرابع والأربعون : في المروءة والفتوة (في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة) .



الباب الأول

فى معرفة الله تبارك وتعالى

اعلم يا بنى أنه لا شىء قط مما هو كائن أو معدوم أو يمكن أن يكون لم يصر معلوما للخلق كذاته تعالى. وأنت فى معرفة ذات الخالق عاجز، إذ ليس للمعرفة إليها سبيل، وكل ما عداها صار معروفا، وأنت تكون عارفا لله عندما تكون غير معروف، ومثل المعرفة كمثل المنقوش، والعارف كالنقاش، فما لم يكن فى المنقوش قبول للنقش، لا يستطيع نقاش أن ينقش عليه.

ألا ترى أن الشمع لما كان أكثر قبولا للنقش من الحجر، تعمل منه الأختام ولا تعمل من الحجر؟ فعليه يكون فى كل معرفة قبول للعرفان وذات الخالق غير قابلة للمعرفة، فتفكر فى نفسك ولا تفكر فى ذاته.

انظر إلى المصنوع واعرف الصانع، واحذر أن يضلك التلبث فى المعرفة طريق الصانع؛ لأن كل تلبث من الزمان، والزمان منقض، وللمنقضى بداية ونهاية، وهذه الدنيا التى تراها مغلقة لا تضيق بوثاقها، وتيقن أن وثاقها لا يبقى غير محلول، وتفكر فى آلاء الخالق ونعمائه، ولا تفكر فى ذاته، وهل أضل ممن ينشد الطريق حيث لا طريق؟ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: (تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته). ولولا أن الخالق - على لسان صاحب الشرع - قد منح العباد الجرأة لما كان لأحد أن يجترئ على الكلام فى معرفة الطريق إلى الله تعالى. اعلم أنه بكل اسم وبكل صفة تدعو الله إنما يكون ذلك على موجب عجزك وقصورك لا على موجب ألوهيته وربوبيته. إنك لا تستطيع الثناء على الله كما ينبغى له، فإذا كنت لا تستطيع الثناء عليه كما يليق به، فكيف تستطيع معرفة ذاته؟ إذا أردت حقيقة التوحيد فاعلم أن كل شىء فى المجاز هو الحقيقة فى الربوبية، وكل من عرف الواحد الحق برئ من محض الشرك، الواحد فى الحقيقة هو الله عز وجل، وكل ما سواه مثنى، إذ كل شىء يكون اثنين فى الصفة أو اثنين فى التركيب مثل الجسم، أو اثنين بالتفريق مثل العدد، أو اثنين فى الجمع مثل الصفات، أو اثنين فى الصورة مثل المبسوطات، أو اثنين بالاتصال مثل الطبع والصورة، أو اثنين فى مقابلة شىء مثل الجوهر والعرض، أو اثنين بالتولد مثل الأصل والفرع، أو اثنين بالمكان كالمثل والشبه، أو شيئًا متولدا من جوهر شىء كالهيولى والعنصر، أو اثنين عن طريق العدد مثل

المكان، أو اثنين من طريق المد مثل الزمـان، أو اثنين من طريق الحـد مثل الظن والعيـان، أو اثنين من طريق قبول شيء مثل الخاصية، أو اثنين أمام الوهم مثل المشكوك في الوجود أو العدم، أو يكون هو نفسه اثنين مثل الضد والند.

ومميز كل هذه علامة الثنوية، حاشا الله الذي ليس كمثله شيء. والحقيقة أن تعلم أن كل ما يأتي في تصورك لا يكون هو الله بل يكون الله عز وجل خالق ذلك الشيء، وهو منزه عن الشرك والشبه.



الباب الثانى

فى خلق الأنبياء ورسالتهم

اعلم يا بنى أن الله تعالى لم يخلق هذه الدنيا من أجل حاجته، ولم يخلقها عبثا، بل خلقها بمقتضى العدل، وزينها على اقتضاء الحكمة؛ لأنه علم أن الوجود خير من العدم، والكون خير من الفساد، والزيادة خير من النقصان، والحسن خير من القبيح، وكان على كلا النوعين قادرا وبهما عالما، ولم يعمل ما لا يليق أن يكون، أو كان على خلاف علمه. وعمل فى ميقات، وما عمله كان على موجب العدل، ولم يكن من الجائز أن يكون على موجب الجهل، فجاء وضعة على موجب الحكمة. كما أنه صوره على أبدع ما كان. كذلك كان قادرا على أن يعطى الضوء بغير الشمس، والمطر بغير السحاب، ويركب الأشياء بغير الطبائع، ويوجد التأثير بالخير والشر فى العالم بغير النجوم، ولكنه لما كان الأمر على أساس الحكمة، لم يوجد شيئا بغير الواسطة، وصير الواسطة سبب الكون والفساد، لأنه إذا انعدمت الواسطة انعدم شرف الترتيب ومنزلته، وإذا لم يكن الترتيب لم يكن التنظيم، ولا بد للفعل من النظام، ولا بد أيضا من الواسطة، فأوجد الواسطة كذلك لكى يكون ثمة قاهر ومقهور، ورازق ومرزوق، وهذه الثنوية. شاهد على وحدانية الله تعالى، ولما كنت ترى الواسطة ولا ترى الغرض، فإياك أن تنظر إلى الواسطة، أو ترى القليل أو الكثير صادرا عن الواسطة بل من رب الواسطة، فإذا لم تثمر الأرض لا تضع الغرم على الأرض، وإذا لم يسعد النجم، لا تجعل الغرم على النجم، فإن النجم يعرف عن السعد والنحس بقدر ما تعرف الأرض عن الإثمار، ولما لم يكن للأرض القدرة على أن تبذر فيها البذر الطيب فتثير الخبيث، فإن النجم له نفس هذا الحكم ولا يستطيع عمل الخير والشر، ولما كانت الدنيا قد زينت بالحكمة كان لا بد للمزينة من التزيين، فانظر فى هذه الدنيا لترى الزينة فى النبات والحيوان والمأكولات والملبوسات وأنواع الطيبات، إذ كل هذه الزينات قد أوجدت بموجب الحكمة. كما يقول فى كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ..﴾ (الدخان: ٣٨، ٣٩). فإذا عرفت أن الله لم يخلق نعمة فى هذه الدنيا عبثا، فإنه يكون من العبث أن لا يؤدى حق النعمة والرزق، وحق الرزق أن تعطيه للمرزوق، ولما كان العدل كذلك، فقد خلق الناس ليأكلوا، ولما أوجد الناس، كان تمام النعمة بالناس، وكان لا بد للناس من السياسة، والسياسة بغير مرشد تكون غير ناضجة، فإن كل مرزوق

يأكل الرزق بغير ترتيب وعدل، لا يعرف شكرا لرازق، ويكون هذا عيب الرزاق، إذ يكون الرزق قد أعطى للجاهلين والجاحدين، ولما كان الرزاق منزها عن العيب، لم يترك المرزوق جاهلا، كما ذكر فى كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). وأرسل الأنبياء إلى الناس ليرشدوهم إلى طريق المعرفة وتحصيل الرزق، وأداء شكر النعمة، لكى يكون خلق الدنيا بالعدل، وتمام العدل بالحكمة، وتمام الحكمة بالنعمة، وتمام النعمة بالمرزوقين، وتمام المرزوقين بالأنبياء الهادين، فلا ينقص من هذا الترتيب شىء، ليكون إرشادا حقا، فإذا نظرت من ناحية العقل فإن كثيرا من الحرم والفضائل التى للمرزوق والحاصلة بسبب النعمة والرزق، تستوجب أن يعرف حق هاديه، ويشكر رازقه، ويكون عارفا بحق رسله ويتعلق بهم، ويعتقد صدق الأنبياء جميعا، من آدم إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومطيعا فى الدين ولا يقصر فى شكر المنعم، ويراعى حق فرائض الدين ليكون حميد الذكر ومحمودا.



الباب الثالث

فى شكر رب النعمة

اعلم يا بنى أن شكر رب النعمة واجب على جميع الخلق، على قدر التكليف لا على قدر الاستحقاق، إذ لو جعلوا كل كيانهم شكرا، فإنهم يكونون قد أدوا بعد شكران جزء من ألف، واعلم أن حدود الطاعة فى دين الإسلام خمسة: اثنان منها خاصان بذوى اليسار، وثلاثة بجميع الخلق، وأحد هذه الثلاثة الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، والثانى أداء الصلوات الخمس، والثالث صوم رمضان، أما الشهادة فهى دليل النفى على حقيقة كل ما سوى الحق، والصلاة بصدق القول إقرار العبودية، وصوم رمضان هو التصديق والإقرار بألوهية الله، وبما أنك قلت إننى عبد فينبغى أن تكون فى العبودية، وإذا أردت أن يطيعك عبدك، فلا تفر من طاعة ربك، وإذا فررت، فلا ترجُ طاعة من عبدك، إذ إن إحسانك إلى عبدك ليس بأكثر من إحسان الخالق إليك، ولا تكن عبدا غير طائع، فإن العبد غير الطائع يكون مستألها، والعبد المستأله يهلك سريعا.

بيت

يحق لك إذا ضربت عنق العبد الذى تغدو الألوهية مطلبه

* * *

اعلم أن الصلاة والصوم خاصان بالله، فلا تقصر فيهما، لأنك إذا قصرت فى الخاص، قصرت فى العام، واعلم بأن صاحب الشريعة قد عدل الصلاة وحدها بالدين كله، فمن قصر فى الصلاة، فاعلم أنه قصر كذلك فى الدين كله، وجزاء غير المتدين فى هذه الدنيا القتل وسوء السمعة، وعقوبة الله تعالى فى الدار الآخرة. إياك يا بنى أن تدع للتقصير فى الصلاة إلى قلبك سبيلا، لأنك إذا نظرت من طريق الدين أو من طريق العقل عرفت أن فوائد الصلاة جمة، وأولها: أن كل من يؤدى فريضة الصلاة يكون جسده وثوبه طاهرا، والطهارة فى كل الأحوال خير من الدنس، ثم إن المصلى يكون خلوا من الكبر لأن أصل الصلاة قد بنى على التواضع، فإذا اعتاد الطبع التواضع، تبعه الجسد أيضا. ومعلوم لأهل المعرفة أن كل من يريد الاقتداء بقوم يجب عليه أن يصحبهم، وإذا امرؤ صحب التعساء صار تعسا، وإن أحد طلب السعادة والجاه وجب عليه أن يكون متابعا لأصحاب الجاه والثراء،

وإجماع العقلاء على أنه لا دولة أقوى من دولة دين الإسلام، ولا أمر أمضى من أمر الإسلام، فإذا أردت أن تكون دائما ذا إقبال ونعمة، فاطلب أصحاب الطول والحول، وكن مطيعا لأولى الأمر، ولا تطلب خلاف هذا، كيلا تكون تعسا، وحذار يا بنى أن تستخف وتهزأ بالصلاة، بعدم إتمام الركوع والسجود والمزاح فيها فإن هذا ليس من عادة المتدينين.

فصل

واعلم يا بنى أن الصوم طاعة تكون مرة فى العام، وليس من الرجولة التقصير فيها، ولا يجيز العقلاء مثل هذا التقصير، واحذر أن تحوم حول التعصب، ظانا أن الصوم لا يكون بغير التعصب. لا تتعصب فى الصوم والإفطار، فإذا علمت أن خمسة رجال علماء متعقلين قد صاموا فصم أنت أيضا معهم، وأفطر معهم، ولا تركن إلى قول الجهلاء. واعلم أن الله تعالى مستغن عن شبعك وجوعك، ولكن الغرض من الصوم هو أن يختم صاحب الملك على ملكه، وليس هذا على بعض من ذلك الملك، بل على كافة الجسد؛ أى أنه يتحتم أن يختم على اليد والرجل والعين والفم والأذن والبطن والعورة كلها جملة، كى تتنزهها كما ينبغى، وباعد هذه الأعضاء عن الفجور الذى لا يليق، حتى تكون قد أديت حق الصوم. واعلم أن أجل عمل فى الصوم هو أنك إذا أجلت طعام النهار إلى الليل أن تعطى للمحتاجين ذلك الطعام الذى كان نصيبك بالنهار، حتى تحقق فائدة تعبك، وتصل الرحمة والمنفعة إلى المستحقين.

وحذار أن ترضى التقصير فى هذه الطاعات الثلاث الخاصة بعامة الخلق، فإنه لا عذر للتقصير فيها، أما هاتان الطاعتان الخاصتان بالأغنياء، فعذر التقصير فيهما جائز، والكلام فى هذا الباب كثير، ولكنى قلت ما لا بد منه.

الباب الرابع

فى زيادة الطاعة من طريق القدرة

اعلم يا بنى أن الله عز وجل فرض فريضتين خاصتين بأهل النعمة والموسرين، وهما: الزكاة والحج. وأمر بأن يزور بيته كل من له ثروة وقدرة، ولم يفرض الحج على من ليس لهم مال واستطاعة، ألا ترى فى دنيا المعاملة أن أبواب الملوك يستطيع اجتيازها أرباب الثراء أيضا؟ ثم إن اعتماد الحج على السفر، وتكليف غير القادرين ليس من المعرفة، لأن السفر بغير مكنة يكون من التهلكة، وإذا لم تسافر عند القدرة لا تكون قد حصلت متع الدنيا ولذة نعيمها كاملة، فإن تمام اللذات فى أن ترى ما لا يرى، وتأكل ما لا يؤكل، وتجد ما لا يوجد، وهذا لا يكون فى غير السفر، إذ إن أهل السفر ذوو خبرة ومجربون وسعداء الأيام ومطلعون؛ لكونهم رأوا ما لا يرى وسمعوا ما لا يسمع، كما قيل فى العربية (ليس الخبر كالمعاينة) فقدر الخالق السفر على أصحاب النعمة، ليؤدوا حقه، ويأكلوا باستحقاق نعمته، ويمتثلوا أمر الله سبحانه، ويزوروا بيته ولم يأمر الفقير المعدم غير القادر، كما قلت:

رباعى

إذا لم يدعنى الحبيب ولم يجلسنى معه، واستحى من فقرى

كذلك فهو معذور؛ لأن بارئ الكونين، لم يدع الفقراء إلى بيته

* * *

واعلم يا بنى أن الفقير إذا حج، يكون قد ألقى بنفسه فى الهلكة؛ لأن الفقير الذى يعمل عمل الأغنياء مثل المريض الذى يعمل عمل الأصحاء وقعته تشبه قصة ذلك الحاج.

الحكاية

سمعت أنه فى وقت ما، قصد رئيس بخارى الحج، وكان رجلا ذا نعمة ويسار، ولم يكن فى تلك القافلة أحد أعز منه جانبا، وكان يحمل أحماله أكثر من مائة جمل. فجلس فى الهودج متبخترا متدللا، وقد رافقه قوم من الفقراء والأغنياء، فلما اقترب من عرفات، كان درويش يغدو حافى

القدمين ظمآن، وقد تورمت قدماه فرآه بذاك الدلال والنعيم، فالتفت إليه وقال: هل سيكون جزائى وجزاؤك سواء وقت المكافأة، وأنت تسير فى تلك النعمة وأنا فى هذه الشدة؟! فقال ذلك الرئيس: حاشا أن يعطينى الله عز وجل جزائى مثل جزائك وقت المكافأة، فلو كنت أعرف أنه ستكون لى ولك منزلة واحدة، لما كنت أتيت قط إلى البادية، فقال الدرويش: ولم؟ قال الغنى لقد جئت أنا بأمر الله وجئت أنت على خلاف أمره، لقد دعيت أنا فأنا ضيف، وأنت طفيلى، وكيف يكون تكريم الطفيلى كتكريم الضيف؟ لقد أمر الله تعالى الأغنياء بالحج وقال للفقراء: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥). وأنت قد جئت إلى البادية بالمسكنة والجوع بغير أمر الله عز وجل، وألقيت بنفسك فى المهلكة، فكيف تستوى وأهل الطاعة؟



كل من يحج مستطيعا يكون قد أدى حق النعمة، وامتثل أمر الخالق، فإذا كان لك مؤنة الحج فلا تقصر فى الطاعة، ومؤنة الحج خمسة أشياء: المكنة، والمدة، والحرية، والأمن، والراحة. فإذا وجدت نصيبا من هذه اجتهد فى التمام.

اعلم أن الحج طاعة لا تسقط قط ما دامت المكنة، واعلم أن الله تعالى يدعو مخرجى الزكاة بمقربيه، والرجل الذى يخرج الزكاة بين الأقوام الآخرين مثل الملك بين الرعية، لأنه رازق والآخرون مرزوقون. واعلم أن الله تعالى قادر على أن يكون كل الناس أغنياء، ولكن حكمته اقتضت[1] أن يكون البعض غنيا والبعض فقيرا، لكى تظهر منزلة الناس وشرفهم ويظهر الأعلون، مثل الملك الذى يوكل غلاما بأرزاق قوم فإذا أكل هذا الغلام الموكل بالرزق الأرزاق ولم يؤدها فإنه لا يستطيع أن يأمن غضب الملك. وكذلك الغنى إذا أكل الرزق ولم يؤت الزكاة، لم يستطع أن يكون آمنا من غضب الله تعالى، والزكاة مرة فى العام فريضة عليك، ولكن الصدقة زيادة فى الطاعة. ولو أنها ليست فريضة. أما فى المروءة والإنسانية فاعط ما تشاء ولا تقصر، فإن المتصدقين فى أمان الله، والأمن من الله تعالى يجب أن يغتنم. وإياك أن[2] تشكك قلبك فى شعائر الحج والزكاة، ولا تقل لم الجرى والإحرام وقص الأظافر والشعر؟ ولم يلزم إعطاء نصف دينار من كل عشرين دينارا؟ وماذا يريدون من البقر والغنم والإبل؟ ولم يسوقون الهدى؟ طهر قلبك من هذا جملة، ولا تظن أن كل ما لا تعرفه ليس بخير، فإن من الخير أن لا تعرف ولا تُعرف، واشتغل بطاعة الله عز وجل ولا شأن لك بكيف ولم، فإذا امتثلت أمر الله تعالى فاعرف حق الوالدين لأنه أمر الله تعالى.

(١) الترجمة الحرفية: ولكن هكذا كانت الحكمة.
(٢) الترجمة الحرفيه: وعليك الأمان ألا.

الباب الخامس

فى معرفة حق الوالدين

اعلم يا بنى أن الخالق لما أراد أن يعمر الدنيا، أوجد أسباب النسل، وصير شهوة الوالدين البهيمية سبب وجود الأبناء، فأداء حقهما واجب على الأبناء بموجب الوجود، وإياك أن تقول أى حق علىّ للوالدين، لقد كان غرضهما الشهوة، ولم أكن أنا المقصود؟ فإن لهما فضلا عن الشهوة شفقة بالغة، وقد احتملوا كثيرا. وأقل حق الأبوين أنهما الواسطة بينك وبين خالقك، فينبغى بقدر ما تحترم خالقك أن تحترم الواسطة احتراما يليق بها، والوليد ما دام صغيرا لا يحرم من الإرشاد وحب الأبوين له، والله عز وجل يدعوهما بأولى الأمر. كما قرأت فى التفسير أن أولى الأمر - على قول - هم الآباء والأمهات، إذ إن حقيقة الأمر فى العربية اثنان، الأمر والعمل كلاهما، وأولو الأمر من يكون لهم الأمر والقدرة على السواء، وللأبوين القدرة على تربيتك والأمر بحسن تأديبك.

أى بنى، لا تستهن بإيلام قلب أبويك فإن الخالق عز اسمه يأخذ بحق الوالدين. ويقال إن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه سئل عن حق الأم والأب، فقال: إنه هذا الأدب الذى وضعه الله تعالى فى موت أبوى النبى صلى الله عليه وسلم. فقالوا وما هو؟ قال: إنهما لو كانا أدركا زمن النبى صلى الله عليه وسلم، لكان واجبا على النبى من أن يضعهما فوق نفسه، وأن يتواضع ويؤدى حق البنوة، ثم لكان هذا الكلام حيث قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) يجىء ضعيفا، فإذا لم تنظر إلى الأبوين من وجهة الدين فانظر إليهما من وجهة إنسانيتك، إذ إن الأبوين سبب خيرك وأصل تربيتك. وعندما تكون مقصرا فى حقهما فإنه يتضح كذلك أنك لست أهلا لأى خير؛ لأن من لا يعرف حق الأصل لا يعرف قدراً لخير الفرع أيضا. وكيف يكون من الخير الإحسان إلى غير الشاكرين؟ فلا تطلب كذلك الخير لنفسك، وكن مع والديك كما تطمع من أولادك؛ لأن من يولد لك يطمع فى نفس ما تطمع فيه من أبويك. إذ مثل الآدمى كمثل الفاكهة، والأب والأم كالشجرة، فكلما تعهدت الشجرة أكثر آتت ثمرا أطيب، وكلما زدت تكريم أبويك صار دعاؤهما وثناؤهما فى حقك سريع الإجابة، وكنت أقرب إلى رضاء الله عز وجل، وإياك أن تتمنى موت أبيك من أجل الميراث، فإن ما يكون من رزقك، يصل إليك بغير موت الأبوين، لأن الرزق مقسوم، وكل إنسان يصل إليه ما يكون قد قسم له فى الأزل، ولا تشق على نفسك كثيرا من أجل رزقك؛ لأن الرزق لا يزيد بالسعى، فقد قيل:

(الرزق بالجد لا بالكد). وإذا أردت أن تكون راضيا عن الله عز وجل من أجل الرزق؛ فانظر في الصباح إلى من يكون حاله أسوأ من حالك لترضى دائما عن الله عز وجل. وإذا كنت فقيرا في المال فاجتهد في أن تكون غنيا بالعقل، لأن العقل من الغنى؛ إذ يمكن تدبير المال بالعقل، ولا يمكن تكوين العقل من المال، والجاهل يفلس سريعا من المال، ومال العاقل لا يستطيع اللص أن يسرقه[1]، ولا يستطيع الماء والنار أن يهلكاه. فإذا كان لك العقل، فتعلم الفضل؛ لأن العقل بغير الفضل كرجل بغير ثياب، وشخص بغير صورة، وجسد بغير روح، وقد قيل: (الأدب صورة العقل).



(١) لعل المقصود هنا بمال العاقل عقله وفضله كما يبدو من المفاضلة بين المال والعقل.

الباب السادس

فى زيادة الجوهر من زيادة الفضل

اعلم يا بنى أن المرء يكون بغير نفع ما دام بغير فضل، كشجرة المغيلان [1] التى لها جذع وليس لها ظل، لا تنفع نفسها ولا غيرها. وذوو النسب والأصل ولو كانو عديمى الفضل لا يجزمون احترام الناس. وأسوأ ما يكون المرء أن لا يكون له أصل ولا فضل، ولكن ينبغى الاجتهاد فى أن تكون جوهرا بشخصك حتى ولو كنت أصيلا عريقا؛ لأن جوهر الشخص خير من جوهر الأصل، كما قالوا (الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب) فإن العظمة للعقل والعلم لا للعنصر والأصل. ولا تكن تبعا [2] للاسم الذى وضعه أبواك فذاك الاسم علامة، والاسم حقا هو ما تخلعه على نفسك من الفضل، حتى تلقى باسم أحمد ومحمد وموسى وجعفر على أستاذ فاضل أو حكيم كامل، فإذا لم يكن لذى الأصل جوهر الفضل فإنه لا يليق بصحبة أحد، وتشبث بكل من فيه هذان الجوهران، ولا تدعه من يدك، فإنه ينفع كل إنسان.

اعلم أن الفضيلة الأفضل من جميع الفضائل هى الكلام؛ لأن الخالق جل جلاله خلق الآدمى أفضل من كل مخلوقاته، والإنسان الذى نال الفضل على سائر الحيوان ناله بعشرة أشياء فى بدنه: خمسة من الباطن وخمسة من الظاهر؛ فالخمسة الخفية مثل الفكر والتعلم والحفظ والتخيل والنطق. وتلك الخمسة الظاهرة مثل السمع والبصر والشم واللمس والذوق. وما يكون لسائر الحيوان من هذه كلها لا يكون على هذه الجملة، فصار الإنسان لهذا السبب ملكا قاهرا على سائر الحيوان، فإذا عرفت ذلك فتعلم الفضل وتعود فضائل اللسان، لأن لسانك يقول دائما ما تجرى عليه، فقد قيل أحسن الناس لسانا أكثرهم فضلا [3]، واجتهد مع كل فضائلك فى أن تقول الكلام فى موضعه، فإن الكلام إذا كان جيدا ولم يكن فى موضعه فإنه يبدو قبيحا. وآثر الصمت على الفضول، إذ إن الكلام غير النافع ضرر كله، والكلام الذى لا تأتى منه رائحة الفضل من الخير أن لا يقال، فقد مثل الحكماء

---

(١) لعلها العوسج.

(٢) وضعنا كلمة تبع مقابل همداستان لتمشيها مع سياق الكلام ومعنى همداستان فى الأصل: من يقص نفس القصة. وتأتى أيضا بمعنى سكرتير أو مؤتمن أو صديق محب، وهذه المعانى لا تؤدى هنا المعنى المقصود.

(٣) الترجمة الحرفية: كل من له لسان أحسن له فضل أكثر.

الكلام بالنبيذ الذى يكون منه السكر والنشوة، ويكون منه الخمار. وحذار أن تقول الكلام الذى لم تسأل عنه. وتجنب القول البذىء وإذا سئلت فلا تقل غير الصواب، ولا تنصح أحدا ما لم يطلب النصيحة، ولا تعظ وخاصة من لا يسمع النصح، ولا تنصح على الملأ فقد قيل (النصيحة بين الملأ تقريع). وإذا كان امرؤ قد نشأ على الاعوجاج فلا تحمْ حول تقويمه، لأنك لا تستطيع تقويم الشجرة التى نشأت على العوج وتفرعت وطالت بغير القطع والتشذيب، وكذلك لا تبخل بالكلام الحسن، وإذا كانت لك طاقة فلا تبخل ببذل المال؛ لأن الناس أكثر افتتانا بالمال منهم بالكلام، وتجنب مواطن التهم، وفر من الصاحب السيِّئ التعليم والفكر، ولا تغتر بنفسك، وضع نفسك فى الموضع الذى إذا طلبوك فيه وجدوك بحيث لا تخجل، واطلب نفسك من حيث تكون قد وضعتها لتجدها ثانيا، ولا تفرح بغم الناس حتى لا يفرحوا بغمك، وانصف حتى تجد النصفة، وقل خيرا لتسمع خيرا، ولا تبذر فى الأرض السبخة، فإنها لا تثمر، والإحسان إلى غير الشاكرين كإلقاء البذر فى الأرض السبخة، ولا تضن بالإحسان على مستحق الإحسان، وكن معلما للخير فقد قيل (الدال على الخير كفاعله). واعلم أن فاعل الخير والآمر به أخوان، إذ إن الزمن لا يقطع صلتهما، ولا تندم على فعل الخير، فإن جزاء الخير والشر يصل إليك فى هذه الدنيا أيضا، وعندما تحسن إلى إنسان، فانظر تر أنه فى وقت الإحسان، يوجد فى قلبك من الارتياح والغبطة بقدر ما يصل إلى ذلك الإنسان من الراحة، وإذا أسأت إلى إنسان فإنه يصل إليه من الألم بقدر ما يكون قد وصل إلى قلبك من الضجر والكدر، فإذا نظرت إلى الحقيقة رأيت أنه لا يصل منك ألم إلى أحد بدون ضجرك، ولا تصل منك راحة إلى أحد بغير هنائك، فصار حقا أنك تجد جزاء الخير والشر فى هذه الدنيا أيضا قبل أن تصل إلى العالم الآخر، ولا يستطيع امرؤ أن ينكر هذا الكلام، فإن كل من أحسن أو أساء إلى إنسان يعرف أننى فى هذا الكلام على حق، فلا تضن ما استطعت على امرئ بالخير فإن ذلك الخير يثمر يوما ما.

حكاية

سمعت أنه فى ذلك الوقت الذى كان المتوكل[1] خليفة فى بغداد كان له غلام اسمه الفتح، وكان حسن الحظ سعيد الأيام، وقد تعلم الفنون والآداب، فتبناه المتوكل، وأراد الفتح هذا أن يتعلم السباحة فكان الملاحون يعلمونه فنونها، ولم يكن يجرؤ على أن يسبح فى دجلة ولكنه على عادة الصغار كان يتظاهر بنفسه قائلا إنى قد تعلمت، وذات يوم ذهب ليسبح منفردا بغير الأساتذة، وكان الماء يجرى بشدة، فجرف الفتح، وعرف الفتح أنه لا يستطيع مقاومته فجاراه وأرخى نفسه، وصار يدلف على وجه الماء حتى غاب عن أعين الناس، فلما قطع مسافة كان على ضفة النهر ثقوب وفجوات، وشرب ماء، وفجأة أوصله الماء إلى تلك الفجوات والثقوب، فجاهد وألقى بنفسه فى إحداها ومكث ليرى ما لله تعالى من حكمة فى هذا، قائلا لعلى فى هذه الساعة أخلِّص نفسى، وقد

(١) كان مقر الخليفة المتوكل فى سُرَّ من رأى لا فى بغداد.

بقى فى هذه الفجوة سبعة أيام بلياليها ، وفى اليوم الأول أخبروا المتوكل أن الفتح قد غرق ، فنزل عن التخت ، وجلس على الأرض ودعا الملاحين وقال : كل من يأتى بالفتح عندى حيا أو ميتا أعطيه ألف دينار . وأقسم الأيمان المغلظة قائلا بأنهم إذا لم يأتوا به بالحالة التى يكون عليها ولم أره فإنى لن أتناول طعاما . فنزل الملاحون فى دجلة وغاصوا وأخذوا يبحثون عنه ، إلى أن وصل أحد الملاحين فى نهاية اليوم السابع إلى تلك الفجوة ، ورأى الفتح فابتهج وقال أذهب فأحضر السمارى[1] ، فذهب وجاء إلى المتوكل وقال يا أمير المؤمنين ، إذا أتيت بالفتح حيا فماذا تعطينى؟ قال أعطيك خمسة آلاف دينار نقدا ، فقال الملاح وجدته حيا ، وسآتى به فذهبوا بالسمارى وأتوا بالفتح حيا ، فأعطى المتوكل الملاح ما كان قد تقبله ، وقال للوزير اذهب إلى الخزانة وأعط للفقراء النصف من كل ما يكون بها ، ثم قال أحضروا الطعام ، فإنه جائع سبعة أيام بلياليها ، فقال الفتح يا أمير المؤمنين إنى شبعان ، فقال المتوكل لعلك شبعان من الماء ، فقال الفتح فى هذه الأيام السبعة كان يأتينى فى كل يوم عشرة أرغفة موضوعة على طبق فكنت أجاهد وآخذ فى كل يوم اثنين أو ثلاثة منها وأعيش بها ، وكان مكتوبا على كل رغيف : محمد بن الحسن الإسكاف . فأمر المتوكل أن اجعلوا مناديا ينادى : من الرجل الذى كان يلقى الخبز فى دجلة؟ فأتوا به وقولوا له إن أمير المؤمنين سيحسن إليك ، وفى اليوم التالى جاء رجل وقال إنى أنا الذى ألقيت الخبز فى دجلة ، فقال المتوكل : بأية أمارة؟ قال بأمارة أن اسمى محمد بن الحسن الإسكاف ، كان مكتوبا على كل رغيف ، فقالوا إن هذه الأمارة صحيحة ، فمذ أى وقت تلقى بهذا الخبز فى دجلة؟ قال منذ سنة ، فقالوا وما غرضك من هذا؟ قال كنت قد سمعت ، أن اعمل الخير وألق به فى الماء فإنه يثمر يوما ما . فقال المتوكل لقد عملت ما سمعت ووجدت ثمرة ما عملت ، وملكه خمس قرى على باب بغداد ، وذهب ذلك الرجل إلى قراه ، وصار عظيما جدا ، إلى أن ذهبت فى زمن القائم بأمر الله للحج ، حيث رزقنى الله تعالى زيارة بيته ، فرأيت أحفاد ذلك الرجل فى بغداد وسمعت هذه الحكاية من الشيوخ .

فلا تتقاعس عن عمل الإحسان بقدر ما تستطيع ، وخذ نفسك بعمل الخير والإحسان إلى الناس . وإذا ظهرت بمظهر فلا تكن بخلاف ذلك ، لا تقل بلسانك غير ما تضمر ولا تضمر بقلبك غير ما تقول ؛ لكيلا تكون مرائيا مظهرا للقمح بائعا للشعير . وانصف من نفسك فى كل الأمور لأن كل من ينصف من نفسه يستغنى عن الحكم ، وإن كان لك غم أو فرح فبثه من له اهتمام بغمك وفرحك ، ولا تظهر ألمك وحزنك وغمك وفرحك أمام كل إنسان ، ولا تكن سريع الابتهاج والاغتمام بكل خير وسوء ، لأن ذلك فعل الصغار . وكن على أن لا تتحول عن حالك بكل محال ، فإن أهل العقل لا يتزحزحون عن مكانهم بكل حق وباطل ، وكل سرور مآله إلى الغم لا تعده سرورا ، وكن فى وقت اليأس أكثر أملا ، واعلم أن اليأس منوط بالأمل وأن الأمل فى اليأس ، واعلم أن حاصل كل الأمور

(١) السمارى نوع من الزوارق يستخدم فى دجلة .

هو الارتحال عن الدنيا، ولا تكن منكرا للحق، وإذا ثار عليك إنسان فأطفئ ثورته بالصمت، واعلم أن الصمت جواب الحمقى، ولا تضيع تعب أحد قط، واعرف كل امرئ بما هو أهله، وخاصة من له حق قرابتك، واحترم شيوخ قبيلتك، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الشيخ في القبيلة كالنبي في الأمة). ولكن لا تكن مولعا بهم، حتى تستطيع أن ترى عيوبهم كما ترى فضائلهم، وإذا لم تأمن الغرباء، فاجعل ثقتك بهم بقدر عدم أمنك منهم، ولا تأمن غير المؤتمن في ظنك، لأن من الجهل تناول السم بمظنة الترياق، وانظر إلى عقل الناس وفضلهم، فإذا رأيت أنك تستطيع الحصول على الصيت والعيش بغير عقل ولا فضل فكن بغير عقل وفضل، وإلا فتعلم الفضل، ولا تر العار في التعلم والاستماع لتنجو من العار، وانظر في عيب الفضلاء وفضلهم لتعرف ما هو نفعهم وضررهم، ومدى الربح والخسارة، ثم التمس نفعك من بين ذلك، وابتعد عن تلك الأشياء التي تقرب الناس من المضرة، وعود نفسك تعلم الأدب والفضل، وتعلم الشيء الذي لا تعرفه، فإن سقراط يقول: لا كنز أفضل من الفضل، ولا عزة أجل من العلم، ولا زينة أحسن من الحياء، ولا عدو أسوأ من الطبع السيئ. فلا تعين وقتا للتعلم، وفي أي وقت وحال يجب أن لا تفوت منك ساعة لا تتعلم فيها علما، وإذا لم يوجد في ذلك الوقت عالم فإنه يمكنك أن تتعلم من الجاهل، وذلك بأنه في كل وقت تنظر إلى الجاهل، بعين البصيرة وتوكل به بصارة العقل، تعرف أن ما لا يعجبك منه لا ينبغي عمله كما قال الإسكندر: إنني لم ألق النفع من الأصدقاء بل لقيته على الأكثر من الأعداء، وذلك لأنه إذا كان في أمر قبيح يستره الأصدقاء بموجب الشفقة، حتى لا أعرفه ويجعله العدو معلوما لي بموجب ما عنده من العداوة، فأبعد ذلك العمل السيئ عن نفسي، فأكون قد لقيت النفع من العدو. وأنت أيضا تكون قد تعلمت ذلك العلم من الجاهل. وواجب على الناس ـ سواء كانوا من الأكابر أم كانوا من الأصاغر ـ أن يتعلموا الفضل والأدب، لأن التفوق على الأقران يمكن نيله بالفضل والمعرفة، عندما ترى في نفسك ميزة لا تراها في أقرانك فإنك ترى نفسك دائما أسمى منهم، ويراك الناس أيضا أفضل من أقرانك بقدر فضلك وعرفانك، وعندما يرى الرجل العاقل أنهم يعظمونه، فإنه يجتهد حتى يكون أفضل وأكثر معرفة، وإذا فعل الناس هكذا، فإنه لا يمضي كثير حتى يصير أعظم من كل إنسان، وطلب العلم هو طلب الرفعة على الأصحاب والنظراء، والكف عن الفضل دليل الرضا بالجهل والانحطاط، وتعلم الفضل وإنهاك الجسم نافع جدا، فقد قيل: الكسل فساد البدن. وإذا لم يطع الجسد فإنك لا تستريح جيدا؛ لأن جسمك لا يطيعك من الكسل وحب الراحة بسبب أنه ليس لجسدنا تحرك طبعي، وكل حركة يعملها الجسم إنما يعملها بالأمر لا بالرغبة، وما لم ترد أنت وتأمر فإنه لا يكون للجسد رغبة في العمل قط، فطوع جسدك بالعسف، ورده إلى الطاعة بالقهر، فإن من لا يستطيع أن يطوع جسمه لا يكون له نصيب من الفضل، وإذا جعلت جسدك مطيعا بتعلم الفضل، لقيت سلامة الدارين في فضله، واعرف أن رأس مال الصالحات في العلم وأدب النفس والورع والصدق وطهارة الدين وعدم الأذى والحلم والحياء.

أما حديث الحياء فإنه وإن قيل (الحياء من الإيمان) إلا أنه فى كثير من المواضع يكون وبالا على الناس، فلا تكن خجولا؛ لأن الخلل والتقصير فى المهمات يتطرقان من الخجل، إذ إنه فى مواضع كثيرة يجب عدم الخجل ليتحقق الغرض، ويجب الحياء من الفحش واللؤم وعدم الحفاظ والكذب، ولا تخجل من قول الصلاح وعمله، ولما كان الخجل نتيجة الإيمان والفاقه نتيجة الخجل، فإنه يجب معرفة مواضع الخجل وعدم الخجل، وما يكون أقرب إلى الصواب يجب عمله، فقد قيل: مقدمة الصلاح الحياء، ومقدمة الفساد القّحة. أما الجاهل فلا تعده من الناس، وعد الفاضل عاقلا، ولا تحسب المتعفف الجاهل زاهدا، ولا تصحب الجهال، خاصة الجاهل الذى يحسب نفسه عالما، ولا ترض بجهلك، ولا تصاحب غير طيبى السمعة، فإن الرجل يصير حسن الذكر بصحبة الأخيار، ألا ترى أنك تمزج زيت السمسم بالورد أو البنفسج، ويكون حينا مع الورد أو البنفسج، فلا يسميه أحد زيت السمسم، بل زيت الورد أو زيت البنفسج. وببركة هؤلاء الصالحين لا تكن جاحدا للعمل الصالح، ولا تنسه ولا تعرض عن المحتاج إليك فيكون له بذلك عين ألم الحاجة تماما، واجعل كرم الخلق والرجولة عملك، وابتعد عن الأخلاق الذميمة، ولا تكن مضرا، إذ إن ثمرة الإضرار الحاجة، وثمرة الحاجة السفالة، واجتهد أن تكون ممدوح العقلاء، ولا تكن ممدوح الجهال، فإن ممدوح العوام والجهال مذموم الخواص، كما سمعت فى الحكاية.



حكاية

يقال إن أفلاطون كان جالسا ذات يوم، فاقترب منه رجل من جملة خواص تلك المدينة وجلس، وأخذ يتحدث إليه من كل أنواع الحديث، وفى خلال ذلك قال: أيها الحكيم رأيت رجلا كان يتحدث عنك ويدعو لك كثيرا ويثنى عليك قائلا: إن أفلاطون رجل عظيم ولم يكن قط رجل على شاكلته ولن يكون. فأردت أن أبلغك شكره فلما سمع أفلاطون هذا الكلام اغتم وبكى، فقال الرجل: أيها الحكيم ماذا آلمك من هذا الكلام فبكيت؟ فقال أفلاطون أيها السيد لم يصل إلى منك ألم قط، ولكن أية مصيبة أسوأ علىّ من أن يمدحنى الجاهل ويعجبه عملى؟ لا أدرى أية جهالة فعلت فكانت قريبة من طبعه وأعجبته، لأتوب عن ذلك الأمر، وغمى هذا من كونى ممدوح الجهال!

وأذكر أيضا فى هذا المعنى حكاية أخرى:

حكاية

كان محمد بن زكريا الرازى يغدو مع قوم من تلاميذه، فجاء إليهم مجنون وقال: لا يوجد أحد طيب إلا محمد بن زكريا وضحك فى وجهه، فلما جاء محمد بن زكريا إلى بيته طلب مطبوخ الأفتيمون وتناوله، فسأله تلاميذه لم تأكل هذا المطبوخ؟ قال من أجل ضحك ذاك المجنون، لأنه لو لم يكن قد رأى فىَّ جزءا من جنونه لما ضحك فى وجهى، فقد قالوا: (كل طير يطير مع شكله).

وفضلا عن ذلك لا تثر ولا تحتد ولا تخل من الحلم، ولكن لا تلن كليا كذلك فتؤكل من اللين، ولا تكن أيضا فظا بحيث لا يمكن الوصول إليك قط، وكن على وفاق مع كل قبيل، فإنه بالوفاق يمكن تحقيق المراد من الصديق والعدو، ولا تعلم أحدا السوء فإن تعليم السوء تلو عمل السوء، وإذا أساءك إنسان بغير جرم، فاجتهد ألا تسيء إليه، فإن دار قلة الأذى في حى الإنسانية بل إن أصل الإنسانية قلة الأذى، فإن كنت رجلا فكن قليل الأذى، ويجب على المرء أن يتراءى في المرآة، فإن كان له مرأى حسن، وجب أن يكون عمله حسنا كمرآه، وإن رأى وجهه قبيحا وجب عليه أن يكثر من عمل الإحسان؛ لأنه إن عمل قبيحا وقع القبح على القبح، وأكثر ما يكون قبيحا قبحان في مكان واحد، واقبل النصح من الإخوان الموافقين، واخلُ كل وقت بناصحيك، وإذا قرأت هذه الكلمات التي ذكرتها وعرفتها، فلا تغتر بفضلك ومعرفتك، ولا تظن أنك عرفت كل شيء وعد نفسك من جهلة الجهال، فإنك تكون عالما حين تقف على جهلك.

وكذلك سمعت في حكاية أنه في أيام كسرى برويز وعهد وزارة بزرجمهر، جاء رسول من الروم فجلس كسرى كما كانت عادة ملوك الفرس، وأذن للرسول، وكان يريد أن يعمل برنامجا قائلا: إن لي وزيراً عالما في المقدمة، فقال الرسول للوزير: يا فلان أتعرف كل الأشياء التي في العالم؟ قال بزرجمهر: لا يا سيد العالم. فغضب كسرى من هذا الكلام وخجل من الرسول. فسأل من يعرف كل شيء؟ قال بزرجمهر: كل شيء يعرفه كل الناس، وكل الناس لم يولدوا من أمهاتهم بعد؟ فعد نفسك من بين الجمع أجهل إنسان، فإذا عرفت نفسك جاهلا صرت عالما، ويكون المرء عالما إذ يعرف أنه جاهل وعاجز، وكان سقراط مع علمه يقول: لو لم أخش أن يعيبني أكابر أهل العقل من بعدي ويقولون إن سقراط ادعى كل علم الدنيا جملة لقلت إني لا أعرف شيئا مطلقا، وإني عاجز، ولكني لا أستطيع أن أقول ذلك فإنه يكون مني دعوى كبيرة، وكان أبو شكور البلخي يمدح نفسه بالعلم فيقول:

بيت

لقد وصل علمي إلى حيث عرفت أني جاهل[١]

فلا تغتر بعلمك، ولو كنت عالما، وإذا عرض لك أمر فلا تكن مستبداً برأيك مهما كانت لك القدرة على إنجازه، لأن كل من يكون مستبداً برأيه يندم دائما، ولا تر العار في المشورة، وتشاور مع الشيوخ العقلاء والأصدقاء المشفقين فإنه مع حكمة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته بعد أن صار معلما وعاملا بأمر الله عز وجل قد أمره قائلا: (شاورهم في الأمر يا محمد). تشاور مع هؤلاء المرضيين وأصحابك، عليكم التدبير وعليَّ النصر فإني أنا الله. واعلم أن رأى شخصين لا يكون

(١) تا بد إنجار سيده دانش من كمه بدانسته أم كمه نادانم

كرأي شخص واحد، وأن عينا واحدة لا تستطيع أن ترى ما تراه العينان، ألا ترى أنه عندما يمرض طبيب ويستعصي عليه المرض لا يعتمد على علاج نفسه فيحضر طبيبا آخر ويداوي نفسه باستطلاع رأيه وإن يكن طبيبا أقل منه؟ وإن حزب ابن جنسك أمر فلا مناص من أن لا تضن عليه بالجهد والتعب والمال، وإن يكن عدوك وحاسدك، لأنه إذا نفعته معونتك، صار له الخلاص من هذه المحنة، وقد تتبدل تلك العداوة بالصداقة، وإذا جاء البلغاء المتكلمون للسلام عليك فاحترمهم وأحسن إليهم ليحرصوا علي السلام عليك، لأن ألأم الناس من لا يسلم عليه، وإذا تكلمت مع الناس فلا تكن رخوا إذ لا يحسن بالرجل العاقل أن يكون رخوا، لأن الرجل ـ وإن كان حكيما ـ عندما يكون رخوا لا تشبه حكمته الحكمة، ولا يكون لكلامه رونق، فاعرف كيف يكون شرط الكلام.



الباب السابع

فى الكلام من حسن وقبيح[1]

أى بنى، كن لسنًا ولكن لا تكن كذابا، ولا تجعل نفسك معروفا بالكذب، وكن معروفا بالصدق، حتى إذا ما كذبت مرة مضطرا قبل منك، ولتقل ما تقوله صدقا، ولكن لا تقل الصدق الشبيه بالكذب، فإن الكذب المشابه للصدق خير من الصدق الذى يشبه الكذب، لأن هذا الكذب مقبول وذاك الصدق غير مقبول، واحترز كيلا يقع لك مثل ما وقع لى مع الأمير أبى الأسوار:

اعلم أنه فى أيام الأمير أبى الأسوار شاور بن الفضل ذهبت للغزو بكنجة فى السنة التى عدت فيها من الحج، إذ كنت قد غزوت كثيرا فى الهند وأردت أن أغزو فى الروم أيضا، وكان أبو الأسوار رجلا ساكنا عاقلا وملكا عظيما مراعيا للعهد وعادلا وشجاعا وفصيحا وبعيد النظر، وكان كما ينبغى أن يكون الملوك المجدون، كان كله جدا لا هزلا، فلما رآنى أجلنى كثيرا، ودخل معى فى الحديث، وكان يتحدث عن كل شىء ويسأل وأجيب، وكانت تعجبه أحاديثى، فأكرمنى كثيرا ولم يتركنى لأعود، ولكثرة ما كان يحسن إلىَّ، وطنت قلبى على الإقامة وأقمت سنوات بكنجة، وكنت دائما أحضر للطعام والشراب فى مجلسه، وكان يسألنى عن كل أنواع الكلام، إلى أن كان الحديث يجرى ذات يوم عن عجائب كل موضع، فقلت فى رستاق كَوكَان قرية وعين ماء بعيدة عن القرية، والنسوة اللاتى يذهبن لطلب الماء يتجمعن وقد أخذت إحداهن جرة فارغة وهى تمشى فى المقدمة وتنظر فى الطريق، وفى أراضى تلك القرية دودة خضراء وحيثما ترى من ذلك الدود شيئا تنحيه من الطريق، لكيلا تطأه واحدة من النسوة اللاتى يحملن الماء، فإذا وطئت إحداهن تلك الدودة وماتت تحت قدمها تعفن الماء الذى تحمله فى الجرة فى الحال بحيث يجب إراقته، ويلزمها أن تعود مرة ثانية وتغسل الجرة وتأتى بالماء من العين، فلما قلت هذا الكلام عبس الأمير أبو الأسوار وحول عنى وجهه، ولم يكن معى لبضعة أيام على تلك الحال التى كان عليها من قبل، حتى قال لى فيروزان الديلمى إن الأمير متألم من تلك الحكاية، وقال فلان رجل ثابت رزين فما يدعوه أن يتكلم معى كما يتكلمون مع الأطفال؟ فأرسلت فى الحال رسولا من كَنجة إلى كَركَان، وأمرت بعمل محضر بشهادة القاضى والخطيب وعلماء تلك الناحية على تلك الجملة، يثبتون فيه أن تلك القرية موجودة وحال تلك الدودة

---

(1) الترجمة الحرفية: عن الحسن والقبيح فى الكلام.

على عهدها كذلك، وكان يلزم أربعة شهور لأعمل ذلك المحضر، ووضعته أمام أبى الأسوار وقرأته، فتبسم وقال: إنى أنا نفسى أعلم أن قول الكذب لا يتأتى من رجل مثلك وخاصة بمحضرى، ولكن لم يلزم قول ذلك الصدق الذى يتحتم انقضاء أربعة أشهر والإتيان بمحضر بشهادة معارف تلك الديار حتى يقبل منك؟

ولكن اعلم يا بنى أن للكلام أربعة أنواع: واحد منها غير جدير بالمعرفة والقول، وآخر جدير بالمعرفة وجدير بالقول أيضا، وواحد جدير بالقول وغير جدير بالمعرفة، وآخر جدير بالمعرفة وغير جدير بالقول.

أما غير الجدير بالقول والمعرفة فهو الكلام الذى يشين الدين. وذاك الجدير بالقول والمعرفة أيضا هو كلام فى صلاح الدين والدنيا، ينفع فى الآخرة وينفع فى الدنيا أيضا، ويكون من قوله وسماعه منفعة للقائل والسامع. وذاك الجدير بالمعرفة وغير جدير بالقول هو الذى يجعل عيب محتشم أو عيب صديق معلوما لك، أو يظهر لك من طريق العقل أو الدنيا أنه غير شرعى، لأنك إذا قلته حل عليك غضب ذلك المحتشم، أو يترتب عليه أذى صديق أو خوف الهياج والاضطراب، فهذا الكلام جدير بالمعرفة وغير جدير بالقول. وذاك الجدير بالقول وغير جدير بالمعرفة هو الكلام الذى فى كتاب الله عز وجل وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وفى كتب العلوم، وللعلماء فى تأويله تعصب واختلاف؛ لأن القلب إذا لم يهتم بتأويله لم يؤاخذه الله بذلك، أما عن هذه الأنواع الأربعة التى ذكرتها فأعلاها هو الكلام الجدير بالمعرفة وبالقول أيضا، ولكل واحد من هذه الأنواع الأربعة من الكلام وجهان: أحدهما حسن والآخر قبيح، وتحدث على خير وجه كلما تحدثت إلى الناس ليصير قولك مقبولا ويعرف الناس منزلتك، فإن المرء مخبوء تحت كلامه، كما يقولون بالعربية (المرء مخبوء تحت لسانه). وقد يكون الكلام إذا قاله أحد الناس، يكدر سماعه النفس، ونفس ذاك الكلام يمكن قوله بعبارة أخرى فينعش الروح.

حكاية

سمعت أن هارون الرشيد رأى رؤيا، على تلك الجملة، إذ تخيل أن جميع أسنانه سقطت من فمه، فدعا مُعَبِّرًا فى الصباح وسأله عن تعبير تلك الرؤيا، فقال المعبر: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، جميع أقربائك يموتون قبلك بحيث لا يبقى أحد بعدك، فأمر هارون بأن يضربوا المعبر مائة عصا، قائلا يا كذا وكذا واجهتنى بهذا الكلام المؤلم، إذا مات جميع أقربائى فمع من أكون حينذاك؟ وأمر بإحضار مُعَبِّر آخر وقص الرؤيا ثانيا، فقال المعبر إن هذه الرؤيا التى قد رآها أمير المؤمنين تدل على أنه سيكون لمولانا حياة أطول من جميع الأقرباء، فقال هارون: (هذا فى طريق العقل واحد) لم يخرج التعبير عن ذلك، ولكن بين العبارة والعبارة فرق كبير، وأعطى لهذا الرجل مائة دينار. وسمعت حكاية أخرى ولو أنها غير لائقة بهذا الكتاب (أما النادرة فلا ترد).

حكاية

سمعت أن رجلا كان نائما مع غلامه، وقال للغلام اجعل دبرك من هذه الناحية، فقال الغلام يا سيدى يمكن قول هذا الكلام بأحسن من هذا، فقال ذلك الرجل كيف أقول؟ قال الغلام قل هكذا: اجعل وجهك إلى تلك الناحية، فالغرض واحد فى كلا القولين، حتى لا تكون قد قلت مثل تلك العبارة القبيحة، فقال ذلك الرجل قد سمعت وأعتقتك.

فينبغى أن يعرف وجه الكلام وظهره، وأن تقول ما تقوله على الوجه الأفضل حتى تكون متكلما وبليغا أيضا، فإذا كنت تتكلم ولا تدرى ما تقول فسواء أنت وذلك الطائر الذى يسمونه الببغاء، فإنه أيضا متكلم ولكنه غير عارف بالكلام. ويجب على المتكلم أن يجعل كل ما يقوله واضحا للناس ليكون من جملة العقلاء، وإلا فإنه يكون بهيمة فى صورة إنسان، أما الكلام فعظمه، لأن الكلام نزل من السماء، وكل الكلام الذى تعرفه لا تضن به فى مقام القول، ولا تضعه فى غير موضعه، حتى لا تكون قد جرت على العلم، أما ما تقول فتقوله صدقا، ولا تكن ذا دعوى بغير معنى، وفى كل الدعاوى اعرف البرهان أكثر من الدعوى، ولا تدعى المعرفة فى العلم الذى لا تعرفه، ولا تطلب العيش من ذلك العلم، فإنه يمكن تحصيل القصد من ذلك العلم والفن إذا عرفته، ولا تصل إلى شىء فيما لا تعرف.



حكاية

يقال إنه فى أيام كسرى جاءت امرأة إلى بزرجمهر وسألته عن مسألة ـ علّه لم يكن معنيا بها فى تلك الساعة ـ فقال لا أعلم. فقالت المرأة، إذا كنت لا تعرف فبم تأكل نعمة الملك؟ فقال بزرجمهر بما أعرف، ولا يعطينى الملك شيئا عما لا أعرف، وإذا كنت لا تعرفين فتعالى واسألى الملك.

وفضلا عن ذلك لا تفرط فى الأمور، واعلم أن الإفراط شؤم، وكن وسطا فى كل الأمور فإن صاحب شريعتنا يقول (خير الأمور أوسطها). وتعود الرزانة فى القول والعمل، وإذا ذممت من أجل تلك الرزانة والأناة، فاعلم أن ذلك خير من أن تمدح من أجل التسرع والخفة، ولا ترغب فى معرفة سر لا يتعلق بنفعك أو ضرك، ولا تبح بسرك لغيرك، وإذا بحت به فلا تعد ذلك الكلام سرا من بعد ذاك، ولا تسر إلى أحد أمام الناس، فإنه مهما يكن باطن الكلام حسنا يحمل ظاهره على السوء، ولأن الناس على الأكثر سيئو الظن بعضهم ببعض، واجعل همتك فى كل عمل وقول على قدر مالك، ولتقل كل ما تقوله بحيث يشهد كلامك على صدقك مهما تكن عند الناس متكلما وصادقا، وإذا لم ترد أن تعيب نفسك بالظلم فلا تكن شاهدا على شىء قط، فإذا صرت شاهدا، فلا تمتنع وقت أداء الشهادة، واسمع كل كلام يقال، ولكن لا تكن متهورا فى وقت العمل، ولا تقل ما تقول بغير

تدبر، وقدم التفكير على القول لكيلا تندم على ما قلت؛ فالتفكير أولا والكفاية ثانيا، ولا تمل من سماع أى كلام، سواء كان يفيدك أم لا، اسمعه حتى لا ينسد عليك باب الكلام.

وحذار أن تقول كلاما باردا، فإن الكلام البارد بذر تنبت منه العداوة، وإذا كنت عالما فعد نفسك جاهلا، ليصير باب التعلم مفتوحا عليك، ولا تقطع أى كلام أو تمدحه ما لم يعلم لك عيبه وفضله، وتكلم على نسق واحد مع الخاص والعام حتى لا تخرج عن حد الحكمة، ولا يصير وبالا على المستمع إلا حيث لا يسمع لكلامك دليل أو حجة، فعندئذ تحدث كما يريدون حتى تخرج سالما من بين كل قوم، ومهما تكن بليغا فأظهر من نفسك أقل من ذلك، حتى لا تبقى راجلا وقت القول والعمل[1]، وكن كثير المعرفة قليل الكلام، لا كثير الكلام قليل المعرفة، فقد قيل: الصمت هو السلامة الثانية وكثرة الكلام هى الحماقة الثانية. وذلك لأن الرجل الثرثار مهما يكن عاقلا فإن العامة يعدونه من جملة الحمقى، وإذا كان شخص أحمق، فإنه حين يكون صامتا يعد العوام صمته ذاك من جملة العقل، ولا تمدح نفسك مهما تكن طاهرا ورعا، لأن أحدا لا يسمع شهادتك لنفسك، واجتهد أن تكون ممدوح الناس لا ممدوح نفسك، وإن عرفت كثيرا، فقل ذاك الذى ينفع حتى لا ينقلب ذلك الكلام وبالا عليك، كما قال ذلك العلوى للزنكانى[2].

حكاية

سمعت أنه كان فى أيام الصاحب شيخٌ بناحية زنكان، وكان رجلا فقيها ومحتشما من أصحاب الشافعى رحمه الله، ومفتيا وواعظا لزنكان، وكان هناك شاب علوى هو ابن رئيس الناحية يشتغل بالوعظ، وكان بين كليهما دائما مكاشفة[3]، وكل منهما يطعن فى الآخر على المنبر، وذات يوم دعا ذاك الشاب الشيخ بالكافر من فوق المنبر، فوصل إليه هذا الخبر، فدعاه ذلك الشيخ من على المنبر بابن الحرام، فحملوا إليه ذلك الخبر، فنهض من مكانه وقصد الرى، وذهب إلى الصاحب شاكيا من ذلك الشيخ وبكى وقال: أيجوز فى أيام مثلك أن يدعو أحد ابن رسول الله بابن الحرام؟ فغضب الصاحب وأرسل شخصا ودعا ذلك الشيخ وجلس للمظالم مع الفقهاء والسادة، وقال أيها الشيخ إنك رجل من جملة الأئمة الشافعية وعالم ووصلت إلى حافة القبر، فلا يجوز أن تدعو ابن الرسول بابن الحرام، فالآن صحح هذا الذى قلته، وإلا أنزل بك عقوبة لا يكون أشد منها حتى تكون عبرة لخلق الله، ولا يأتى شخص آخر هذه الوقاحة كما هو واجب فى الشرع، فقال الشيخ: صحة شهادتى فى هذا الكلام هى شهادة هذا العلوى على نفسه فلا تطلب شهادة أحسن من هذه، إما بقولى؛ فهو ابن حلال طاهر وبقوله؛ ابن حرام. فقال الصاحب ماذا تعنى؟ فقال الشيخ كل أهل

---

(١) يقصد بهذا التعبير أن يقول حتى لا تجد ما تقوله وقت القول والعمل.

(٢) نسبة إلى زنكان وهى بلدة فى شمال إيران.

(٣) عداوة وخصومة.

زنكان يعلمون أننى عقدت نكاح أبيه وأمه وهو يدعونى من فوق المنبر بالكافر ، فإذا قال هذا الكلام باعتقاد فالنكاح الذى يعقده الكافر لا يكون صحيحا ، وبقوله يكون من غير شك ابن حرام ، وإذا قال بغير اعتقاد يكون كذابا ، ابن الرسول لا يكون كذابا ، فكما تشاءون تدعونه ، ومن غير شك يجب الوقوف على شيء من هذين ، فخجل ذلك العلوى ولم يستطع أن يجيب قط ، وصار هذا الكلام غير المتدبر وبالا عليه . فكن متكلما لا مهذارا ، فإن الهذر هو الجنون الثانى ، ومع كل من تحدثه انظر أهو مشتر [1] لكلامك أم لا ، فإذا وجدته مشتريا فبع ، وإلا فقل ما يعجبه ليكون مشتريا منك ، وكن مع الناس رجلا وفى الإنسانية إنسانا ، فإن الرجل شيء والإنسانية شيء آخر ، وكل من صحا من نوم الغفلة يعيش مع الخلق كما قلت ، ولا تكن ما استطعت نفورا من سماع الكلام ، فإن الناس يتعلمون الكلام [2] من سماع الكلام ، والدليل عليه أنه إذا ولد طفل من أمه وحملوه إلى باطن الأرض وربوه هناك ولم يتكلم معه أمه وأبوه ومرضعته ولم يسمع كلام أحد فإنه حينما يكبر يكون أبكم ولا يستطيع النطق قط حتى يسمع أياما طويلة ثم يتعلم ، والدليل الآخر أن الطفل الذى يولد من أمه لا يستطيع النطق قط ، ألا ترى أن جميع البكم يكونون صما؟ وقد قال الحكماء : من سماع نصح الحكماء يضيء الملوك أبصارهم ، لأن الحكمة كحل وتوتيا عين القلب ، فيجب سماع كلام هؤلاء القوم بمسمع القلب ، والاعتماد عليه ، وفى هذا الكلام تذكرت بضع كلمات طيبة من كلام أنوشيروان العادل ذكرناها فى هذا الكتاب لتعمل بها بقدر ما تستطيع ، فإن العمل بنصائح ذلك الملك واجب ، وهكذا قرأت فى أخبار الخلفاء الماضين أن الخليفة المأمون ذهب إلى تربة أنوشيروان العادل فوجد أعضاءه متصفتة على تخت ، وقد صارت ترابا ، وقد كتب على جدار البيت بضعة سطور بماء الذهب بالخط البهلوى ، فأمر المأمون بأن يحضروا الكُتّاب العارفين بالبهلوى ، وترجموا تلك الكتابات إلى العربية ، فصار ذلك العربى معروفا فى العجم ، وهى : كان جميع عباد الله عز وجل - ما حييت - يتمتعون بعدلى ، ولم يجئ أحد قط فى خدمتى ، ولم يلق نصيبا من رحمتى ، والآن لما حل وقت العجز لم أعرف حيلة إلا أن أكتب هذه الكلمات على الجدار حتى إذا ما جاء أحد لزيارتى قرأها وعرفها وتعلمها وعمل بها كيلا يكون محروما منى .

(١) أى : راغب فى كلامك وسامع له .

(٢) الترجمة الحرفية : يصيرون متكلمين .

الباب الثامن

فى نصائح أنوشيروان العادل لابنه

قال أولا ـ ما دام الليل والنهار يتعاقبان فلا تعجب من تقلب الأمور.

وقال أيضا ـ لماذا يندم الناس على عمل قد ندم عليه الغير؟

وقال أيضا ـ كيف[1] ينام آمنا من له معرفة بالملوك؟

وقال أيضا ـ كيف يعد نفسه حيا من لم تكن حياته على مراده؟

وقال أيضا ـ لم لا تدعوه عدوا من يرى شهامته فى أذى الناس؟

وقال أيضا ـ لا ينبغى أن تدعو عدو محبك صديقا.

وقال أيضا ـ لا تصادق الجهلاء فإن الجهلاء لا يستأهلون الحب ولا البغض.

وقال أيضا ـ اجتنب من يرى نفسه عالما وهو جاهل.

وقال أيضا ـ أنصف من نفسك لتستغنى عن الحكم.

وقال أيضا ـ قل الحق وإن يكن مرًا، وإذا أردت أن لا يعرف العدو سرك فلا تفشه لصديقك.

وقال أيضا ـ كل عظيم يتخيل نفسه صغيرا يكون عظيم الزمان.

وقال أيضا ـ لا تعد الخاملين أحياء.

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون غنيا بلا تعب فكن مرضى العمل.

وقال أيضا ـ لا تشتر جزافا كيلا تضطر إلى البيع جزافا.

وقال أيضا ـ الموت جوعا خير من الشبع بخبز اللئام.

وقال أيضا ـ لا تثق بأى حال[2] بغير أهل الثقة ولا تنزع الثقة من أهل الثقة.

---

(١) الترجمة الحرفية: لم.

(٢) الترجمة الحرفية: بكل خيال يتصور لك.

وقال أيضا ـ اعلم أن الاحتياج إلى أقاربك الذين هم دونك مصيبة عظيمة ، فإن الموت فى الماء خير من طلب الأمان من الضفدع .

وقال أيضا ـ الفاسق المتواضع الذى يطلب الآخرة خير من العابد المتكبر الذى يطلب الدنيا .

وقال أيضا ـ لا أجهل ممن يرى وضيعا وصل إلى الرفعة وينظر إليه بعين الاحتقار .

وقال أيضا ـ لا جرم أكبر من أن تدَّعى شيئا لا تعرفه فتصير كذابا .

وقال أيضا ـ لا تنخدع بمن يعطى الموجود بغير الموجود .

وقال أيضا ـ ليس فى الدنيا أسفل ممن يكون لأحد إليه حاجة ويستطيع قضاءها ولا يفعل .

وقال أيضا ـ من يقول عنك كلاما قبيحا بغير ذنب عده أكثر عذرا ممن يبلغك ذلك الكلام .

وقال أيضا ـ إن صاحب المصيبة فى عزيز لا يصل إليه من الألم ما يصل إلى من يتسمع بغير جدوى .

وقال أيضا ـ إن من يرى المؤذى يكون أكثر تأذيا ممن يقع عليه الأذى البالغ[١] .

وقال أيضا ـ اعلم أن كل عبد يشترى ويباع أكثر حرية ممن يكون عبد حلقة .

وقال أيضا ـ كل من لم يعلمه تعليم الزمان لا ينبغى لأى عالم أن يتعب فى تعليمه .

وقال أيضا ـ حفظ كل شىء من الجاهل أسهل من حفظه من نفسه .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن يثنى عليك الناس فاثن عليهم .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن لا يضيع تعبك فى سبيل الناس فلا تضيع تعب الناس .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تبتعد عن الألم فلا تكن حسودا .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تقضى الحياة فى راحة فاجعل سيرتك على مقتضى الأمور .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن لا تعد كمجنون فلا تطلب شيئا غير قابل للوجود .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون محترما فالتزم الحياء .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن لا تكون مخدوعا فلا تجعل الأمر غير الحاصل كالأمر الحاصل .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن لا تخجل فلا تأخذ ما ليس لك[٢] ، وإذا أردت أن لا يضحكوا منك من ورائك فاخش من هم دونك .

---

(١) الترجمة الحرفية : إنه ليكون أكثر أذى من صاحب الأذى الكثير ذلك الشخص الذى تكون له رؤية عين المؤذى . وآثرنا التحرر من قيد العبارة لإزالة الغموض .

(٢) الترجمة الحرفية : ما لم تكن قد وضعته .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تأمن طويلا من الندم فلا تعمل بهوى القلب .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون من العظماء فانظر وجهك فى مرآة الناس .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون فى عداد الأحرار فلا تدع للطمع موضعا فى قلبك .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون من المنصفين فأحسن إلى من هم دونك بقدر الطاقة ، وإذا أردت أن لا يصيب قلبك جرح لا يصح بأى مرهم فلا تناظر الجهال .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن يحفظ قدرك فاعرف قدر الناس .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون خير ممدوح للناس فلا تظهر خفاياك لمن لا عقل له .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون أرفع من الناس فكن واسع الجود[1] .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون بعيدا عن مذمة الخلائق فاحمد لآثارهم .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن تكون محبوبا فى قلب إنسان ولا ينفر منك الناس فتحدث كما يريد الناس .

وقال أيضا ـ إذا أردت أن يكون لسانك طويلا فكن قصير اليد .

هذه كانت كلمات أنوشيروان العادل ، فإذا قرأت هذه الكلمات فلا تحتقرها ؛ إذ منها يتضوع عبير الحكمة والملك ، لأنها كلام الحكماء وكلام الملوك ، وتعلم الآن وأنت شاب ، فحينما تصير شيخا لا تكون لك حاجة إلى سماع وتعلم النصيحة والحكمة ؛ لأن الشيوخ تكون الأيام قد علمتهم .

---

(١) الترجمة الحرفية : كن واسع العيش والملح .

الباب التاسع

فى الشيخوخة والشباب

أى بنى، مهما تكن شابا فكن ذا عقل شيخ[١]، لا أقول لا تصب[٢]، ولكن كن شابا مسيطرًا على نفسه ولا تكن من الشبان الفاترين، لأن الشاب الشاطر ممتاز، كذلك يقول أرسطاطاليس (الشباب شعبة من الجنون) ولا تكن أيضا من الشبان الجاهلين، لأن البلاء لا ينشأ من الشطارة، ومن الجهل ينشأ البلاء، وخذ نصيبك بقدر الطاقة من أيام الشباب، فإنك إذا صرت شيخا لا تستطيع أن تستجمع نفسك، كما قال ذلك الشيخ: لقد تحسرت واغتممت السنين الطوال قائلا عندما أصير شيخا لا ترغب فىَّ الحسان، والآن وقد صرت شيخا فإنى أنا نفسى لا أرغب فيهن، وإذا رغبت فإنه لا يليق، ومهما تكن شابا فلا تنسَ الله عز وجل، ولا تأمن الموت فإن الموت لا يعرف الشاب ولا الشيخ، كما يقول العسجدى :



بيت

لم يكن الموت بالشيخوخة والشباب   فيموت الشيخ ويعيش الشاب[٣]

* * *

يحكى أنه كان بمدينة الرى خياط له دكان فى بوابة المقبر، وقد علق كوزا فى مسمار، وكان له شغف بأن يلقى حجرا فى ذلك الكوز كلما كانت تخرج جنازة من البوابة، وكان يحسب ذلك كل شهر قائلا: إنه قد مات فى هذا الشهر كذا شخصا، ويفرغ الكوز ويلقى به الحجر ثانيا إلى الشهر التالى، حتى انقضى على ذلك زمن، ومات ذلك الخياط، فجاء رجل فى طلبه، ولم يكن له خبر بأنه قد مات، فلما رأى باب الدكان مغلقا سأل جيرانه أن أين الخياط؟ فقال جاره: إن الخياط أيضا وقع فى الكوز.

ولكن يا بنى كن فطنا، ولا تغتر بالشباب، واذكر الله عز وجل فى الطاعة والمعصية فى أى حال

---

(١) أى: كن ناضج العقل كالشيوخ.

(٢) صبا الرجل يصبو صبْوا وصبُوّا وصبا وصباء (واوى) مال إلى الصبوة أى جهلة الفتوة (أقرب الموارد مادة صبو).

(٣) مرك به پيرى وجوان نيستى . . پير بمردى وجوان زيستى

تكون، واطلب العفو، واخش الموت، حتى لا تقع مثل الخياط فى الكوز فجأة موقرا بالمعاصى، ولا تجعل كل جلوسك وقيامك مع الشبان بل جالس الشيوخ أيضا، واجعل رفقاءك وندماءك خليطا من الشيوخ والشباب؛ حتى إذا قال شاب محالا بسبب السكر نبهك الشيخ، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشبان، ولو أن غالب الشبان يضحكون من الشيوخ، لأنهم يرون الشيوخ فى حاجة إلى الشباب، ولهذا السبب يطلبون التقدم على الشيوخ، ويهزءون بهم، ولئن كان الشيوخ يتمنون الشباب، فإن الشبان أيضا بغير شك يتمنون الشيخوخة[1]، وقد يبلغونها أو لا يبلغونها، وإذا نظرت جيدا رأيت كلا منهما حاسدا للآخر، ومهما كان الشبان يعدون أنفسهم أعلم الناس، فحذار أن تكون من طبع مثل هؤلاء الشبان، وقّر الشيوخ، ولا تتحدث إليهم جزافا فإن جواب الشيوخ والعقلاء قاس.

حكاية

سمعت أن رجلا عمره مائة سنة، مقوس الظهر، كان يسير متكئا على العصا، فقال شاب ساخرا منه: أيها الشيخ بكم اشتريت هذه القوس حتى أشترى أنا أيضا واحدة؟ فأجاب قائلا: إذا عمرت وصبرت وهبت لك بلا ثمن وإن كنت لا تُقوِّم بها.

ولكن لا تجالس الشيوخ البله، فإن صحبة الشبان العقلاء خير من صحبة الشيوخ البلهاء، وما دمت شابا فكن شابا، وإذا صرت شيخا فتشيخ لأن التصابى فى وقت الشيخوخة لا يليق، والشيخ الذى يتصابى يكون كالذى ينفخ فى البوق وقت الهزيمة كما قيل:

بيت

الشيخ الذى يتصابى فى وقت الشيخوخة   كالنافخ[2] فى البوق وقت الهزيمة

ولا تكن شيخا أرعن، واخشى الشيوخ الدنسين الجائرين، وأدِّ حق الشيخوخة أكثر مما تؤدى حق الشباب، لأنه ما دمت شابا يكون لك أمل الشيخوخة، وليس للشيوخ أمل غير الموت، لأن الغلة إذا ابيضت ولم تحصد تناثرت، وكذلك الثمرة التى نضجت، إذا لم تقطف وقعت من الشجرة.

رباعى

لو وضعت على ناصية القمر قوائم التخت، ولو كنت مثل سليمان فى الدولة والبخت

إذا نضج عمرك حزمت المتاع، فالثمرة إذا نضجت سقطت من الشجرة

* * *

(إذا تم أمر دنا نقصه   توقع زوالا إذا قيل تم)

* * *

---

(١) أى: يتمنون أن يعمروا.

(٢) الترجمة الحرفية: كالنفخ.

واعلم كذلك أنك لا تترك كما تكون، فإذا تعطل شبابك انسد عليك باب النطق والبصر والسمع واللمس والذوق جملة، فلا أنت تُسر بحياتك، ولا أحد يُسر بك، وتصير وبالا على الناس، فالموت خير من مثل تلك الحياة، ومثل عمر الإنسان كمثل الشمس، وشمس الشبان فى أفق المشرق وشمس الشيوخ فى أفق المغرب كما قلت:

قطعة

كيكاوس يا من صرت عاجزا فى كف الشيخوخة، تهيأ للرحيل فقد أقبلت الثالثة والستون، لقد شارف يومك صلاة العصر على كل حال، ويقبل الليل سريعا، إذا حلت صلاة العصر.



لهذا السبب لا ينبغى أن يكون الشيخ بعقل وفعل الشباب، وكن دائما رحيما بالشيوخ لأن الشيخوخة مرض لا يذهب أحد لعيادته، والشيخوخة علة لا يعرف أى إنسان لها دواء إلا الموت، ولهذا لا يستريح الشيخ من ألم الشيخوخة ما لم يمت، وكل علة تصيب الإنسان إذا لم يمت بها يصح منها إلا علة الشيخوخة، فإنها كل يوم تزداد سوءا ولا يرجى منها الشفاء. ومما قرأت فى الكتاب: أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم فى القوة والتركيب، وبعد ذلك حتى الأربعين يبقى هكذا لا يزيد ولا ينقص، كالشمس وقد بلغت كبد السماء، فصارت بطيئة السير حتى وقت الغروب، ومن الأربعين حتى الخمسين يرى كل عام فى نفسه نقصانا لا يكون قد رآه فى السنة الماضية، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شهر فى نفسه نقصانا لا يكون قد وجد فى الشهر الماضى، ومن الستين حتى السبعين يرى كل أسبوع فى نفسه نقصانا لا يكون قد رآه فى الأسبوع المنصرم، ومن السبعين إلى الثمانين يرى فى نفسه نقصانا لم يكن قد رآه بالأمس، وإذا جاوز الثمانين يرى فى نفسه كل ساعة ألما وعناء لا يكون قد رآه فى الساعة الأخرى.

وحد لذة العمر إلى الأربعين، فإذا انقضت الأربعون فقد جلس على درجة السلم العليا، فتهبط كلما صعدت من غير شك، ثم يقنع الإنسان بأن يرى فى كل ساعة ألما وعناء لم يكن موجودا فى الساعة الماضية فـ(يا ولدى ويا قرة عينى) لقد أطلت شكاية الشيخوخة إليك لأن منها عنائى، ولا عجب فالشيخوخة عدو لى، ومن العدو يكون موضع الشكوى، كما قلت:

بيت

إذا شكوت منها فلا تعجب منى   لأنها بلائى والشكوى تكون من البلاء



ويشتكى من الأعداء لأحب إنسان (أرجو من الله عز وجل) أن تبث هذه الشكوى لابنك، ولى فى هذا المعنى بيتان.

قطعة

أواه لمن أشكو الشيخوخة؟ فإن ألمي هذا ليس له دواء آخر غير التوبة . إليَّ أيها الشيخ لأتشاكى وإياك ، لأنه لا خير للشباب بهذه الحال .

* * *

ولا يعرف أحد ألم الشيخوخة خيرا من الشيوخ .

حكاية

كان من جملة حجاب أبي حاجبٌ يقال له مجاهد حاجب كامل ، وكان شيخا جاوز الثمانين ، وأراد أن يشتري حصانا ، فأحضر رائض حصانا سمينا بديع اللون ، ورأى قوائم الحصان صحيحة وأعجبه ودفع الثمن ، فلما رأى أسنانه كان عجوزا ، فلم يشتره ، فاشتراه رجل آخر ، فقلت له : يا حاجب لمَ لمْ تشتر ذلك الحصان الذي اشتراه فلان؟ قال : إنه رجل شاب وأنا خبير بألم الشيخوخة وضعفها وآفتها ، فكيف أكون معذورا حين أشتري حصانا عجوزا؟

ولكن اجتهد ما دمت قد صرت شيخا أن تقر في موضع ؛ لأن السفر في الشيخوخة ليس من العقل ، وخاصة من لا يكون قادرا ، إذ إن الشيخوخة عدو والعجز عدو آخر ، فالسفر مع عدوين ليس من المعرفة ، أما إذا وقع السفر باضطرار ، وابتعدت عن بيتك ، ولطف الله تعالى بك في ذاك السفر ، وظهر لك في تلك الغربة والسفر خير أفضل من ذاك الذي كان في الحضر فلا ترغب في البيت قط ، واستقر حيثما ترى عملك ، واعرف أن ذلك المكان هو المولد والمقام ، فيكون لك فيه الخير ، ومهما قيل إن الوطن هو الأم الثانية فلا تكن مشغولا به ، وحافظ على رونق أيامك ، فقد قيل : الخير يطلب السعداء ، وللتعساء المولد والمقام . أما إذا رأيت لنفسك رونقا وظفرت بعمل مفيد ، فاجتهد في أن تثبت ذاك العمل وتحكمه ، ولا ينبغي أن تكثر الطلب في ذلك الثبات الذي تلقاه ، لأنك في طلب تلك الزيادة تقع في النقص ، فإذا كان شيء موضوعا وضعا حسنا فلا تحاول أن تجعله في وضع أحسن لكي لا تعجز عن ذلك بطمعك في المحال ، أما في تمضية العمر فلا تكن مهوشا ، وإذا أردت أن تكون محترما في عين الصديق والعدو يجب أن تكون نفسك ومنزلتك ظاهرة عن عامة الناس .

الباب العاشر

في ترتيب تناول الطعام

اعلم يا بنى أنه ليس لعامة الناس فى أشغالهم أوقات معينة وترتيب ظاهر؛ فهم لا يراعون الوقت وعدم الوقت، بينا يكون الأكابر والعقلاء قد عينوا أوقاتا لأعمالهم، وقسموا عليها الأربع والعشرين ساعة من الليل والنهار، وأوجدوا لكل عمل حدًا، ولكل وقت مقياسا، لكى لا تختلط أعمالهم بعضها ببعض، وليكون معلوما لخدمهم بأى عمل يجب أن يشتغلوا وفي أى وقت، حتى تكون جميع أعمالهم على مقتضى النظام.

أما أول حديث تناول الطعام، فاعلم أن عادة أهل السوق أن يتناولوا الطعام ليلا وذلك ضار جدا، وهم دائما متخومون. وعادة أهل الجندية كذلك أن لا يراعوا الوقت فيأكلوا وقتما يجدون، وهذه عادة الدواب إذ تأكل كلما تجد العلف. والخاصة والمحتشمون لا يأكلون الطعام أكثر من مرة وهذه الحمية مستحسنة، ولكن الجسد يضعف ويكون الناس دائما ضعفاء، فالأصوب كذلك أن يتناول المحتشمون في الصباح قليلا من الزاد في الخلوة ويذهبوا لدواوينهم [1] حتى صلاة الظهر، فيكون قد وصل ذلك الراتب المرسوم. ويحضرون أولئك الأشخاص الذين يتناولون الطعام معهم ويأكلون، ولكن ينبغي أن لا يأكلوا بعجلة، وأن يتأنوا فى أكلهم، ويجوز أن يتحدثوا إلى الناس على الطعام، فإنه شرط الإسلام، ولكن أطرق برأسك أمامك ولا تنظر إلى لقم الناس.

سمعت أن الصاحب إسماعيل بن عباد كان يأكل مرة مع خواصه فرفع رجل لقمة من الإناء وكان في اللقمة شعرة لم يكن الرجل يراها، فقال الصاحب يا فلان ارفع تلك الشعرة من اللقمة، فوضع الرجل اللقمة من يده وقام وهَمّ بالذهاب، فأمر الصاحب أن يأتوا به، وسأله قائلا: أى فلان لمَ قمت عن مائدتنا نصف شبعان؟ فقال الرجل: لا ينبغى لى أن آكل طعام من يرى الشعرة فى لقَمتى، فخجل الصاحب.

أما أنت فكن مشغولا بنفسك، فتمهل أولا فى الطعام ثم مرهم بوضع الآنية، ورسم المحتشمين نوعان: فبعضهم يأمر بوضع الآنية أمامه أولا ثم أمام الضيوف، وبعض من المحتشمين يأمرون

---

(١) كدخداني خويش.

بوضع الآنية أولا أمام الضيوف وهذا أفضل فإنه طريق الكرم، وذاك طريق السيادة، ولكن مرهم أن يعملوا على عَجَل عندما يأتون بالآنية لأن البطون ليست كلها سواء، فيجب كذلك أنهم عندما يقومون عن الخوان يكون المقل والمكثر من الطعام قد شبعوا جميعا، وإذا كان أمامك طعام ولم يكن أمام الآخرين فينبغى أن تجعل لهم منه نصيبا، ولا تكن عابس الوجه على الطعام، ولا تتشاجر على السفرة مع قيم الخوان فإنها عادة غير حسنة، وقد ذكر هذا الكلام فى باب آخر، فإذا كنت قد عرفت ترتيب الطعام فاعرف ترتيب الشراب.



الباب الحادى عشر

فى ترتيب تناول الشراب

أما حديث تناول الشراب، فلا أقول تعاط الشراب، ولا أستطيع أيضا أن أقول لا تشرب، لأن الشبان لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لى كثيرا ولم أسمع، حتى منحتنى رحمة الله التوبة بعد الخمسين، أما إذا لم تشرب فلك ربح الدارين، وتنال رضاء الله تعالى، وتكون قد نجوت من ملامة الخلق، ومجالسة غير العقلاء، وفعل المحال، ويكون توفير كثير فى العقل والسيادة، فإذا لم تشرب فهو أحب عندى من عدة وجوه، ولكنك شاب، واعلم أن الرفقاء لا يدعونك لا تشرب، ومن هذا قالوا (الوحدة خير من جليس السوء) فإذا شربت على أى حال فهيئ قلبك للتوبة، واطلب من الله تعالى التوفيق لها، واندم على عملك فلعله بفضله يمنحك التوفيق للتوبة النصوح، وعلى كل حال، إذا شربت النبيذ ينبغى أن تعرف كيف يجب الشرب؛ لأنك إذا لم تعرف كيف تشرب فالشراب سم، وإذا عرفت فهو ترياق، وعلى الحقيقة فإن كل ما تتناوله من طعام وشراب يصير سما إذا أسرفت فيه.

بيت

إن الترياق سم إذا   زاد وتجاوز مقداره

* * *

وينبغى عندما تكون قد تناولت الطعام فى التو لا تشرب النبيذ ما لم تظمأ ثلاث مرات وتستعمل الماء والفقاع، وإذا لم تظمأ فتوقف مقدار ثلاث ساعات بعد تناول الطعام؛ لأنه مهما تكن المعدة صحيحة وقوية، إذا تُنُوِّل الطعام والشراب بضع مرات، فإنها تهضمه فى سبع ساعات، تنضجه فى ثلاث ساعات، وفى ثلاث ساعات أخر تأخذ قوة الطعام وتوصلها إلى الكبد، ليقسمها الكبد على الأعضاء لأنه هو القسَّام، وفى ساعة أخرى ترسل بالثفل الذى يكون قد تبقى إلى الأمعاء، ويجب أن تكون خالية فى الساعة الثامنة، وكل معدة لا تكون بهذه القوة فهى بقطينة لا معدة، فلهذا السبب قلت أن اشرب النبيذ بعد ثلاث ساعات من الطعام السابق، لتستفيد من الطعام وأيضا من الشراب، أما بدء شراب السيكى، فاجعله من بعد صلاة العصر، حتى إذا ما سكرت يكون الليل قد أقبل،

ولا يرى الناس سكرك، ولا تنتقل فى السكر لأنه غير محمود، فقد قيل (النقلة مثلة) ولا تشرب السيكى فى الصحراء والبستان، وإذا شربت فعد إلى البيت للسكر، واسكر فى بيتك، لأن ما يجوز عمله تحت السقف لا يمكن عمله تحت السماء، وظل سقف البيت خير من ظل الشجرة؛ لأن المرء فى بيته كملك فى ملكه، ويكون فى الصحراء كغريب، وظاهر إلى أى مدى تصل يد الغريب، وانهض دائما عن النبيذ وما يزال هنالك موضع لكأسين، واحترز من لقمة الشبع ومن قدح السكر[1]، لأن الشبع والسكر لا يكونان من كل الطعام والشراب، بل يكون الشبع من اللقمة الأخيرة كما يكون السكر من القدح الأخير، فقلل لقمة من الطعام وقدحا من السيكى، لتأمن عاقبة الإفراط فى كل شىء، واجتهد أن لا تكون ثملا دائما، فإن لثمرة شاربى السيكى شيئان: المرض والجنون، لأن شارب السيكى يكون إما سكرانا أو مخمورا، فعندما يكون سكرانا يكون من جملة المجانين، وعندما يكون مخمورا يكون من جملة المرضى، فالخمار نوع من المرض، فلمَ يلزم الولع بأمر ثمرته المرض أو الجنون؟ وإنى لأعلم أنك لا تكف يدك عن النبيذ بهذا الكلام، ولا تقبل نصيحتى، وعلى كل فلا تتعاط الصبوح ما استطعت، لأن العقلاء قد ذموا عادة الصبوح، وأول شؤم هو أن تفوت صلاة الصبح، والثانى هو أن لا يكون خمار الليلة الماضية قد خرج من الرأس والدماغ فيصحبه بخار اليوم، ولا تكون ثمرة ذلك غير الماليخوليا، وفضلا عن ذلك فإنه وقتما يكون الناس نائمين تكون أنت صاحيا، وعندما يكون الناس صاحين يكون لا بد لك من النوم، وإذا نمت كل النهار فلا بد من أن تكون ساهرا طول الليل فتصير كل أعضائك منهكة ومريضة، وقليل من الصبوح قد لا تكون فيه عربدة أو شىء يرتكب فينشأ عنه الندم أو مال ينفق فى غير ما ينبغى، فإذا وقع صبوح فى أوقات نادرة يكون سائغا ولكن لا ينبغى تعوده، لأنه غير محمود. ومهما تكن مولعا بالنبيذ فتعود أن لا تشربه ليلة الجمعة، ولو أن النبيذ حرام فى يومى الجمعة والسبت كليهما، ولكن ليوم الجمعة حرمة، وإذا لم تشرب النبيذ من أجل حرمة صلاة الجمعة ويوم الجمعة، فإنك تُصير شربك النبيذ أسبوعا، طيبا على قلوب الناس وتنعقل عنك ألسنة العامة، ويكون لك الثواب بالدار الآخرة، ويصير لك اسم فى هذه الدنيا أيضا، فإذا صار لك اسم فينبغى أن تحافظ عليه، ولا ينبغى الإمعان فى الإسراف ليكون ذلك أفضل.

---

(١) اللقمة التى يتم بها الشبع والقدح الذى يتخم به السكر.

الباب الثانى عشر

فى التضييف والضيافة

أى بنى، لا تضيف الغرباء فى كل يوم، فإنك لا تستطيع القيام بما يليق بالضيافة كل يوم، فانظر كم مرة تضيف فى شهر، وما تعمله خمس مرات أعمله فى مرة واحدة، وما ستنفقه فى هذه المرات الخمس انفقه فى مرة واحدة، ليخلو سماطك من كل العيوب، وتنكف عنك ألسنة اللامزين، وإذا جاء الضيوف إلى بيتك فاستقبل كل واحد منهم وكرمه وابذل من العناية ما يليق بهم كما يقول أبو مشكور البلخى :

بيت

كل من يكون له ضيف صديقا كان أو غير صديق فعليه العناية بالضيف ليل نهار

* * *

وإذا كان أوان الفاكهة، فقدم فاكهتك قبل الأكل ليأكلوها، وتوقف ساعة، ثم أحضر للناس الطعام، ولا تجلس أنت ما لم يقل لك الضيوف اجلس، ولكن جاملهم وقل دعونى أخدمكم، فإذا كرروا ذلك فاجلس وكل معهم، ولكن اجلس أدنى الجميع، وإذا كان الضيف عظيما جدا فلا ينبغى لك أن تجلس، ولا تلتمس المعذرة من الضيف فإن الاعتذار شأن أهل السوق، ولا تقل كل ساعة كل جيدا، و أنت لا تأكل شيئا، بحياتك لا تخجل، وأنا نفسى لا أستطيع عمل شيء يليق بك، فلعله يمكن تلافى ذلك مرة أخرى، فإن هذا ليس كلام ذوى الهمم.

إنما يقول هذا من يضيف مرة فى أعوام، فهؤلاء الناس يخجلون من مثل هذه الأحاديث، ولا يستطيعون تناول شيء ويقومون عن سماطك قبل الشبع، ولنا بكَيلان عادة طيبة جدا، وهى أنه عندما يأخذون الضيف إلى الخوان، يضعون كيزان شرب الماء وسط المائدة، ويخرج صاحب الدعوة وأهله من هناك، ويقف شخص من بعيد لأجل وضع الآنية ليأكلوا برغبتهم كما يشتهون، ومر بماء الورد والعطر بعد غسل الأيدى، وتعهد جيدا خدم الضيف وغلمانه، لأنهم يذيعون فى الخارج السمعة الطيبة، ومر فى المجلس باللطائف الكثيرة من نقول ورياحين، وأحضر المطربين الحسنى الصوت القادرين، ولا تقدم النبيذ للضيف ما لم يكن جيدا، فإن الناس أنفسهم يأكلون كل يوم،

ويجب أن يكون السماع والشراب طيبا ، حتى إذا ما وقع تقصير في الخوان والآنية يُستر ذلك العيب بذاك ، والشراب كذلك إثم ، فإذا أردت أن تأثم فلا تقترف إثما لا لذة فيه ، وإذا شربت الشراب فاشرب أحسنه ، وإذا سمعت السماع فاسمع أعذبه ، وإذا ارتكبت الحرام فارتكبه مع شخص لطيف ، حتى إذا ما أخذت بذلك في الآخرة لا تكون مذموما ومعيبا في هذه الدنيا ، وعندما تكون قد عملت كل هذا الذي قلته فلا تر لنفسك أي حق على الضيف ، واعرف بأن لهم عليك حقوقا جمة .

حكاية

هكذا سمعت أن ابن مقلة استعمل نصر بن منصور التميمي على البصرة ، واستقدمه في السنة التالية وحاسبه ، وكان نصر رجلا ثريا فصار للخليفة فيه مطمع ، فحوسب وتجمع عليه مال كثير ، فقال ابن مقلة : سلم هذا المال أو امض إلى السجن ، فقال نصر : أي مولانا ، إن لي مالا ولكنه غير حاضر هنا ، فأمهلني شهرا ، فإنه لا ينبغي الذهاب إلى السجن بهذا المقدار ، وعرف ابن مقلة أن تسليم هذا المال ليس يصعب على نصر ، وأنه يقول صدقا ، فقال : ليس لدي أمر من أمير المؤمنين بأن تعود إلى مكانك ما لم تسلم هذا المال ، فأقم بحجرة هنا في داري وكن ضيفي هذا الشهر ، فقال نصر : إني مطيع ، وأقام محبوسا في دار ابن مقلة ، واتفق أن كان أول رمضان ، فلما أقبل الليل قال بن مقلة : أحضروا فلان ليفطر معنا كل ليلة ، فأفطر معه نصر شهرا ، ولما عيدوا وانقضت بضعة أيام ، أرسل إليه ابن مقلة شخصا يقول بأن ذاك المال يأتون به متأخرا ، فما تدبير هذا الأمر؟ فقال نصر : إنني سلمت ذلك المال ، فقال ابن مقلة لمن أعطيته؟ قال أعطيته لك ، فغضب ابن مقلة وقال : أيها السيد متى أعطيتني المال؟ قال : إنني لم أعطك ذهبا ، ولكنني أكلت طعامك دون مقابل في شهر رمضان هذا وأفطرت على مائدتك ، والآن وقد أقبل العيد ، فإن من حقي أن لا تطلب مني مالا ، فغلب ابن مقلة الضحك وقال : خذ البراءة وامض ، فقد أعطيتك ذلك المال أجر سن[1] ، وأدعه من أجلك فنجا نصر من المصادرة بهذا السبب .

فتقبل المنة من الضيف وكن مشرق الوجه ، ولكن أقل شرب النبيذ ولا تسكر بحضرة الضيف ، فإذا عرفت أن القوم صاروا نصف سكارى فعندئذ تشرع في السكر من نفسك ، وأنكر الأصدقاء ، وكن دمث الخلق باش الوجه ، اشرب واسق ، ولكن لا تضحك عبثا ، فإن الضحك عبثا تلو الجنون ، كما أن قلة الضحك تلو السياسة ، وإذا سكر الضيف وأراد أن ينصرف فارجه مرة وثانية ، وتواضع ولا تدعه ليذهب ، ولا تتشبث به في المرة الثالثة ودعه بلطف ، وإذا أخطأ خدمك فتغاض ولا تعبس أمام الضيف ولا تبدأ الشغب معهم ، ولا تقل بأن هذا حسن وذاك قبيح ، وإذا لم يعجبك شيء ، فلا تأمر بعمل مثل ذلك مرة أخرى ، واصبر هذه المرة ، وإذا قال ضيفك وفعل ألف محال ، فلا تأخذ عليه محالا ، وعظّم حرمته .

(١) أجر السن تقابل في الفارسية ـ دندان مزد أو مزد دندان فقد كانت عادة المولين الكبار أن يقفوا بالباب بعد الوليمة ويمنحوا كل ضيف عند خروجه بمبلغ يقال له مزد دندان أو دندان مزد ومعناها أجر السن .

حكاية

سمعت أن المعتصم أمر مرة بضرب عنق مجرم بحضرته، فقال المجرم: يا أمير المؤمنين بحق الله ورسوله، ضيّفني بشربة ماء، ثم مر بما تشاء، فإني ظمآن جدا، فأمر المعتصم بحكم القسم، فأعطوه الماء ليشرب، وقال على عادة العرب (كثر الله خيرك يا أمير المؤمنين) بشربة الماء هذه كنت ضيفك، فإذا كان طريق المروءة يوجب قتل الضيف فمر بأن يقتلوني، وإلا فاعف حتى أتوب على يدك، فقال المعتصم تقول حقا، إن حق الضيف عظيم، عفوت عنك، فتب على أن لا ترتكب خطيئة بعد هذا، فتاب ذلك الرجل وأطلق سراحه.

فاعلم بأن رعاية حق الضيف واجبة، ولكن حق الضيف الذى يستحق التقدير، لا بحيث تأخذ كل ساقط إلى بيتك ثم تتواضع كثيرا قائلا إن هذا ضيفى، ينبغى أن تعرف مع من يجب عمل هذه المروءة والتقرب.

موعظة

إذا ذهبت ضيفا فلا تكن ضيفا لكل من يؤذى الكرامة، وإذا ذهبت للضيافة فلا تذهب وأنت جائع جدا، ولا تشبع جدا أيضا، لأنك إذا لم تأكل شيئا تأذى المضيف، وإذا أكلت بإفراط فإنه يقبح، وإذا ذهبت إلى بيت المضيف فاجلس حيث يجلسونك ويكون مكانك، ولو أن البيت كان بيت صديقك وكان لك أمر، فلا تأمر وأنت على الطعام والشراب فى ذلك البيت، ولا تقل لخدم المضيف أى فلان؟ ضع هذا الطبق فى المكان الفلانى، واحمل هذه الآنية إلى المكان الفلانى، يعنى إننى من أهل ذلك البيت، لا تكن ضيف الفضول، ولا تتقرب بطعام الناس وآنيتهم، ولا تخطىء خادمك، ولا تَصرْ سكران فاقد الوعى، وقم بحيث لا يبدو عليك أثر السكر فى الطريق، ولا يستولى عليك السكر بحيث تتحول عن صورة الآدميين، وأتم السكر بدارك، وإذا كنت مثلا قد شربت قدحا من النبيذ وارتكب من دونك مائة ذنب، فلا تزجر أحدا قط وإن يكن مستوجب الأدب، فإن أحدا قط لا يعد ذلك من قبيل الأدب، ويقولون إنه يعربد، وكل ما تريد عمله اعمله وأنت غير شارب للنبيذ، ليعلم أن ذلك قصد لا عربدة، لأنهم فى ذلك الوقت يعدون كل شىء عربدة، كما قالوا (الجنون فنون)؛ أى الجنون أنواع، والسكر أيضا نوع من الجنون، والكلام الكثير فى السكر عربدة، وكثرة التصفيق والدبيب، والتقرب الكثير بلا موجب عربدة، فاحترز بعد هذا - فى الصحو والسكر - من كل ما قلت إنه عربدة أو جنون، ولا تذهب إلى أى شخص غريب وأنت سكران فاقد الوعى، اللهم إلا عند عيالك وغلمانك، ولا تطلب من المطربين سماع كل الألحان الخفيفة حتى لا تكون منسوبا إلى الرعونة والطيش، ولو أن أكثر الشبان يطلبون الألحان الخفيفة والحزينة.

الباب الثالث عشر

فى المزاح ولعب النرد والشطرنج

اعلم يا بنى أنهم قالوا فى العربية (المزاح مقدمة الشر)[1]، فتجنب المزاح ما استطعت، ولا سيما المزاح البارد، وإذا مزحت فلا تمزح فى حالة السكر، لأن الشر ينشأ على الأكثر فى حالة السكر، واستح من المزاح القبيح والفحش فى السكر والصحو، وخاصة فى لعب النرد والشطرنج؛ لأن الرجل فى أثناء هذين العملين يكون أكثر ضجرا وأقل احتمالا للمزاح، ولا تتعود لعب النرد والشطرنج كثيرا، وإذا لعبت فالعب فى أوقات معينة، ولا تلعب بالرهان اللهم إلا بطير أو ضيافة ومثل هذا، وحذار أن تلعب بالذهب والفضة لأن اللعب بغير دراهم هو الأدب، واللعب بالذهب والفضة هو المقامرة.

ومهما تكن تستطيع اللعب جيدا، فلا تلعب مع شخص معروف بالمقامرة، لأنك أنت أيضا تصير معروفا بالمقامرة، وإذا لعبت مع شخص أكثر منك احتشاما فإن الأدب فى النرد والشطرنج كليهما أن لا تبدأ بتناول قطع اللعب ما لم يلعب ذلك الشخص أولا، ولا تلعب قط بالرهان مع السكارى والمعربدين والثقلاء حتى لا يقع الخصام، ولا تلعب بغير رهان أيضا إذا أمكن، ولا تتشاجر مع حريفك (غريمك) فى اللعب على نقش الكعبتين[2]، ولا تحلف أنك غلبت فى اللعبة الفلانية، لأنك مهما تكن صادقا قد يقول شخص إنه يكذب، واعلم أن أصل جميع الشرور والعربدة من المزاح، واحترز من الممازحة مهما تكن الممازحة لا عيب فيها ولا إثم، إذ إن الرسول عليه السلام قد مزح، فقد جاء فى الخبر أن عجوزا كانت فى بيت عائشة رضى الله عنها، فسألت الرسول عليه السلام يوما قائلة: يا رسول الله أوجهى وجه أهل الجنة أم أهل النار؟ فقال الرسول عليه السلام - بطريق المزاح - (لا يدخل الجنة عجوز قط)، فاغتمت تلك العجوز وبكت، فعندئذ قال الرسول عليه السلام: (لا تبكى، فإن قولى لا يختلف، وأنا أقول صدقا، إنه لا يدخل الجنة عجوز قط، لأنه يوم القيامة يبعث كل الخلق من القبور شبانا)، ففرحت تلك العجوز.

ويجوز المزاح، أما الفحش فلا يجوز، فإذا قلت وفعلت فلا تقل ولا تفعل مع من هو أقل منك،

---

(١) ورد الأصل الفارسى بعد هذه العبارة العربية (يعنى مزاح پيش روشراست) وهى ترجمة للعبارة العربية إلى الفارسية.

(٢) الزهر.

حتى لا تجعل هيبتك في ترس جوابه[1]، وإذا كان ولا بد، فقل ما تقوله لأقرانك، حتى إذا أجابوك لا يكون عيبا وقبيحا، وامزج كل هزل تقوله بالجد، وتجنب الفحش، ومهما يكن، فالمزاح لا يكون بغير هزل، وهو مهين لجميع الأقدار، إذ كل ما تقوله تسمعه لا محالة، وتوقع من الناس عين ما يصل إلى الناس منك، ولكن لا تخاصم إنسانا قط، لأن الخصام ليس شأن المحتشمين، بل هو عمل النساء والأطفال الصغار، فإذا اتفق لك أن تخاصم إنسانا، فلا تقل كل ما تعرفه وتستطيع قوله، وخاصم بحيث يكون هناك مجال للصلح، ولا تكن عادم الحياء لجوجا مرة واحدة، واعلم أن عدم الحياء واللجاج من عادات اللئام، وأن خير العادات التواضع، لأن التواضع نعمة الله التي لا يحسد عليها أحد، ولا تقل في كل كلمة - يا رجل - فإن قولك - يا رجل - هذه بغير حجة تسقط المرء من الإنسانية.

أما المزاح والشراب فهو عمل الشبان، فإذا راعيت الحد والمقدار، فإن ذلك يمكن على خير وجه، وكذلك يمكن الاحتراز، وإذا أعملت العقل في شرب السيكي والممازحة، تنسد عليك هذه كلها، وما دمت قد قلت شيئا في هذا المعنى، فإني أقول الآن شيئا مما أعرفه في باب العشق، لأن محاكمة القلب شاقة.



(١) أي: حتى لا يرد عليك ردًا يذهب بهيبتك.

الباب الرابع عشر

فى العشق

اعلم يا بنى أن الإنسان لا يعشق ما لم يكن لطيف الطبع ، لأن العشق ينشأ من لطافة الطبع ، وكل ما ينشأ من لطافة الطبع فهو لطيف ، ولما كان لطيفا فإنه يتعلق بالطبع اللطيف . ألا ترى أن الشبان أكثر عشقا من الشيوخ ، لأن طبع الشبان ألطف من طبع الشيوخ ، وكذلك لا يكون غليظ الطبع ثقيل الروح عاشقا قط ، لأن هذه علة تصيب خفاف الروح على الأكثر ، ولكن اجتهد أن لا تعشق وتجنب العشق ، لأن أمر العشق أمر ذو بلاء ، وخاصة إبان الإفلاس ، إذ كل عاشق مفلس لا يبلغ المراد ، وخاصة إذا كان شيخا ، لأن الغرض لا يتحقق بغير المال ، فيكون قد أوغل فى شرب دمه ، كما قلت فى هذا المعنى :



نظم

كنت بغير مال فحل بى الألم لذلك،وبقيت منعزلا عن وجهك لإفلاسى

ولى مثل يليق بحالى: المفلس يأتى من السوق صفر اليدين

* * *

فإذا اتفق مرة أن طاب لك الوقت مع إنسان ، فلا تكن أسير القلب ولا تعلم قلبك العشق أبدا ، ولا تكن دائما متابعا للشهوة ، فإن هذا ليس شأن العقلاء ، لأن الرجل العاشق إما أن يكون فى الوصال أو الفراق ، وسنة من راحة الوصل لا تساوى ألم فراق يوم واحد ، فرأس مال العشق العناء وألم القلب والمحنة ، ومهما يكن ألما لذيذا ، فإنك إذا كنت فى الفراق تكون فى العذاب ، وإذا كنت فى الوصال وعرف المعشوق ما فى قلبك ، فإنك لا تعرف لذة الوصال عندما ترى دلاله ووقاحته وطبعه السيِّئ ، وإذا كان الوصال يعقبه فراق ، فذاك الوصال أسوأ من الفراق ، وإذا كانت معشوقتك ملاكا فى المثل ، فإنك لا تخلو فى أى وقت من ملامة الخلائق ، لأن عادة الناس قد جرت هكذا ، فاحفظ نفسك ما استطعت ، وتجنب العشق! إذ لا يستطيع الاحتراز من العشق إلا العقلاء ، لأنه لا يمكن أن يصير إنسان عاشقا بنظرة واحدة ، فالعين ترى أولا ثم يفكر القلب ، فإذا وقع القبول فى القلب ، مال إليه الطبع ، وعندئذ يطلب اللقاء ، وإذا جعلت شهوتك طوع قلبك وصيرت قلبك

متابعا، فإنك تدبر ثانيا أن تراه، مرة أخرى، وإذا حصل اللقاء مرة ثانية يزداد ميل الطبع إليه، ويصير هوى القلب أغلب، فستقصد اللقاء مرة ثالثة، وتدخل فى الحديث وإذا تكلمت وسمعت جوابا، يصير كل عقلك وفطنتك فى قيده، مثل العجلة والرسن، وتتخلف عن كل الأمور، فإذا أردت أن تحفظ نفسك من بعد ذلك فلا تستطيع، لأن الأمر يكون قد خرج من يدك، ويزداد العشق كل يوم، فيتحتم بعد ذلك ضرورة أن تكون متابعا للقلب، أما إذا حفظت نفسك فى اللقاء الأول، فعندما يطلب القلب، توكل به العقل حتى لا يكثر من ذكر اسمه، وتشغل قلبك بشىء، وتستفرغ شهوتك فى مكان ما، وتعصب عينيك عن رؤيته، فيكون كل ألم القلب أسبوعا، ولا يذكر بعد ذلك، فيمكنك تخليص نفسك من العناء سريعا، ولكن مثل هذا العمل ليس عمل كل إنسان، إذ يلزم رجل عاقل كامل العقل، حتى يستطيع مداواة هذه العلة، لأن العشق علة، كما أن محمد بن زكريا الرازى قد أورد فى تقاسيم العلل سبب علة العشق، وعلاجها، مثل الصوم على الدوام، وحمل الحمل الثقيل، والسفر الطويل، وما أشبه ذلك، أما إذا أحببت شخصا ترضى برؤيته وخدمته، فجائز عندى، كما قال أبو سعيد الخير: لا مفر للآدمى من أربعة أشياء: الأول خبز، والثانى خرقة، والثالث خربة[1]، والرابع حبيب، لكل شخص بحده ومقداره من وجه الحلال، ولكن الصداقة شىء والعشق أمر آخر، وفى العشق لا يطيب الوقت لأى إنسان، و يقول ذلك الرجل العاشق بيتا فى معنى نفسه :



بيت

نار عشقك هذه لذيذة أيها الحبيب   أرأيت قط نارا محرقة ولذيذة

* * *

واعلم بأن القلب يطيب دائما فى صحبة الرجال، ويكون فى العشق دائما فى المحنة، ثم إنك إذا عشقت فى الشباب فلا بد وأن يكون لك عذر، ويعذرك الناس أيضا، ويقولون إنه شاب، فاجتهد أن لا تكون عاشقا فى الشيخوخة، فليس للشيوخ عذر قط، وإذا كنت كذلك من جملة عامة الناس، فإن الأمر يكون أهون، فإذا كنت ملكا وكنت شيخا، فحذار أن تفكر فى هذا المعنى. ولا تربط قلبك بأحد فى الظاهر، فإن العشق للملك الشيخ أمر شاق.

حكاية

فى أيام جدى شمس المعالى كانوا يتناقلون أن ببخارى تاجرا له غلام ثمنه ألفا دينار، فحكى أحمد سعد هذه الحكاية عند الأمير قائلا : ينبغى لنا إرسال شخص ليشترى ذلك الغلام، فقال الأمير يلزمك الذهاب، فجاء أحمد سعد إلى بخارى وقابل النخاس، وأحضروا الغلام واشتراه بألف[2]

---

(١) أى: بيت متواضع يأوى إليه.

(٢) لعلها بألفى.

ومائتى دينار، وأتى به إلى كَرگان، فرآه الأمير وأعجب به وعهد إلى الغلام بحمل المناشف، فعندما كان يغسل يديه، كان يعطيه منشفة ليجفف يده، وانقضت مدة، وذات يوم غسل الأمير يديه فأعطاه هذا الغلام منشفة، فجفف الأمير يده وتأمل الغلام، وكانت قد أعجبته رؤيته، ورد إليه المنشفة، ومر على هذا زمن، فقال لأبى العباس العالم قد أعتقت هذا الغلام ووهبت له القرية الفلانية لتعلم ذلك، فاكتب منشوره، واخطب له ابنة سيد من المدينة، ومره بأن يقيم فى البيت حتى ينبت شعر وجهه وعندئذ يأتى إلى. وكان أبو العباس العالم وزيرا فقال: الأمر للملك، ولكن إذا اقتضى رأى الملك أن يقول لعبده ما المقصود من هذا . . . . . ؟ فقال الأمير: اليوم جرى كذا وكذا، وقبيح جدا أن يعشق الملك بعد سن السبعين، ويجب على بعد السبعين أن أكون مشغولا برعاية عباد الله وبصلاح رعيتى وجندى ومملكتى، فإذا اشتغلت بالعشق لا أكون معذورا عند الله ولا عند الخلق.

أما الشاب فمهما يعمل يعذر، ولكن يجب أن لا يظهر العشق مرة واحدة، ومهما تكن شابا فالزم طريق الحكمة والحشمة والسياسة حتى لا يتطرق الخلل إلى عملك، فقد سمعت من كبير، أنه كان للسلطان مسعود عشرة غلمان، كانوا حفظة ثيابه الخواص، وكان منهم واحد يقال له نوشتكِين، وكان مسعود يحبه، وانقضت بضع سنوات ولم يعرف أحد قط من يحبه السلطان، لأن كل الأعطية التى كان يعطيها لهم كانت سواء، حتى انقضى على هذا خمس سنوات، وذات يوم قال فى سكره: كل ما أمر به أبى لإياز اكتبوه لنوشتكِين. فعندئذ صار معلوما أن مقصوده كان نوشتكِين.

والآن يا بنى رغم أنى قصصت عليك هذه القصة، اعلم أنك لا تعمل بقولى إذا اتفق لك هذا، إذ إنى أيضا من قبيل حسب الحال أقول:

رباعى

كل آدمى حى ناطق، يجب أن يكون مثل عذرا ومثل وامق

وكل من ليس كذلك فهو منافق، وليس بآدمى من يكن غير عاشق

* * *

ورغم أنى قلت ذلك فلا تعمل ببيتى هذين، واجتهد ألا تعشق، فإذا أحببت إنسانا فاحبب شخصا يستأهل الحب، ولو أن معشوق الجميع لا يكون بطليموس وأفلاطون، ولكن يجب أن يكون على شىء من العقل، وإنى أعلم كذلك أنه لا يكون يوسف بن يعقوب، ولكن يجب أيضا أن تكون فيه ملاحة لتنعقل ألسنة بعض الناس ويقبلوا عذرك، فإن الخلائق لا يفرغون من أن يعيبوا ويتلمسوا عيوب الناس، كما قيل لشخص: ألك عيوب؟ قال لا. قالوا: ألك عيابون؟ قال كثيرون. فقالوا اعلم كذلك أنك أكثر الخلق عيبا. وإذا ذهبت ضيفا فلا تصحب المعشوق معك، وإذا صحبته فلا

تنشغل به أمام الغرباء ولا تربط به قلبك، فإن أحدا لا يستطيع أن يأكله، ولا تظن أنه يبدو فى عين كل إنسان كما يبدو في عينك، كما قال الشاعر :

بيت

الويل لى إذا كنت فى عين الخلائق تبدو بهذا الشكل الذى تبدو به فى عينى أنا الفقير

* * *

وكما يبدو بعينك أحسن من كل الخلائق فقد يبدو بأعين الآخرين أقبح، ولا تعطه الفاكهة أيضا فى كل وقت، ولا تتفقده ولا تناده فى كل ساعة، ولا تسر إليه فى أذنه، فإنى أكرر القول فى نفعك وضرك، وينبغى أن تجتهد حتى لا يأخذ الناس عليك عيبا .



الباب الخامس عشر

فى الاستمتاع

اعلم يا بنى أنك إذا أحببت أحدا، فلا تنشغل دائما بمجامعته فى السكر والصحو، لأنه معلوم أن تلك النطفة التى تنفصل عنك بذرة روح وشخص، فإذا فعلت فلا تفعل فى السكر، لأنه فى السكر أشد إضرارا، ولكنه فى وقت الخمار يأتى أصوب وأحسن، ولا تكن مشغولا به فى كل وقت تتذكره، فإن ذلك فعل البهائم التى لا تعرف وقت كل عمل، فتعمل وقتما تجد، ولكن ينبغى أن يتعين للإنسان وقت حتى يكون هناك فرق بينه وبين البهائم. وأما عن النساء والغلمان، فلا تجعل ميلك لجنس واحد، لتكون ذا حظ من كلا النوعين، ولا يكون واحد من الجنسين عدوك، وكما قلت إن المجامعة الكثيرة تضر، فعدم الجماع أيضا يضر، فكل ما تعمله ينبغى أن تعمله باشتهاء، ولا تعمله بتكلف ليكون أقل ضررا، ولكن تجنب الاشتهاء وعدم الاشتهاء فى الحر الحار والبرد القار؛ فإن المجامعة فى هذين الفصلين أضر، وخاصة للشيوخ، وفصل الربيع أوفق الأوقات، لأن الهواء يكون معتدلا، وتفيض عيون الماء وتتجه الدنيا إلى البهجة والسرور، فكما يصير العالم الكبير شابا، وتصير كذلك قوة أجسامنا التى هى العالم الصغير، فإن الطبائع المختلفة فى الجسد تعتدل، ويزداد الدم فى العروق، ويكثر المنى فى الأصلاب، فيصير الرجل بغير قصد محتاجا للمعاشرة والتمتع، فعندما يكون اشتهاء الطبيعة صادقا يكون عندئذ أقل ضررا، وكذلك الفصد، فلا تفصد ما استطعت فى الحر الحار والبرد القار، وإذا رأيت الدم زائدا فسكنه بالأشربة الباردة، ومل فى الصيف إلى الغلمان، وتحول شتاء إلى النسوان، وينبغى فى هذا الباب اختصار الكلام فإنه يثقل.

الباب السادس عشر

في أدب الذهاب إلى الحمام

اعلم يا بني أنه إذا ذهبت إلى الحمام فلا تذهب على شبع، فإنه يضر. ولا تنشغل في الحمام أيضا بالجماع، وخاصة في الحمام الساخن، ويقول محمد بن زكريا الرازي: إني لأعجب من شخص شبعان يجامع في الحمام ولا يموت فجأة. ولكن الحمام شيء حسن جدا، ومذ أقام الحكماء الأبنية لم يعملوا شيئا أفضل من الحمام، ولكنه مع كل مزاياه، فإن الذهاب إليه يوميا لا يفيد بل يضر، لأنه يلين الأعصاب والمفاصل، ويزيل قوتها، ويعتاد الطبع الذهاب كل يوم إلى الحمام، وإذا لم تذهب يوما تكون ذلك اليوم كالمريض، ولا تكون أعضاؤك صحيحة، فعليه ينبغي أن تذهب كل يومين، وتوقَّف أولا في القسم البارد زمنا، بقدر ما ينال منه الطبع حظا، ثم امض إلى القسم الأوسط واجلس هناك زمنا لتنال قسطا من ذلك القسم أيضا، ثم اذهب إلى القسم الساخن وابق ساعة لتحظى بالقسم الساخن كذلك، فإذا أثرت فيك حرارة الحمام فاذهب إلى الخلوة واغسل رأسك هناك، ويجب ألا تقيم كثيرا بالحمام، ولا تصب على نفسك الماء الشديد الحرارة أو الشديد البرودة، بل ينبغي أن يكون معتدلا، وإذا كان الحمام خاليا فعد ذلك غنيمة كبرى؛ لأن الحكماء يعدون الحمام الخالي غنيمة من جملة الغنائم، وإذا خرجت من الحمام فتعال على نفس الترتيب الذي كنت عليه في الذهاب، ويجب تجفيف الشعر جيدا، ثم الخروج فإنه عمل العقلاء، ومن شأن المحتشمين، وكذلك لا يليق الخروج من الحمام بالشعر المبلل والذهاب إلى الأكابر، لأنه من سوء الأدب، ونفع وضرر الحمام هو ما قلته. ولكن تجنب شرب الماء والفقاع في الحمام؛ لأن فيه ضررا بالغا ويؤدي إلى الاستسقاء، إلا أن تكون مخمورا جدا فيجوز عندئذ أن تشرب قليلا تسكينا للخمار ليقل الضرر.

الباب السابع عشر

في النوم والراحة

اعلم يا بني أن رسم حكماء الروم هو أنهم إذا خرجوا من الحمام يناموں زمنا في مسلخ الحمام، ثم يخرجون، وليس لأى قوم آخرين مثل هذا الرسم، ولكن الحكماء يسمون النوم الموت الأصغر، من أجل أنه لا يكون هناك وعى سواء للنائم أو الميت كليهما، وليس الأمر أكثر من أن أحدهما ميت بلا نفس والآخر ميت له نفس. والنوم الكثير عادة غير ممدوحة، تخمل البدن، وتذهل الطبع، وتحول صورة الوجه من حال إلى حال. وهناك ستة أشياء إذا أصابت الناس حولت في التو صورة الوجه وغيرته: أحدها النشاط الفجائي، وثانيها الغم المفاجئ، وثالثها الغضب، ورابعها النوم، وخامسها السكر، وسادسها الشيخوخة، فإذا شاخ الناس تحولوا عن صورتهم، وذلك نفسه نوع آخر. أما النائمون فليسوا في حكم الأحياء ولا في حكم الأموات، فكما أنه لا يكون على الميت حساب كذلك لا يكون على النائم أيضا، وقد قيل :

رباعي

مهما حنيت ظهري بالجفاء، فإني لا أقلل حبك في قلبي

لا أنقطع عنك أيها المعشوق المشهور، لأنك نائم ولا يجرى على النائم قلم

* * *

وكما أن النوم الكثير ضار، فإن عدم النوم يضر أيضا، إذ إن الآدمي إذا لم يترك لينام اثنتين وسبعين ساعة عمدا، وأجبر على السهر فإنه يخشى عليه من الموت المفاجئ، ولكن لكل أمر حدا، وهكذا قال الحكماء: إن اليوم أربع وعشرون ساعة تصحو شطريه وتنام شطرا. ويجب الاشتغال ثماني ساعات بطاعة الله تعالى، وثماني ساعات في السرور والمفاكهة[1]، وإنعاش الروح، وثماني ساعات في الراحة حتى تستريح الأعضاء التي تعبت ست عشرة ساعة، وينام الجهلاء من هذه الأربع وعشرين ساعة نصفا ويستيقظون نصفا، وينام العقلاء شطرا ويستيقظون شطرين، وبهذه القسمة

(١) بعشرت وطيبت.

التى ذكرناها، ينبغى أن يكون الإنسان كل ثمانى ساعات بلون آخر، واعلم أن الحق تعالى قد خلق الليل من أجل راحة العباد، كما قال فى كلامه ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبأ: ١٠, ١١). واعلم حقا أن الحياة كلها بالروح، والجسد هو المكان، والروح هى المتمكنة، وللروح ثلاث خاصيات: كالحياة والخفة والحركة. وللجسد ثلاث خاصيات: هى الموت والسكون والثقل. وما دام الجسد والروح فى حيز واحد، فإن الروح تحفظه بخاصيتها، وتحمله على العمل حينا وترده بخاصيتها عن الأعمال حينا آخر، وتجره فى الغفلة، وعندما يظهر الجسد خاصيته يجثم[1] الموت والثقل والسكون، ويكون ذلك مثل انهيار[2] بيت يسقط، فإذا سقط البيت، أطبق على كل من يكون فيه، فالجسد الذى ينام يطبق على كل حواس[3] الإنسان بحيث لا يسمع السمع، ولا يبصر البصر، ولا يتذوق الذوق، ولا يدرك اللمس، الثقل والخفة والنعومة والخشونة، ولا تكون حاسة النطق ناطقة، فكل شىء يكون نائما فى مكانه، يستولى عليه، ويكون الحفظ والفكرة خارج مكانهما، فلا يستطيع الاستيلاء عليهما، ألا ترى أنه حين ينام الجسد ترى الفكرة الرؤى المنوعة، وتذكرها الحافظة، حتى إذا ما استيقظ يقول رأيت كذا وكذا؟ ولو كان هذان أيضا فى مكانهما لكان قد استولى عليهما، فلم تكن الفكرة تستطيع الرؤية ولا كانت الحافظة تستطيع الحفظ، ولو كان النطق أيضا فى مكانه لما كان الجسد يستطيع المضى فى النوم ولو مضى فى النوم وتكلم، لما كان النوم نفسه، ولما كانت الراحة والاستجمام، لأن كل راحة الأحياء فى النوم، فالحق تعالى لم يخلق أى شىء بغير حكمة ولكن تكلف أن تبعد عن نفسك نوم النهار، وإذا لم تستطع، فيجب النوم قليلا، لأنه ليس من الحكمة تحويل النهار إلى ليل، ولكن رسم المحتشمين والمنعمين هو أن يستريحوا فى الصيف ظهرا وقت القيلولة. أما طريق التنعم فهو أن يستجموا ساعة حسب العادة، ويخلون بشخص يطيب وقتهم معه إلى أن تنحدر الشمس وينكسر الحر، وعندئذ يخرجون، وفى الجملة يجب الاجتهاد فى أن تقضى أكثر العمر يقظا، لأن أمامك نوم طويل، و لكن فى كل وقت تريد أن تنام، ليلا أو نهارا، فلا ينبغى أن تنام وحدك، بل يجب النوم مع شخص ينعش روحك، لأن النائم والميت كلاهما فى القياس سواء، وليس لكليهما خبر عن العالم، ولكن أحدهما نائم حيا والآخر نائم ميتا. فيجب الآن أن يكون هناك فرق بين هذين النائمين، إذ يتحتم على ذلك الفرد أن يكون وحيدا بعذر العجز، وهذا النائم الذى لا اضطرار له، لمَ ينام هكذا كذاك العاجز المضطر[4]؟ فيجب أن يكون مؤنس فراش هذه النفس منعشا للروح، حيث لا مؤنس فى ذلك الفراش، ليتميز نوم الأحياء من نوم الأموات، ولكن

---

(١) ت ح: ينام.
(٢) ت ح: نوم.
(٣) ت ح: أرواح.
(٤) فى الأصل (باضطرار).

يجب التعود على الاستيقاظ فى الفجر بحيث تنهض قبل شروق الشمس، حتى تكون عند الشروق قد أديت فريضة الحق تعالى، وكل من ينهض وقت شروق الشمس يكون ضيق الرزق، لأن وقت الصلاة يكون قد فات منه، فيدركه شؤمها، فانهض وقت الفجر، وأد فريضة الله، ثم ابدأ أشغالك، و إن لم يكن لك شغل فى الصباح، وأردت أن تذهب للرياضة فيجوز أن تشتغل بالصيد واللهو.



الباب الثامن عشر

في الصيد والطرد

اعلم يا بنى أن ركوب الخيل والطرد عمل المحتشمين، وخاصة فى الشباب، ولكن ينبغى أن يكون لكل أمر حد ومقدار، ولا يمكن الصيد كل يوم، والأسبوع سبعة أيام، فاشتغل يومين بالصيد وثلاثة أيام بالطاعة، ويومين بتدبير شأنك، أما إذا ركبت فلا تركب الجواد الصغير، لأن الرجل وإن كان منظرانيا فإنه يبدو حقيرا فوق الجواد الصغير، وإذا كان رجل حقير وركب جوادا فارها، بدا عظيما، ولا تركب الجواد الذلول إلا فى السفر، لأنه إذا كان الجواد ذلولا حط الرجل بنفسه عليه، وفى المدينة والحى، امتط الجواد السريع الوثاب، كيلا تغفل عن نفسك لسرعة الجواد، واجلس منتصبا دائما حتى لا تبدو قبيح الركاب، ولا تركض الجواد فى الصيد عبثا، فإن إركاض الجواد عبثا عمل الصبيان والغلمان، ولا تطارد السباع المفترسة، لأنه لا توجد أية فائدة فى صيد السباع، ولا يتحصل منه سوى الخطر على النفس، كما قد هلك ملكان عظيمان من أرومتنا فى صيد السباع: أحدهما جد أبى الأمير وشمكير والآخر ابن عمى الأمير شرف المعالى، فدعها ليطاردها أتباعك، إلا أمام الملوك العظام، فهنالك يجوز لطلب الشهرة وإظهار النفس، فإذا كنت تحب الصيد فاشتغل بالصيد بالباز والصقر والشاهين والفهد والكلب، حتى تكون، قد اصطدت ولا تكون هناك مخاطرة أيضا، وما تقنصه ينفع، لا كلحم السباع، فهى لا تصلح للأكل ولا يصلح جلدها للارتداء، فإذا اصطدت بالباز فإن الملوك يقومون به على وجهين: فملوك خراسان لا يطيرون الباز بأيديهم، ورسم ملوك العراق أن يطيروه بأيديهم، وكلا الوجهين يجوز، وإذا لم تكن ملكا فاعمل كما تشاء، وإذا كنت ملكا وأردت أن تطيره بنفسك فجائز، ولكن لا تطير أى باز أكثر من مرة، فإنه لا يجوز للملوك أن يطيروا بازيا مرتين، فطيره مرة، وانظر، فإذا قنص صيدا فحسنا، وإلا فخذ بازيا آخر وطيره، ويجب أن يكون مطلب الملك ومقصوده من الصيد النزهة لا الطعمة، وإذا كان الملك يصطاد بالكلب فلا يليق به أن يمسك الكلب، بل يجب أن يطلقه العبيد أمامه وهو ينظر، ولا تركض الجواد خلف الصيد، وإذا كنت تصطاد بالفهد، فلا تأخذ الفهد على الجواد وراء ظهرك لأنه يقبح أن يحرس الملك الفهد، وليس شرطا كذلك ـ وخاصة للملوك ـ أن يأخذ المرء خلفه سبعا، وهذا هو شرط تمام الصيد.

الباب التاسع عشر

فى لعب الصولجان[1]

اعلم يا بني أنك إذا كنت تنشط للعب الصولجان فلا تجعله عادة دائمة، فقد حل البلاء بأشخاص كثيرين من لعب الصولجان.

حكاية

هكذا يحكى أن عمرو بن الليث كان أعور، ولما صار أمير خراسان ذهب يوما إلى الميدان ليضرب الكرة، وكان له اسفهسالار[2] يقال له «أزهرخر»[3]، ويقال إن هذا قد جاء وأمسك بعنانه وقال: لا أدعك تضرب الكرة وتلعب الصولجان، فقال له عمرو بن الليث: كيف تضربون أنتم الكرة ولا تجيزون أن ألعب أنا الصولجان؟ قال: من أجل أن لنا عينين فإذا وقعت الكرة فى عينى[4] عميت بعين واحدة وتبقى عين أرى بها الدنيا، ولك عين واحدة، فإذا اتفق أن وقعت الكرة فجأة على عينك، وجب توديع إمارة خراسان، فقال عمرو بن الليث: مع كل الحمورية[5] التى فيك فقد أصبت، وقبلت أن لا أضرب الكرة ما بقيت.

أما إذا نشطت إلى الصولجان مرة أو مرتين فى السنة، فأجيز ذلك، ولكن لا ينبغى كثرة الركوب فإنه يكون مخاطرة، ويجب أن لا يزيد جمع الفرسان عن ثمانية أشخاص، فيجوز أن تقف أنت على رأس الميدان، ويقف آخر فى آخر الميدان، وستة أشخاص فى الوسط يضربون الكرة، وعندما تأتى الكرة نحوك تعيدها أنت، واحمل الجواد على التقريب[6]، ولا تكن فى الكر والفر، لتكون آمنا من الصدمة، ويكون مقصودك أيضا من النزهة قد حصل، وهذا هو طريق لعب الصولجان للمحتشمين.

---

(١) الترجمة الحرفية: ضرب الصولجان.

(٢) قائد الجيش.

(٣) الحمار الأزهر.

(٤) الترجمة الحرفية: وقعت الكرة فى عيننا.

(٥) يلاحظ أن ترجمة اسم القائد (الحمار الأزهر)

(٦) نوع من العَدْو.

الباب العشرون

فى قتال الأعداء

حينما تكون فى القتال لا يكون التراخى والتريث هنالك من شرائط الحرب، كذلك ينبغى قبل أن يتعشى بك العدو أن تكون أنت قد تغديت به، وإذا وقعت فى وسط المعركة فلا تقصر قط، ولا ترحم نفسك، فإن من قدر له أن ينام فى القبر لا ينام فى البيت بأية حال، كما قلت بيتين فى هذا المعنى:

رباعى

إذا صار العدو أسدا فسواء أكان ظاهرا أو خفيا فإنى سأتكلم مع الأسد بالسيف

فمن قدر له أن ينام فى القبر بغير زوج لا يستطيع أن ينام فى بيته مع الزوج



* * *

ولا تتقهقر خطوة فى المعركة ما دمت تستطيع أن تتقدم خطوة، وإذا ابتليت فى وسط الأعداء فلا تتقاعس عن الحرب، لأنه بالحرب يمكن القبض على الأعداء، وما داموا يرون حركات الإقبال معك فإنهم أيضا يهابونك، واجعل الموت شهيا إلى القلب فى ذلك المكان، ولا تخش البتة، وكن مقداما، فإن السيف القصير يصير بيد الشجعان طويلا، ولا تقصر فى المجاهدة بأى حال، لأنه إذا ظهر منك خوف وضعف، وكان لك ألف روح، فإنك لا تستطيع النجاة بواحدة منها، ويتغلب عليك أقل إنسان، وعندئذ إما أن تُقتل وإما أن تسوء سمعتك، وإذا كنت قد صرت معروفا بين الرجال بالجبن، وتراخيت وتهاونت فى مثل ذلك الموقف، وتخلفت عن قرينك، فإنك تخجل بين إخوانك ورفاقك، ولا يبقى لك اسم ودلال، وتبقى خجلا بين الأقران والخلان، ويكون الموت خيرا من تلك الحياة، والموت بالسمعة الطيبة أولى من أن يحيا الإنسان حياة شائنة كتلك، ولكن لا تكن جريئا على الدم الحرام، ولا تستحل دم أى مسلم، إلا دماء الصعاليك واللصوص والنباشين ودم شخص يكون سفك دمه واجبا فى الشريعة، لأن بلاء الدارين منوط بسفح الدم الحرام، فتلقى قبل كل شىء[1] جزاء ذلك يوم القيامة، وتصير فى الدنيا سيئ السمعة، ولا يأمنك قط من هو دونك وينقطع منك أمل خدمك، وينفر منك الخلق، ويكونون أعداءك بقلوبهم، ولا تكون كل العقوبة على الدم الحرام فى

(١) الترجمة الحرفية: أولا.

الآخرة، فقد قرأت في الكتب وصار معلوما بالتجربة أن جزاء السوء يصل إلى المرء في الدنيا أيضا، فإذا كان قد اتفق لهذا الشخص طالع حسن، فلا بد وأن تصل العقوبة لأولاده، فارحم نفسك وأبناءك، ولا ترق الدم الحرام، أما في القتل بالحق المنوط به الصلاح فلا تقصر؛ لأن الفساد يتولد من التقصير، كما يحكى عن جدى شمس المعالى أنه كان رجلا مسرفا في القتل، ولم يكن يطيق العفو عن جرم أي أحد، لأنه كان رجلا شريرا، وحقد عليه الجند لشره، وانضموا إلى عمى فلك المعالى، فجاء وقبض على أبيه شمس المعالى بحكم الضرورة، لأن الجند قالوا له إذا لم تتحد معنا في هذا الأمر، فإننا نعطى هذا الملك للغريب، فلما علم أن الملك سيخرج من أسرتهم، قام بهذا العمل ضرورة من أجل الملك، والمقصود أنه لما قام بهذا الأمر، وقبضوا عليه وقيدوه ووضعوه في مهد ووكلوا به الموكلين وبعثوا به إلى قلعة چناشك، كان من جملة الموكلين به رجل يقال له عبد الله جمازه بان، وبينما كانوا يسيرون في ذلك الطريق، قال شمس المعالى لهذا الرجل: يا عبد الله، ألا تعرف من عمل هذا العمل؟ وكيف كان هذا التدبير فجرى[1] أمر بهذه الخطورة ولم أستطع أن أعرف؟ فقال عبد الله: قام بهذا العمل فلان وفلان - وذكر اسم خمسة قواد على أنهم قاموا بهذا العمل وخدعوا الجند - وكنت أنا نفسى عبد الله في هذا الشأن، وخلفت الجميع وقد بلغت أنا هذا الأمر إلى هذه الغاية، ولكن لا تر هذا الأمر منى، بل ره من نفسك، فقد وقع لك هذا الأمر من القتل الكثير لا من انقلاب العسكر، فقال شمس المعالى: لقد أخطأت، فقد وقع لى هذا الأمر من عدم قتل الناس، فلو سار هذا الأمر على مقتضى العقل لكان ينبغى قتلك مع هؤلاء الأشخاص الخمسة، ولو كنت فعلت هذا لصار أمرى إلى الصلاح وكنت في السلامة. وذكرت هذا لكيلا تقصر في العدل والسياسة، ولا تستسهل ما لا مفر منه، ولا تتعود الجب، فإن هذا مساو للقتل، لأنك تعدم نسل مسلم من أجل شهوتك، ولا يكون جور أكبر من هذا، وإذا لزمك مجبوب فاحصل على مجبوب أصلا، ليكون نفعه لك ووزره في عنق شخص آخر، وتكون قد عصمت نفسك من هذا الذنب.

أما في حديث القتال فكن كما ذكرت، ولا ترحم نفسك، حتى لا تجعل بدنك طعمة للكلاب، ولما كان من الممكن أن تجعل اسمك كاسم الأسود فاجتهد حتى يتأتى لك الصيت والعيش، فإذا حصلت عليهما فاجتهد أن تجمع المال وإذا جمعته فاحفظه وأنفقه بمقدار.

(١) الترجمة الحرفية: سار.

الباب الحادي والعشرون

في جمع المال

أي بني، لا تغفل عن تحصيل المال، ولكن لا تلق بنفسك في الخطر من أجل المال، واجتهد في أن يكون كل ما تحصله من خير وجه ليكون هنيئا لك، وإذا حصلت عليه فاحفظه، ولا تدعه من يدك بكل باطل، فإن المحافظة أصعب من التحصيل، وحينما تضطر للإنفاق فاجتهد حتى تضع عوضه سريعا في مكانه، لأنك إذا أخذت ولم تضع في مكانه العوض ثانيا، فإنه ينفد وإن يكن كنز قارون، وكذلك لا تربط به قلبك بحيث تعده أبديا، حتى إذا ما نفد وقتا ما، لا تغتم، وإذا كان المال كثيرا فأنفق منه بقدر ومقدار، لأن القليل بالتدبير خير من الكثير بغير توفير، وإذا تبقى بعدك مال كثير، فإنه أحب إلي من أن تكون محتاجا، فقد قيل بقاء المال للأعداء خير من الاحتياج إلى الأصدقاء، وكثرة الامتلاك خير من كثرة الطلب، ومهما يكن الشيء زهيدا فاعلم أن المحافظة عليه واجبة، لأن كل من يحافظ على القليل يستطيع المحافظة على الكثير أيضا، واعلم أن تولى شأنك خير من تولى شئون الناس، واخجل من الكسل، فإن الكسل تلميذ التعاسة، وكن حمولا للتعب، لأن المال يتجمع من التعب، وكما يزداد بالتعب يذهب من اليد بالكسل، فقد قال الحكماء: كن في السعي حتى تكون عامرا، وكن راضيا لتكون غنيا، وكن متواضعا لتكون كثير الأصدقاء، فكل ما يتحصل من التعب والجهد، لا يكون التفريط فيه بسبب الكسل والغفلة من عمل العقلاء، لأنك تندم في وقت الحاجة ولا يفيد الندم، ولكن إذا أتعبت نفسك فاجتهد أن تطعم أيضا، ومهما يكن المال عزيزا فلا تضن به على المستحقين، لأن الإنسان على كل حال لا يحمل المال إلى القبر، ولكن يجب أن يكون الإنفاق على قدر الدخل، حتى لا تصير محتاجا، لأن الاحتياج لا يكون في بيوت الفقراء فحسب، بل يكون في كل البيوت، فإذا كان الدخل درهما مثلا وأنفقت درهما وحبة تظل محتاجا دائما، فينبغي إذا كان الدخل درهما أن تنفق درهما إلا حبة، حتى لا يكون الاحتياج أبدا في ذاك البيت. واقنع بما عندك فإن القناعة هي الغنى الثاني، وذاك الرزق المقسوم لك لا بد وأن يصل إليك، وكل عمل يتحقق[1] بكلام الناس وشفاعتهم فلا تبذل فيه المال، حتى لا يضيع درهمك عبثا، لأن عمل الرجل المعدم لا قدر له، واعلم أن العامة جميعا يحبون الأغنياء من غير نفع يعود عليهم، ويعادون

---

(١) الترجمة الحرفية: يصير حسنا.

جميع الفقراء من غير ضرر يصيبهم، لأن الفاقه أسوأ حالات المرء، وكل خصلة تكون مدحا للأغنياء، هذه الخصلة عينها تكون مذمة للفقراء. واعلم أن تجمل المرء في عطاء المال، وأن قدر كل امرئ على مقدار تجمله. ولكن اعلم أن الإسراف عدو الله، وكل شيء يعاديه الله شؤم على العباد، كما قال الله تعالى في كلامه المجيد: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١). فالشيء الذي لا يحبه الله لا تحببه أنت أيضا، ولكل آفة سبب، واعلم أن الإسراف سبب للفقر، وليس الإنفاق هو كل الإسراف، بل لا يجب الإسراف في الأكل والقول والعمل وفي كل شغل يكون، لأن الإسراف يوهن البدن ويتعب النفس ويميت العقل الحي، ألا ترى أن حياة السراج من الزيت، فإذا جعلته في السراج بغير حد ومقدار بحيث يسري من طرف المسرجة إلى رأس الفتيلة فإنه يميت[1] السراج في الحال، ويكون نفس ذلك الزيت سبب الموت، ولو كان باعتدال لكان سببب حياته؟ ولما كان الإسراف سبب مماته، فقد صار معلوما أن السراج كان حيا بالزيت ولما جاوز الاعتدال وبدأ الإسراف، إذا هو يموت كذلك بذاك الزيت الذي كان حيا به، والله تعالى لا يحب الإسراف لهذا السبب، والحكماء أيضا لم يرتضوا الإسراف في أي شأن لأن عاقبة الإسراف كله الضرر.

ولكن لا تجعل حياتك مرة، ولا تسد على نفسك باب الرزق، وتعهد نفسك جيدا[2]، ولا تقصر فيما يجب أن يكون، لأن كل من يقصر في شأن نفسه، لا يجد التوفير من السعادة ويبقى محروما من الأغراض، وأنفق على نفسك ما تملكه ويكون لازما لك، لأن المال وإن يكن عزيزا، فليس أعز من النفس على أي حال، وفي الجملة اجتهد في أن تستعمل كل ما تحصله في الصلاح، ولا تودع مالك إلا بأيدي البخلاء، ولا تعتمد قط على المقامر وشارب الخمر، وظن كل شخص لصا، ليكون مالك في أمان من اللص، ولا تقصر في جمع المال، لأن راحة البدن أولا هي الألم آخرا، والألم أولا هو راحة البدن آخرا، بحيث تكون راحة اليوم تعب الغد، وتعب اليوم راحة الغد، وإذا تحصل شيء بالتعب أو بغير التعب، فاجتهد حتى تجعل نفقة بيتك دانقين من الدرهم، ولا تنفق من مال عيالك أكثر من هذا ولو كان لازما وكنت محتاجا، وإذا أنفقت هذين الدانقين، فادخر دانقين من أجل الضرورة وولهما ظهرك، ولا تذكرهما في كل خلل، واتركهما للورثة، ليكونوا عونك أيام الضعف وأوان الشيخوخة، واصرف ذينك الدانقين الآخرين اللذين يتبقيان في تجمل نفسك، وتجمل بما لا يفنى[3] ويبلى، مثل الجواهر والأدوات الذهبية والفضية والصفرية والبرونزية والنحاسية وأشباه هذه، وإذا زاد شيء فأودعه التراب لأن كل ما تودعه التراب تجده ثانيا، ويكون المال دائما في مكانه، وإذا تجملت فلا تبع تجمل البيت في كل حاجة بضرورة تعرض لك، ولا تقل: إنها الآن ضرورة، فأبيع وأشترى ثانيا في وقت آخر، لأنه لا يجوز بيع تجمل البيت من أجل كل خلل بأمل الشراء عوضه

(١) أي: يطفئ. واستعمل المؤلف كلمة يميت وكلمة الموت في مقابل كلمة الحياة.
(٢) (خويشتنرا نيك دار).
(٣) الترجمة الحرفية: يموت.

ثانيا ، فإنه لا يشترى ويخرج ذاك من اليد ويبقى البيت خاليا ، فلا يمضى طويل حتى تكون أفلس المفلسين ، ولا تقترض من أجل كل ضرورة تعترضك ، ولا ترهن متاعك ، ولا تعط البتة المال أو تأخذه بالربا ، واعلم أن الاستدانة ذل كبير ، ولا تقرض ما استطعت درهم فضة لأى إنسان وخاصة لأصدقائك ، لأن مطالبة الصديق بالدين هي الألم الأكبر ، فإذا أقرضت فلا تعد ذلك الدرهم من مالك ، واعتبره كذلك في نفسك قائلا : إنى وهبت هذا الدرهم لهذا الصديق ، ولا تطلبه منه ما لم يرده ، لأن الصداقة تنقطع بسبب التقاضى ، فالصديق يمكن سريعا جعله عدوا ، أما جعل العدو صديقا فصعب جدا ، ذاك عمل الصبيان وهذا عمل الشيوخ ، واجعل من كل شيء يكون لك نصيبا للمستحق ، ولا تطمع فى مال الناس ؛ لتكون خير الناس ، واعتبر مالك من متاعك ومال الناس من متاع الناس ؛ لتعرف بالأمانة ويكون للناس اعتماد عليك ، وبهذا العمل تكون غنيا دائما .



الباب الثاني والعشرون

في إيداع الأمانة

إذا استودعك شخص أمانة فلا تقبلها بأي حال، وإذا قبلتها فاحفظها لأن قبول الأمانة قبول للبلاء، من أجل أن عاقبة ذلك لا تخرج عن ثلاثة أشياء حتى ترد إليه هذه الأمانة، كما أن الله عز وعلا يقول في محكم تنزيله: ﴿أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨). إذ إن طريق المروءة والإنسانية والشهامة هي أن لا تقبل الأمانة، وإذا قبلتها تحافظ عليها وتعيدها إلى صاحبها سالمة.

حكاية

سمعت أن رجلا خرج من بيته في الظلام وقت السحر ليذهب إلى الحمام، ورأى في الطريق صديقا من أصدقائه، فقال: أتوافقني على أن نذهب معا إلى الحمام؟ فقال صديقه أرافقك حتى باب الحمام، ولكن لا أستطيع دخول الحمام لأن عندي عملا، وسار معه إلى قرب الحمام فوصلا إلى مفترق[1] طريقين، وعاد قبل أن يخبر ذلك الصديق، وسار في طريق آخر، وكان طرار[2] يغدو اتفاقا وراء هذا الرجل ليذهب إلى الحمام للنشل، والتفت هذا الرجل قضاء فرأى الطرار وكانت الدنيا ما تزال مظلمة فظن أنه صديقه، وكان معه في كمه مائة دينار مصرورة في منديل، فأخرجها من كمه وأعطاها لذلك الطرار وقال: أي أخي، خذ هذه الأمانة حتى أخرج من الحمام فتردها إليّ، فأخذ الطرار منه المال وأقام هنالك إلى أن خرج من الحمام، وكانت الدنيا قد أضاءت، فارتدى ثيابه وذهب، فناداه الطرار وقال: أيها الفتى استرد مالك وامض، فإني قد تخلفت اليوم عن شغلي بسبب أمانتك، فقال: ما هذه الأمانة؟ ومن أنت؟ فقال الطرار: أنا طرار، وأنت أعطيتني هذا الذهب حتى تخرج من الحمام، فقال الرجل: إذا كنت طرارا فلمَ لمْ تسلبه مني؟ فقال الطرار: لو كنت سلبت هذا بصناعتي لأخذته ولو كان ألف دينار ولما كنت أرد منه شعيرة، ولكنك سلمته لي واستودعته مستأمنا، وليس من المروءة أن أخونك وقد جئت مستأمنا.

وبعد فإني ذكرت هذا لك لترى أن طرارا يرعى حرمة الأمانة هكذا، فتعلم أن قبول الأمانة أمر

---

(١) الترجمة الحرفية: رأس.

(٢) نشال.

عظيم الخطر، لأنها إذا هلكت على يدك بغير مرادك، فإنه يكون حسنا إذا اشتريت عوضها ثانيا وأديته، وإذا أضلك الشيطان الطريق وطمعت فيها، فإن ذلك سواد الوجه في الدنيا والآخرة، وإذا رددتها إلى صاحب الحق وكنت قد احتملت ذلك القدر من العناء لحفظها، فإن صاحب الأمانة لا يرى لك منة قط، ويقول إنه كان مالي ورده إلي، ويظل غير شاكر لذلك القدر من تعبك، فيكون أجرك هو ذاك الصنيع الذي يبيض ثوبك، أما إذا هلكت ولم تكن أنت قد فكرت ثمة في خيانة قط، فإن أي إنسان لا يقبل ذلك، وتكون عند كل الناس خائنا، وتذهب حرمتك بين أمثالك وأقرانك، ولا يعتمد عليك شخص آخر أيضا، وإذا بقيت معك حبة من ذلك المال، تكون حراما ويبقى في عنقك وبال عظيم، ولا تكون منعما في هذه الدنيا، وتحصل عقوبة الحق تعالى في الآخرة.

فصل

أما إذا استودعت شخصا وديعة فلا تستودعها خفية، بل تأخذ شاهدين عدلين، وخذ منه حجة بما تعطي لتستريح من التقاضي، فإذا وقعت في التقاضي، فلا تكن جريئا لأن الجرأة علامة الظلم، ولا تقسم ما استطعت كذبا أو صدقا أبدا، ولا تجعل نفسك معروفا بالحلف قط، حتى إذا لزمك مرة أن تحلف وتكون هناك ضرورة، يعتبرك الناس صادقا في ذلك القسم، ومهما تكن غنيا، فإنك إذا لم تكن حسن السمعة وصادقا تكون من جملة الفقراء، إذ ليس لسوء السمعة والكذب عاقبة غير الفقر، والتزم الأمانة فقد قيل: الأمانة كيمياء الذهب، وعش غنيا دائما، يعني كن أمينا وصادقا، لأن مال كل العالم للأمناء والصادقين، واجتهد أن لا تكون خادعا، واحذر أن تكون مخدوعا وخاصة في المعاملات[1] التي ينسد فيها باب الشبهة[2].

(١) الترجمة الحرفية: العطاء والأخذ.

(٢) أي: التي لا يكون فيها مجال للغش والمراوغة.

الباب الثالث والعشرون

في شراء الرقيق

إذا أردت أن تشترى الرقيق فكن فطنا، لأن شراء الآدمي علم صعب، فكثيرا ما يكون العبد مليحا، فإذا نظرت إليه بعين العلم يكون خلاف ذلك، وأكثر الخلق يظنون أن شراء الرقيق من جملة التجارات الأخرى، ولا يعرفون أن شراء الرقيق وعلم ذلك من علوم الفلسفة، وكل من يشترى شيئا لا يعرفه حق المعرفة يغبن فيه، وأصعب المعارف معرفة الآدمي، لأن عيوب الآدمي وفضائله كثيرة، وقد يكون عيب واحد يستر مائة ألف فضيلة، وتكون فضيلة واحدة تستر مائة ألف عيب، ولا يمكن معرفة الآدمي إلا بعلم الفراسة والتجربة، وتمام علم الفراسة علم النبوة، إذ لا يصل أحد إلى كماله إلا نبي مرسل، يستطيع أن يعرف بالفراسة محاسن ومساوئ بواطن الناس، ولكني أذكر بقدر الطاقة ما يكون شرطا في شراء المماليك والعبيد، وما يكون من فضائلهم وعيوبهم حتى يصير معلوما.

اعلم أن هنالك ثلاثة شروط في شراء المماليك:

أحدها معرفة عيوب وفضائل ظاهرهم وباطنهم بالفراسة، وغير هذا، الخبرة بعلامة العلل الخفية والظاهرة، ثم معرفة الأجناس وعيوب وفضائل كل جنس.

أما أول شرط الفراسة فهو أنك إذا اشتريت عبدا ينبغي التأمل جيدا، لأن للعبيد مشترين من كل نوع، فقد ينظر شخص إلى الوجه ولا ينظر إلى الجسم والأطراف، وقد ينظر شخص إلى الشحم واللحم، أما كل شخص ينظر إلى العبد فيجب أولا أن ينظر إلى الوجه، لأنه يمكنك أن ترى وجهه دائما، وترى جسمه أحيانا، فانظر إلى العين والحاجب، ثم إلى الأنف والشفة والأسنان، وبعد ذلك انظر إلى شعره، لأن الله عز وجل أودع حسن كل الآدميين في العين والحاجب، والملاحة في الأنف، والحلاوة في الشفة والأسنان، والطراوة في الجلد، وقد صير شعر الرأس مزينا لهذه كلها، لأنه خلق الشعر من أجل الزينة، فينبغي كذلك أن تنظر إلى الجميع فإذا كان في العين والحاجب حسن، وفي الأنف ملاحة، وفي الشفة والأسنان حلاوة، وفي الجلد طرواة، فاشتر ذلك العبد ولا تنشغل بأطراف جسده، فإذا لم تكن هذه كلها، فيجب أن يكون مليحا، إذ المليح بغير الحسن خير في مذهبي من الحسن بغير الملاحة، وقد قيل: العبد يصلح لكل عمل، فينبغي أن يعرف بأية فراسة يجب أن يشتر ى وبأية علامة.

كل عبد تشتريه من أجل الخلوة والمعاشرة، يجب أن يكون معتدلا فى الطول والقصر، والسمنة والنحافة، والبياض والحمرة، والغلظة والرقة، وجعودة الشعر واسترساله، فإذا رأيت غلاما ناعم اللحم، ورقيق الجلد، ومستوى العظام، وخمرى الشعر[1]، وأسود الهدب، وأشهل العين، وفاحم الحاجب، وواسع العين، ومسحوب الأنف، ودقيق الخصر، ومدور الذقن، وأحمر الشفة، وأبيض الأسنان، ومستوى الثنايا، وكل أعضائه مناسبة لهذا الذى قلته، كل غلام يكون هكذا يكون جميلا ومعاشرا وحسن الخلق ووفيا ولطيف الطبع ولائقا.

وعلامة الغلام العاقل والسعيد هى أن يكون منتصب القامة، ومعتدل الشعر، ومعتدل اللحم، وعريض الكتف، وواسع ما بين الأصابع، وعريض الجبهة، وأحمر اللون، وأشهل العين، ومبسوط الوجه من غير ابتسام، مثل هذا الغلام يكون أهلا لتعلم العلم وتعهد الخزانة وكل عمل.

وعلامة الغلام الذى يليق للملاهى هى أن يكون ناعم اللحم وقليله وخاصة على الظهر، ودقيق الأصابع لا بالنحيل ولا بالسمين، وكل غلام مكلثم الوجه[2] لا يمكن أن يتعلم شيئا، فينبغى أن يكون ناعم الكف، وواسع ما بين الأصابع، ووضيء الوجه، وممتلئ الإهاب، لا يكون شعره طويلا جدا ولا قصيرا جدا ولا أسود جدا، والأفضل أن يكون باطن كف قدمه مستويا، مثل هذا الغلام يتعلم سريعا كل حرفة دقيقة وخاصة الغناء.

وعلامة الغلام اللائق لحمل السلاح، هى أن يكون كث الشعر، وتام القوام منتصب القامة، وقوى التركيب، ومكتنز اللحم، وغليظ العظم، وخشن الجلد، وصحيح الجسم، وشديد المفاصل، ومشدود العروق، وجميع الأوردة والأعصاب ظاهرة على جسده ونافرة، وعريض الكتف، وواسع الصدر، وغليظ العنق، ومستدير الرأس، وإذا كان أصلع فهو أفضل، وضامر البطن، ومجتمع العجيزة، وتكون ساق رجله ممتدة حين يمشى، ويجب أن يكون أسود العين، وكل غلام يكون هكذا، يكون مبارزا وشجاعا وموفقا.

وعلامة الغلام الذى يليق لخدمة الحريم[3]، هى أن يكون أسود البشرة، وعابس الوجه، وخشنا، وذاوى الجسم، وخفيف الشعر، ورقيق الصوت، ونحيل القدم، وغليظ الشفة، وأفطس الأنف، وقصير الأصابع، ومنحنى القامة، ونحيف العنق، مثل هذا الغلام يليق لخدمة الحريم، ولكن لا يجوز أن يكون أبيض البشرة وأحمر الوجنة، واحترز من الأشقر وخاصة من المتهدل الشعر، ولا يليق أن يكون فى عينه رعونة وطراوة، فإن مثل هذا يكون إما ولوعا بالنساء أو قوادا.

---

(١) فى لون الخمر.

(٢) الترجمة الحرفية: على وجهه لحم كثير.

(٣) الترجمة الحرفية: بيت النساء.

وعلامة الغلام الوقح الذى يليق بالعَونَة[1] وسياسة الدواب، هى أن يكون مفتوح الحاجب، وواسع العين، وأجفان عينيه منقطة بالحمرة، وطويل الشفة والأسنان، وواسع الفم، مثل هذا الغلام يكون وقحا جدا وغير هياب وعادم الأدب.

وعلامة الغلام الذى يليق للفراشة والطبخ، هى أن يكون نظيف الوجه، ونقى البدن، ومستدير الوجه، ودقيق اليد والقدم، وأشهل العين بحيث تميل إلى الزرقة، وتام القوام، وصموتا، وشعر رأسه خمريا ومسيلا، مثل هذا الغلام يليق لمثل هذه الأعمال، أما الشرط الذي ذكرناه فيجب مراعاته هكذا.

ونذكر الآن عيوب كل جنس وفضائله التى يجب معرفتها :

اعلم أن الترك ليسوا جنسا واحدا، ولكل جنس منهم طبع وجوهر، والغزو القپچان من بينهم أسوأ الجميع أخلاقا، وأحسن الجميع خلقا وأطوعهم الختنى والخلجي والتبتى، وأجرأ الجميع وأشجعهم هو الترقاى، وأكثر الجميع احتمالا للتعب ومقاساة للبلاء وأوفقهم التاتارى واليغماى، وأضعف الجميع الچكلى، ومعلوم للجميع محاسن ومساوئ هؤلاء، والهنود على النقيض، فإذا نظرت إلى التركى بالتفصيل؛ فالرأس كبير والوجه عريض والعينان ضيقتان والأنف مفرطح وليست الشفة والأسنان جميلة، فإذا نظرت إليه تفصيلاً فإنه لا يكون جميلا، أما إذا نظرت إلى كل الأعضاء وجمعت بينها فهو جميل.

وصورة أعضاء الهندى بخلاف هذا، فإذا نظرت إليها واحدا واحدا تكون بذاتها جميلة، ولكن إذا نظرت إليها مجتمعة لا تبدو كصورة الأتراك، فللتركى قبل كل شيء[2] رطوبة ذاتية وصفاء ليسا للهندى، وقد سبق الأتراك فى الطراوة جميع الأجناس، فلا جرم أن يكون كل ما هو حسن من الترك فى غاية الحسن، وما هو قبيح فى غاية القبح، وأكثر عيوبهم أنهم بليدو الذهن وجهلاء ومتكبرون ومشاغبون وغير راضين، وغير منصفين ومشيرون للفتن بلا سبب، وبذيئو اللسان، وهم فى الليل جبناء، وتلك الشجاعة التى يبدونها نهارا لا يستطيعون إبداءها ليلا، أما فضائلهم فهى أنهم شجعان وغير مرائين، ظاهرو العداوة ومتعصبون لكل عمل تكله إليهم، ولا يوجد من أجل التجمل جنس أحسن منهم.

والصقلبى والروسى والألانى قريبون إلى طبع الأتراك، ولكنهم أكثر احتمالا من الترك، أما الألانيون فأكثر شجاعة من الترك فى الليل، وأكثر حبا لسيدهم، وإن كانوا بالفعل أقرب إلى الرومى، من حيث إنهم نفساء، ولكن فيهم عدة عيوب مثل : السرقة، والعصيان، والتكلم خفية،

(١) أعمال السخرة وخدمة الحمير.

(٢) الترجمة الحرفية : أولا.

وعدم الصبر، والتباطؤ فى العمل، ورخاوة الطبع، وعداء سيدهم، والفرار. أما فضائلهم فهى أنهم لينو الطباع ،ومطبوعون، وسريعو الفهم ،ومتروون فى العمل، وقويمو اللسان، وشجعان وأدلاء، وقابلون للتعلم. وعيب الرومى هو أنه بذىء اللسان، وسيئ الطوية، وضعيف الطبع، وكسلان، وسريع الغضب، وحريص، ومحب للدنيا. وفضائلهم هى أنهم صابرون وأوداء وحسنو الخلق، وموضع للسر وموفقون، وحافظون لألسنتهم. أما عيب الأرمنى فهو أنه سيئ الفعل، ونتن الفم، ولص، ووقح، وشرود، وغير مطيع، ومهذار ،وكذاب، ومحب للكفر، وعدو لسيده ،وهو من رأسه إلى قدمه أقرب إلى العيب ولكنه حاد الفهم وبارع. وأما عيب الهندى فهو أنه بذىء اللسان، ولا تأمن منه جارية فى البيت. أما أجناس الهنود فليسوا كسائر الأقوام، لأن كل الخلق مختلطون بعضهم ببعض إلا الهنود، فإنهم من عهد آدم عليه السلام ما تزال عادتهم على ألا يتصل أصحاب حرفة قط بخلاف بعضهم البعض، فيعطى البقالون بناتهم للبقالين، والقصابون للقصابين، والخبازون للخبازين، والجندى للجندى، فهم كل جنس منهم له طبع آخر، ولا أستطيع شرح كل واحد فيتحول الكتاب عن وضعه[1]. أما خيرهم الذى يكون عطوفا وشجاعا وسيدا أيضا، فهو البرهمى أو الراوت أو الكرار؛ فالبرهمى عاقل، والراوت شجاع، والكرار سيد، وكل جنس خير من جنس. أما النوبى والحبشى فأقل عيوبا، والحبشى خير من النوبى، لأن فى مدح الحبشى شيئا كثيرا عن النبى صلى الله عليه وسلم.

هذا ما كان من معرفة الأجناس وفضل وعيب كل جنس، والشرط الثالث الآن هو أن تكون عارفا كلية بالعيوب الظاهرة والباطنة بالعلامات. وذلك بحيث لا تكن غافلا وقت الشراء. ولا ترض بنظرة واحدة؛ فقد يكون حسنا جدا فى النظرة الأولى ما يتضح أنه قبيح، ويكون قبيحا جدا ما يتضح أنه حسن، وفضلا عن ذلك فإن بشرة الأدمى لا تكون دائما بلونها فتميل حينا إلى الحسن وحينا إلى القبح، ويجب التأمل جيدا فى كل أعضائه حتى لا يخفى عليك شىء، إذ هنالك[2] علل كثيرة خفية تتماثل للظهور[3] وتكون ما تزال غير ماثلة فتظهر فى بضعة أيام، ولها علامات:

فإذا كانت فى وجنتيه صفرة وكان لون شفتيه متغيرا وكانتا ذا بلتين فذلك[4] دليل البواسير، وإذا كانت جفون العينين متورمة دائما فهو[5] دليل الاستسقاء، واحمرار العين وامتلاء عروق الجبهة دليل الصرع، ونتف الشعر وتحريك الأهداب وعض الشفة دليل الماليخوليا، واعوجاج عظم الأنف وعدم استوائه دليل الناسور، والشعر الشديد السواد بحيث يكون أشد سوادا فى موضع دون آخر دليل على أن شعره مصبوغ، وإذا رأيت كيا على الجسد فى موضع لا يكون موضع كى، فانظر حتى لا يكون

(١) الترجمة الحرفية: حاله.
(٢) الترجمة الحرفية: يكون.
(٣) الترجمة الحرفية: تقصد المجىء.
(٤) الترجمة الحرفية: يكون.
(٥) الترجمة الحرفية: يكون.

تحته برص، وصفار العين وامتقاع لون الوجه دليل اليرقان، وينبغى للغلام وقت الشراء أن تأخذه وتنيمه وتدلك كلا جانبيه، وتنظر عن كثب لترى أى ألم وورم فيه، فإذا كان فيه شيء فهو فى الكبد والطحال، فإذا تحسست هذه العلل الخفية، فتلمس الظاهرة أيضا، من رائحة الفم والأنف، وثقل السمع، وضعف النطق، وعدم استواء الكلام، والانحرف عن الجادة، وتصلب المفاصل، وصلابة أصول الأسنان، حتى لا يغدر بك، ثم إذا كنت قد رأيت كل هذا الذى ذكرناه، وصار معلوما لك فاشتر بالصلاح إذا اشتريت من الناس، ليكون فى بيتك بالصلاح أيضا، ولا تشتر ناطقا بالعربية ما وجدت أعجميا، لأنك تستطيع أن تربى الأعجمى على خلقك، ولا تستطيع ذلك مع الناطق بالعربية، ووقتما تكون الشهوه غالبة عليك فلا تأت بجارية أمامك، لأن غلبة الشهوة تحسن القبيح فى عينك، فسكن الشهوة أولا ثم باشر الشراء، ولا تشتر ذلك العبد الذى يكون معززا فى مكان آخر، لأنك إذا لم تعزه لا يرى لك منة عليه، أو يأبق، أو يطلب البيع، أو يصير عدوك فى الباطن، وإذا أعززته لا يعد ذلك منة منك، لأنه يكون قد رأى مثل ذلك فى مكان آخر، واشتر العبد من مكان يكون قد أسيء إليه فيه[1]، حتى يشكرك على القليل من حسن رعايتك له ويحبك، وهب للعبيد شيئا من وقت لآخر ولا تدعهم محتاجين دائما للدراهم فيذهبوا فى طلب الدرهم بالضرورة، واشتر العبد القيم، لأن جوهر كل شخص بمقدار قيمته، ولا تشتر ذلك العبد الذى كان له سادة كثيرون، لأن المرأة الكثيرة الأزواج والعبد الكثير السادة لا يُحمدان، واشتر ما تشتريه مطرد النساء، وإذا طلب العبد بيعه حقيقة فلا تعاند وبعه، بل بع وطلق كل عبد يطلب البيع، وكل امرأة تطلب الطلاق لأنك لا تهنأ بكليهما، وإذا تكاسل العبد يطلب البيع وكل امرأة تطلب الطلاق، لأنك لا تهنأ بكليهما، وإذا تكاسل العبد عمدا وقصر فى الخدمة قصدا لا سهوا وخطأ، فلا تصلحه قهرا، ولا تتوقع أن يصير جلدا وصالحا بأى حال، بعه سريعا فإنه يمكن إيقاظ النائم بصيحة، ولا يمكن إيقاظ الميت بصوت مائة بوق وطبل، ولا تجمع حولك العيال غير الصالحين فإن قلة العيال هى الغنى الثانى، وتعهد الخادم بحيث لا يهرب، وأحسن تعهد من تملك كما ينبغى، لأنك إذا كفيت شخصا واحدا فإنه يكون خيرا من شخصين غير مكتفيين، ولا تدع عبدك يتآخى فى البيت والجوارى يتآخين معا، لأن آفة ذلك تكون عظيمة، وضع العبء على العبد والحر بقدر طاقتهما، حتى لا يعصيان من عدم الطاقة، وجمل نفسك بالإنصاف لتكون من المتجملين، ويجب أن يعد العبد سيده أخاه وأخته وأمه وأباه، ولا تشتر عبد النخاس المحطم، لأن العبد يخاف النخاس كما يخاف الحمار البيطار، والعبد الذى يطلب البيع فى كل وقت وحال ولا يخشى من بيعه وشرائه فلا تعول عليه[2] لأنك لا تلقى منه الفلاح، فا ستبدله سريعا بآخر، واطلب كما ذكرت ليحصل المراد ولا تصير فى العناء.

(١) الترجمة الحرفية : فى ذلك البيت.

(٢) الترجمة الحرفية : لا تضع عليه قلبك.

الباب الرابع والعشرون

فى شراء البيت والضياع

أى بنى، اعلم أنه ينبغى أن تراعى حد الشرع إذا أردت أن تشترى ضيعة أو بيتا أو أى شىء تريد، وأن تشترى كل ما تشتريه فى وقت الكساد وبع كل ما تبيع فى وقت الرواج، واطلب الربح ولا تره عيبا فقد قيل: يجب التدلل إذا أردت الشراء. ولا تغفل عن المماكسة فإن المكاس نصف من التجارة، أما ما تشتريه فيجب شراؤه بمقياس الربح والخسارة، وإذا أردت ألا تفلس فلا تنفق من الربح غير المحقق، وإن شئت ألا تضر بمالك فاحترز من الربح الذى عاقبته الخسران، وإذا رغبت فى أن تكون ذا مال وفير وألا تفتقر فلا تكن حسودا، واصبر فى كل الأحوال، فإن الاصطبار تلو التعقل، ولا تغفل عن صلاح نفسك فى كل الأمور، فإن الغفلة تلو الحماقة، وإذا خفى عليك الأمر وانسد عليك باب الشغل، فتدارك الأمر سريعا[1]، واصبر حتى يتبين وجه العمل، لأنه لا يجود عمل قط بالتسرع. وإذا حضرت بقصد البيع والشراء وأردت أن تشترى بيتا فاشتره فى حى أهله مصلحون، ولا تشتره على حافة المدينة ولا تحت سورها، ولا تبتع بيتا خربا لرخصه، وانظر أولا إلى الجار فقد قيل: (الجار ثم الدار). ويقول بزرجمهر: أربعة أشياء هى البلاء الكبير: الجار السوء، والعيال الكثيرة، والمرأة المخالفة، وضيق ذات اليد. ولا تشتر البيت فى جوار العلويين والعلماء لأن رعاية حق حرمتهم شاقة، ولا تشتر فى جيرة الخدم، واجتهد فى أن تبتاع الدار فى حى لا يكونون أغنى منك، ولكن تخير الجار المصلح، وإذا اشتريت الدار فارع حق الجار وحرمته، فقد قيل: (الجار أحق). وأحسن العيش مع أهل الحى فى محلتك، واذهب للسؤال عن المرضى، وعز أرباب العزاء، واحضر جنائز الناس، ووافق فى كل شغل يكون للجار، فإذا كان فرح فافرح معه وأرسل إليه هدية على قدر طاقتك لتكون أكبر محتشمى الحى، واسأل عن صغار الحى ودللهم، وسل عن شيوخه واحترمهم، وأقم الجماعة فى مسجد الناحية، ولا تقصر فى إرسال الشمع والقنديل فى شهر رمضان، فإن الناس يرعون مع كل شخص ذلك المسلك الذى يراعيه مع الناس[2]، واعلم أن كل ما ينبغى للناس من خير

---

(١) زود بر سر رشته رو.

(٢) الترجمة الحرفية: فإن الناس يرعون مع كل شخص ذلك المسلك الذى يرعونه مع الناس. والجملة بهذا الوضع غير واضحة ولا تتسق مع ما قبلها ولعل هذا راجع إلى خطأ فى النسخ.

وشر يلقونه[1] من عملهم، فلا تعمل ما لا يليق عمله، ولا تقل ما لا يليق قوله، لأن كل شخص يعمل ما لا ينبغي عمله يرى ما لا تنبغي رؤياه، واجعل موطنك ما استطعت في المدن الكبيرة، وكن في تلك المدينة التي تكون أكثر ملاءمة لك، واشتر البيت بحيث يكون سطحك أعلى من سطح الآخرين حتى لا تقع عيون الناس على بيتك، ولكن جنّب الناس عناء نظراتك. وإذا اشتريت الضيعة فلا تشترها بغير جار ومعدن، واشتر كل ما تشتريه في عام الرخاء، ولا تشتر الضيعة ما لم تكن مقومة وبغير شبهة، واعتبر الضيعة مالا أمينا، أما إذا اشتريت الضيعة فكن دائما في فكر عمارتها، واعمل في كل يوم عمارة جديدة، لتجد دخلا جديدا في كل وقت، ولا تتقاعس البتة عن تعمير الضياع والعقار، لأن الضياع تعز بالدخل، وإذا جاز أن تكون بغير دخل فعد جميع الصحارى ضياعك كذلك؛ لأن قيمة رب القرية بالقرية والضياع، وقيمة الضياع بالدخل، ولا يمكن تحصيل الدخل بغير العمارة.



(١) الفعل في الأصل بالمفرد.

الباب الخامس والعشرون

في شراء الخيل

أي بني، إذا اشتريت الجواد فكن فطنا حتى لا يجوز عليك الخطأ، فإن جوهر الخيل والإنسان سواء، من جهة أن كل قيمة تقدرها للجواد الكريم والرجل الكريم جائزة، وكذلك كل ذم تستطيع ذمه للحصان الرديء والرجل الرديء، وقد قيل: إن الدنيا قائمة بالناس والناس بالحيوان وأكرم حيوان من الحيوانات هو الحصان؛ لأن تعهده من الرياسة، ومن المروءة أيضا. وفي المثل، أحسن رعاية الجواد والثوب ليحسنا رعايتك. ومعرفة جيد الخيل ورديئها، أصعب من معرفة جيد الناس ورديئهم؛ لأن معنى المرء موجود مع دعواه، ودعوى الحصان رؤيته، ولأجل أن تعرف المعنى انظر أولا إلى هيئته، لأن لأغلب الجياد الكريمة صورة حسنة، وللجياد الرديئة صورة رديئة، فينبغي أن تكون الأسنان متصلة ودقيقة وبيضاء، والشفة السفلى أطول من الشفة العليا، والأنف عاليا وواسعا ومسحوبا، وأن يكون عريض الجبهة، وأملس العذار، وطويل الأذن، وطرف أذنه مدببا ومرتفعا، وما بين الأذنين واسعا، ومسحوب الرقبة، ودقيق موضع الحزام وأصل العنق والأذن، غليظ الحارك، والقصبة العليا أقصر من السفلى، قصير الشعر، طويل الحافر وأسوده، مدور العقب، ومرتفع الظهر، قصير الخاصرة، واسع الصدر، مفتوح ما بين اليدين والقدمين، وذنبه كثيفا وطويلا، وطرف ذنبه دقيقا وقصيرا، وأسود الخصية والهدب والعين، فطنا في السير، مصقول المضرب، معلق الدبر، عريض الكفل، والجانبان الداخليان للفخذ ممتلئا اللحم وناميان معا، وإذا تحرك الرجل عليه يجب أن يتنبه لحركة الرجل، وهذه المزايا التي ذكرتها ينبغي أن تكون في كل حصان[1] على الإطلاق، وما يكون في حصان لا يكون في آخر، ويقال إن الكميت هو الأفضل من الألوان، والبلحي أيضا جيد وصبور في الحر والقر، وحمول للتعب، وإذا كانت الخصية وبين الفخذين والدبر والذيل واليدان والرجلان والصدر والناصية سوداء فهو حسن، والجواد الأصفر أيضا يستحسن أن يكون أصفر للغاية، وبوجهه دويرات كالدراهم، والصدر والناصية والذنب والخصية والدبر وبين الفخذين والعين وشفته هذه كلها تكون سوداء، والجواد الكميت[2] يجب أن

(١) الترجمة الحرفية: واحد.

(٢) سمند.

يكون هكذا، والوردى اللون يجب أن يكون لونا واحدا، ولا يضرب إلى البلقة أبدا، ويجب أن يكون الأدهم أسود وبراقا، ولا يجوز أن يكون أحمر العين لأن أكثر الجياد الحمراء العين معيبة بالجنون، والجواد الرمادى[١] الأسود القوائم يحسن أن يكون بتلك الصفة التي ذكرتها للأصفر، والجواد الأبلق غير محمود وخير أن لا يقتنى، ويكون فى الأغلب سيّئ الطبع، وما دمت عرفت محاسن الخيل فاعرف أيضا عيوبها:

قد يكون بالجواد عيب يضر بالعمل، ويكون قبيحا فى المنظر، ولكنه يكون صاحب نزو[٢]، ومن العيوب[٣] أن تكون العلل والطباع قبيحة بحيث يمكن إزالة بعض منها ولا يمكن إزالة البعض، ولكل عيب وعلة اسم يمكن معرفتها به كما سنذكر:

اعلم أن إحدى علل الخيل هى أن يكون أصم أبكم، والجواد الأصم الأبكم ثمنه زهيد جدا، وعلامته أنه إذا رأى فرسا لا يصهل ولو أدلى بذكره. والجواد الأعشى - يعنى الأعمى ليلا - وعلامته هى أنه لا يخاف ليلا من الشيء الذى تخاف منه الخيل ولا يجفل، ويذهب إلى كل مكان ردىء تسوقه إليه ولا يحترز. والجواد الأصم ردىء، وعلامته هى أنه لا يسمع صهيل الخيل ولا يرد الجواب، وتتهدل أذنه دائما. والجواد الأحول ردىء ويخطئ كثيرا، وعلامته هى أنه إذا سحبته بدهليز يقدم اليد اليسرى ولا يعرف صاحبه. والجواد الأعمش ردىء، لأنه لا يرى نهارا، وعلامته هى أن حدقة عينه سوداء تضرب إلى الخضرة، ويفتح عينه دائما بحيث لا يطرف هدبه، ويكون هذا فى عين واحدة ويجوز أن يكون فى العينين، ومهما يكن معيبا فى الظاهر فإن العرب والعجم قد اتفقوا على أنه مبارك، وهكذا سمعت أن دلدل[٤] قد كانت حولاء يعنى عوجاء العين، والأرجل هو ذاك الذى تكون رجل واحدة أو يد واحدة منه بيضاء، فإذا كانت الرجل واليد اليسرى بيضاوين يكون شؤما، والأزرق إذا كان أزرق بكلتا عينيه فيجوز، وإذا كان أزرق بعين واحدة فهو معيب، خاصة إذا كانت اليسرى. والمغرب يعنى الأبيض العين ردىء. والحصان الكميت الأبلق[٥] ردىء كذلك. والأقود - يعنى المستقيم الرقبة - ردىء أيضا، ولا ينظر إلى مثل هذا الحصان. والحصان الحمارى اللون أيضا ردىء من أجل أن كلتا رجليه معوجتان ويسمى بالفارسية - كمان بابه - أى مقوس الرجل ويقع كثيرا. والحصان القالع وهو ذاك الذى له شعر بأعلى كفله وحول حافره شؤم، وكذلك المهقوع وهو الذى يكون الشعر حول حافره وتحت نعله، وإذا كان فى كلا جنبيه فهو أشأم، ويكون شؤما أيضا أن يكون له شعر حول الرجل أعلى الحافر، أما بالجانب الداخلى والناحية الخارجية فجائز.

(١) ديزه.
(٢) كشن.
(٣) الترجمة الحرفية: يكون عيب.
(٤) بغلة على كرم الله وجهه.
(٥) بوزه.

والأسدق ـ يعنى ملتوى الحافر ـ ويقال له أيضا أحنف ردىء كذلك، وذاك الذى تكون يده أو رجله طويلة ردىء أيضا فى الهبوط والصعود ويقال له الأفرق. والأغزل أيضا ردىء. والمعقوف الذنب ويقال له أيضا الأكشف يعنى عورته ظاهرة، والكلبى الذنب رديئان[1] كذلك. والحصان الأفجع وهو ذاك الذى لا يستطيع وضع رجله على موضع يده ردىء أيضا. والأشهق وهو الذى له علة فى مفاصل يده ردىء كذلك لأنه يعرج دائما، وإذا كانت له علة فى مفاصل رجله يسمى الأفرن ويكون أيضا رديئا، ومانع الركاب والجموح والعاض وكثير الصهيل والضراط والرامح وذاك الذى يبطئ فى تبرز السرقين والذى يدلى بذكره كلها رديئة، والحصان الغرابى العين يكون أعشى.

حكاية

سمعت أن راعى قطيع أحمد فريغون ذهب إليه يوم النوروز بغير هدية نوروزية وقال أطال الله حياة مولاى، لم آت بهدية النوروز لأن عندى بشارة خير من الهدية، فقال أحمد فريغون: قل. فقال الراعى: لقد ولد قطيعك ليلة أمس ألف مهر غرابية العين، فأمر أحمد بضربه مائة عصا، وقال أية بشارة هذه التى أتيت بها إلى قائلا إنه ولد ألف مهر أعشى!

والآن ما دمت قلت هذا وعرفت علل الخيل فاعلم أن لكل منها اسم، مثل: أسار، وكفان، ودجلس، وفتق، وعلان، وسقيق، وجهر، وجمع، وناموره، وحلام، وبرص، وسرطان، ونملة، وملح، ونفخه، وقندان، ونقاق، وتبق، ومهبا، وجان، ورنوم، ومقل، وعضاض، وسمل سفتنى، وريوم، وسمار، وسمه، وبره، وهذه العلل التى ذكرتها، إذا فسرتها كلها تطول، وكل هذا الذى ذكرته عيب، وأسوأ من هذه العيوب الشيخوخة، لأنه مع هذه العيوب التى ذكرتها يمكن إنجاز عمل، وأما مع الشيخوخة فلا يمكن العمل، فاشتر الجواد الهيكل؛ لأن الرجل وإن كان بدينا ومنظرانيا يبدو ضئيلا على الحصان الحقير، واعلم أن عظام الأضلاع تكون فى الجانب الأيسر أكثر من الجانب الأيمن فى العدد، وإذا كان كل منهما متساويا مع الآخر فاشتر الحصان بأكثر مما يساوى فإنه لا يكون جواد قط خيرًا منه، وكل ما تشترى من ذوات الأربع والضياع فاشتره بحيث تصل إليك منافعه ما دمت حيا، وتصل من بعدك لأصحابك ووارثيك، وسيكون لك أخيرا من غير شك زوجة وأولاد كما يقولون: كل من هو رجل تكون قرينته امرأة.

---

(١) فى الأصل بالمفرد.

الباب السادس والعشرون

فى الزواج

أى بنى، إذا تزوجت المرأة فأحسن رعاية حرمتها، وإن يكن شىء عزيز فليس هناك أعز من المرأة والولد، ولا تضن بشىء على امرأتك وولدك، ولكن عن المرأة الصالحة والولد المطيع، وهذا أمر بيدك، كما قد ذكرت:

بيت

لم تربى الولد ولم تقتنى المرأة إذا لم يكن لك من كليهما نفع

أما إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة، وانظر فى أمرها ولا تكن فى رق جمال وجهها؛ فإنما تتخذ المعشوقة بسبب جمال الوجه، أما المرأة فيجب أن تكون طاهرة متدينة وربة بيت، ومحبة لزوجها، وحيية وتقية، وقصيرة اللسان واليد، ومحافظة على المال، لتكون صالحة. فقد قيل: إن المرأة الصالحة هى التى تكون متدبرة العواقب، ومهما تكن المرأة عطوفة وحسناء الوجه ومقبولة، فلا تضع[1] نفسك فى يدها كلية، ولا تكن تحت سلطانها، فقد قيل للإسكندر: لم لا تتزوج ابنة دارا، وهى حسناء جدا؟ فقال: إنه لقبيح أن تتغلب علينا امرأة وقد تغلبنا على أهل الدنيا. ولكن لا تتزوج امرأة أعلى منك مقاما، ويجب أن تتزوج العذراء، حتى لا يكون فى قلبها حب شخص آخر غير حبك وتتخيل أن كل الرجال على نمط واحد، فلا يقع طمعها على رجل آخر. وفر من يد المرأة الطويلة اللسان، فقد قيل: يفر العريس سريعا إذا لم تكن المرأة أمينة. ولا ينبغى أن تستولى على مالك ولا تترك لك أن تكون مالكا له، فتصير أنت المرأة وهى الرجل. وتزوج المرأة من العائلة الصالحة، فالمرأة يتزوجونها من أجل تدبير البيت لا من أجل التمتع، إذ يمكن شراء الجوارى بالسوق من أجل الشهوة، حيث لا إنفاق ولا كثير عناء، ويجب أن تكون الزوجة كاملة وبالغة وعاقلة، بحيث تكون قد رأت السيادة فى بيت أمها وأبيها، فإذا وجدت مثل هذه المرأة فلا تقصر فى طلبها وابذل الجهد حتى تتزوجها، واجتهد ألا تغيرها بأى وجه، فإن تُغر فخير ألا تتزوج لأن إغارة النساء تعليمهن الغواية، واعلم أن النساء كثيرا ما يهلكن الرجال غيرة، ويقدمن أنفسهن فداء لأقل شخص

---

(١) الترجمة الحرفية: تعطى.

ولا يخشين الغيرة والحمية ، أما إذا لم تغر المرأة وأحسنت رعايتها ولم تضن عليها بما يكون قد أعطاه لك الحق تعالى فإنها تكون أشفق عليك من الأم والأب ، فلا تحب نفسك أكثر منها . وإذا أغرتها فإنها تكون أعدى من ألف عدو ، ويمكن الحذر من العدو الأجنبى ولا يمكن ذلك منها ، وإذا تزوجت المرأة وأحببتها كثيرا فلا تصاحبها كل ليلة مهما تكن مولعا بها ، وصاحبها بين حين وآخر لتتخيل أن كل شخص هكذا ، حتى إذا ما كان لك عذر وقتا ما أو اتفق لك سفر تصير هذه المرأة من أجلك ، لأنك إذا اعتدت كل ليلة مثل هذه العادة فإنها ترغب فيها كذلك ويعز عليها الصبر ، ولا تأمن المرأة على أى رجل مهما يكن مسنا ودميما ، ولا تجعل لأى خادم سبيلا إلى الحريم مهما يكن أسود وعجوزا وقبيحا ، وارع شرط الغيرة ، ولا تعد الرجل الذى لا يغار رجلا ، لأن كل من لا غيرة له لا دين له ، وإذا رعيت امرأتك على هذا الموجب إن رزقك الله عز وجل ولدا فاهتم بتربيته .



الباب السابع العشرون

فى تربية الولد

أى بنى، إذا رزقت ولدا فيجب أولا أن تضع له اسما حسنا، لأنه من جملة حق الأبناء على الآباء أن يسموهم بأسماء حسنة، وثانيا أن تستودع الولد المرضعات العاقلات العطوفات، وأن تختنه فى وقت الختان، ويلزم أن تولم بحسب طاقتك وليمة ذات رونق وبهجة فى ذلك الختان، ثم تعلمه القرآن ليكون حافظا، وإذا كبر تعلمه علم السلاح والفروسية، وحفظ السلاح وطريقة ذلك ليعرف كيف ينبغى استعمال كل سلاح، وإذا فرغ من السلاح فعلمه السباحة، كما أننى عندما بلغت العاشرة كان لنا حاجب يقال له منظر، وكان يعرف ترويض الخيل والفروسية جيدا وكان لنا خادم حبشى اسمه ريحان، وهو أيضا كان يعرف الفنون جيدا، فاستودعنى أبى إياهما ليعلمانى الفروسية ورمى الحربة والرماية والطعان، وعلمانى ضرب الصولجان والطبطاب والرمى بالقوس وكل ما كان من أدب وفن، فذهب منظر الحاجب وريحان إلى الأمير وقالا: أى مولانا، إن الأمير تعلم كل ما كنا نعرف، فليأمر مولانا كى يعرضه عليه غدا بالمصطاد، فقال أبى: حسنا فليأت، فذهبت فى اليوم التالى وعرضت عليه ما عرفت، فخلع أبى عليهما وقال: إن كل ما تعلمه ولدى هذا حسن، ولكن يوجد فن خير من هذا لم يتعلمه، قالا: أى فن ذلك؟ فقال أبى: كل ما يعرفه من هذه من معنى العلم والفضل، هذا كله مما إذا لم يستطعه يقوم به شخص آخر من أجله، أما ذلك الفن الذى يلزمه القيام به من أجل نفسه، ولا يقوم به أى شخص من أجله، ولا يستطيع عمله فلم تعلموه له، وذلك هو السباحة التى لا يستطيع أحد غيره القيام بها من أجله، فأمر بأن يحضروا ملاحين جلدين، وعهد بى إليهما حتى علمانى السباحة كرها لا طبعا، ولكنى تعلمتها جيدا، إلى أن اتفق لى فى تلك السنة أن ذهبت للحج عن طريق الشام، فقُطع علينا الطريق على باب الموصل وسُلبت القافلة، ولما كان العرب كثيرين فلم تكن لنا بهم طاقة، وفى الجملة جئت إلى الموصل عاريا، ولم أعرف أية وسيلة، وركبت فى سفينة بدجلة وذهبت إلى بغداد، وحسن حالى هناك وأكرمنى الله تعالى بالتوفيق للحج، وغرضى أنه قبل أن يوصل إلى بغداد يوجد مكان مخوف ودوامة صعبة، ويلزم ملاح خبير ليعبر من هنالك، وإذا لم يكن يعرف كيف يعبر هنالك وكيف يجب العمل تهلك السفينة، وكنا نحن بضعة أشخاص فى تلك السفينة فوصلنا هنالك، ولم يكن ذلك الملاح أستاذا ولم يعرف كيف يجب المسير، فألقى بالسفينة فى وسط الدوامة خطأ، وهمت السفينة أن تغرق، فألقينا أنا وبضعة رجال بصريين

وعبد من عبيدي اسمه زيرك بأنفسنا من السفينة في الماء، وخرجنا سابحين، وهؤلاء الآخرون هلكوا جميعا، فزاد حب أبي في قلبي من بعد ذلك، وتصدقت من أجله، وترحمت عليه كثيرا، وعلمت أن ذلك الشيخ كان قد رأى مثل هذا اليوم من قبل فعلمني السباحة، فينبغي أن تعلم أبناءك ما يكون جديرا بالتعلم من الفضل والفن، لتكون قد أديت حق الأبوة وشفقة الآباء، لأنه لا يمكن الأمان من حوادث الأيام، ولا يمكن معرفة ما يجري على رءوس العباد من خير وشر، وكل فن وفضل ينفعه يوما ما، فلا ينبغي أن يقصر المرء في فضل نفسه وتأديب أولاده، ويجب أن تكون حريصا في تعلم العلم وكل علم تُعلمه، وإذا ضرب المعلمون ابنك من أجل التعليم فلا تشفق عليه، ودعهم ليضربوه، لأن الصبي يتعلم العلم والفضل والأدب بالعصا لا بالطبع، أما إذا تأتَّى من الصبي سوء أدب وغضبت منه فلا تضربه بيدك، وخوفه بالمعلمين ومرهم ليؤدبوه، حتى لا يبقى في قلبه بغضك، أما أنت فكن دائما مهيبا عليه لكيلا يحتقرك ويخشاك دائما، ولا تضن عليه بالقدر الذي يلزمه من المال حتى لا يطلب موتك من أجل المال، ولا تقصر في تعليمه الأدب بأنواعه، وإذا كان الولد تعسا وسيِّئ الحظ ـ نعوذ بالله ـ تكون قد أديت ما كان من شرط الأبوة، ولا تكون العهدة في عنقك، وإذا كان رشيدا وحسن الحظ فإنه ينبغي أن يتعلم ويجرب ويصل إلى الكمال من نظر الفطانة وتجربة الأيام، فقد قيل: (من لم يؤدبه الأبوان أدبه الملوان). أما أنت فارغ شرط الأبوة، ويعيش هو كما يكون قد قدر عليه، لأن المرء حينما يأتي من العدم إلى الوجود، يوجد معه خلقه وسيرته، وإذ ينشأ وينمو يوما فيوما يتربى أيضا خلقه وسيرته كلما كبر حتى يصل إلى الكمال فيكون قد ظهر تمام سعده وإدباره، ولكن لا تضن عليه أنت بنصيبك، وليس لأبناء الخاصة ميراث خير من الفضل والأدب، وليس لأبناء العوام خير من الحرفة والأدب، ولو أن الحرفة أيضا من عمل أبناء المحتشمين إلا أن الأدب شيء والحرفة شيء آخر، أما الحرفة عندنا فهي خير فضيلة من وجه الحقيقة، وإذا كان لأبناء الخواص وذوي الأصل مائة حرفة ولا يتكسبون منها لا يكون ذلك عيبا، بل يكون فضلا، والصنعة وممارسة الفن يثمران يوما ما ولا يضيعان.

حكاية

لما غادر كَشتاسف مقره ـ وتلك القصة طويلة ـ أما المقصود فهو أنه نزل ببلاد الروم وذهب إلى مدينة القسطنطينية، ولم يكن معه من مال الدنيا شيء، وكان يرى العار في السؤال وطلب الطعام من أحد، ويعده عيبا، إلا أنه في صغره كان قد رأى في دار أبيه الحدادين حيث كانوا يعملون السكاكين والسيوف والسنان، وبحكم الطالع كان قد وقع نظره على تلك الصناعة، فكان يحوم حولها كل يوم ويرى ويتعلم شيئا منها، وفي ذلك اليوم الذي دخل فيه بلاد الروم، لم يكن يعرف حيلة قط، فذهب إلى دكان حداد وقال إنني أعرف شيئا في هذه الصناعة فاستأجروه وأجروه بقدر ما كان يعرف فيها،

وكان ينفق ذلك فى معاشه ولم يمد يد السؤال لإنسان، حتى ذلك الوقت الذى وصل فيه إلى وطنه، وعاد على رأس مملكته وعندئذ أمر أن ينادي بأن لا يمنع شخص قط ابنه عن تعلم الصناعة.

ولا يرى ذلك عيبا ففى أوقات كثيرة لا ينفع الرجل الإباء والشجاعة، وكل علم تتعلمه ينفع يوما ما، ومن بعد ذلك صار ذلك الرسم فى العجم، ولم يكن محتشم قط لا يعرف صنعة، وكان يعمل ذلك بالعادة ولو لم تكن له بها حاجة، فتعلم كل ما يمكنك تعلمه، فإن منافعه تعود عليك، أما إذا بلغ الصبى فتأمله لترى ما إذا كان صالحا وله ميل للزواج، وتعرف أنه يستطيع القيام بعمل ويمكنه الحصول منه على شيء، وتعرف فيه التوفيق، ودبر زواجه، وزوجه لتكون قد أديت هذا الحق أيضا، ولا تصاهر الأقارب وتزوج من الغرباء، فإذا صاهرت أقرباءك فهم مثل لحمك، فتزوج من قبيلة أخرى حتى تكون قد جعلت الغريب قريبا، وتصير القوة الواحدة قوتين، ويكونوا من كلا الجانبين معينين لك، وإذا عرفت أن ابنك ليس له ميل للزواج والتوفيق فلا تلق بابنة مسلم فى البلاء لأن كلاً منهما يرى من الآخر العناء، فدعه حتى يكبر ويفعل ما يشاء، وإن تكن لك بنت فاعهد بها إلى المرضعات المشفقات، وأحسن تربيتها، وعندما تكبر سلمها للمعلم ليعلمها أحكام الشريعة وشرط الفرائض، ولكن لا تعلمها الكتابة فتكون الآفة الكبرى، وإذا كبرت فاجتهد أن تزوجها سريعا لأن البنت من الخير ألا تكون، وإذا كانت فمن الخير أن تكون مع الزوج أو فى القبر، كما قد قال صاحب الشريعة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم (دفن البنات من المكرمات). أما ما دامت فى بيتك فكن رحيما بها لأن البنات أسيرات الآباء والأمهات، وإذا لم يكن للبنين أم وأب فإنهم ما داموا بنين يستطيعون رعاية أنفسهم والقيام بعمل من أى وجه يكون، أما البنت فمسكينة ولا تستطيع القيام بأى عمل، فكل ما تستطيعه اجعله جهاز ابنتك وانجز عملها، واربطها فى عنق شخص، لتتخلص من غمها، أما إذا كانت ابنتك بكرا فاطلب لها عروسا بكرا كذلك، حتى يقيد الزوج قلبه بالزوجة كما تقيد الزوجة قلبها بالزوج ولا يرغب فى أحد سواها، لأنه لا يكون قد عرف غيرها.

حكاية

هكذا سمعت أنه قد جيء بابنة ملك العجم أسيرة من بلاد العجم إلى بلاد العرب، فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن تباع، فلما حملوها إلى السوق وصل هنالك أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وقال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: (ليس البيع على أبناء الملوك). فلما أورد هذا الخبر سقط البيع عن الأميرة - شهر بانو - وأقاموها عند سلمان الفارسى ليزوجوها، فلما عرضوا عليها حديث الزواج قالت - شهر بانو - ما لم أر الرجل بعينى فلا أريده، فأجلسونى على منظر ومرروا على سادات العرب، فمن يكن موضع اختيارى فهو زوجى، فأجلسوها على منظر بدار سلمان الفارسى وجلس سلمان دونها وكان يعرفها بهؤلاء القوم ويقول هذا فلان وذاك فلان، وكانت هى تقول عن كل شخص شيئا ولا تقبله، حتى مر عليها أمير المؤمنين وإمام المتقين على بن أبى طالب

رضى الله عنه فسألت من هذا؟ فقالوا أمير المؤمنين على بن عم حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقالت شهر بانو ما أحسنه شريفا وكفؤاً إلى، ولكن يعرونى الخجل فى الآخرة من فاطمة الزهراء فلا أريده من هذا الوجه، ثم مر الحسن بن على، فلما علمت بنسبه وسيرته كذلك قالت إنه يليق بى، ولكنى سمعت أنه يتزوج كثيرا، إلى أن مر الحسين بن على فلما سألت عن حاله قالت ينبغى أن يكون هو زوجى، لأنى لم أتزوج أبدا وهو لما يتزوج أيضا فنحن يليق كل منا بالآخر، وفى الجملة زوجوها من الحسين بن على.

ولكن يجب أن يكون العروس حسن الوجه لأن البنت الحسناء لا تعطى قلبها للزوج الدميم ومن هنالك تحصل الفضيحة؛ لأنها تعشق شخصا آخر يكون وسيما ويوجد العار، فينبغى أن يكون صهرك جميل الوجه، طاهر الدين ومن أصل طاهر، وصالحا، ومن سلالة الأكابر، ويجب أن يكون أقل منك، ليفخر هو بك لا أنت به، وحتى تعيش ابنتك فى الراحة والعز الكامل، وإذا كان كما ذكرت، فلا تطلب منه شيئا، ولا تكن بائع البنت فإنه هو نفسه لايتخلى عن مروءته، فابذل ما تملك واجتهد أن لا تبقى البنت فى بيتك وزوجها سريعا، وخلص نفسك من المحنة بأسرع ما يكون، واسد إلى جميع أصدقائك عين هذه النصيحة فإن فى هذا فوائد كثيرة.



الباب الثامن والعشرون

فى الصداقة واتخاذ الأصدقاء

اعلم يا بنى أنه لا بد للناس من الأصدقاء ما داموا أحياء، لأنه إذا لم يكن للمرء أخ فذلك خير من أن يكون بغير صديق، سئل حكيم: الصديق خير أم الأخ؟ فقال الأفضل أن يكون الأخ صديقا أيضا، فتدبر أمر الأصدقاء بتجديد رسم المهاداة وإسداء المروءة، لأن كل من لا يبالى بالأصدقاء، يبقى دائما بغير صديق، فتعود أن تصادق كل إنسان، إذ بالأصدقاء الكثيرين تستتر عُيوب المرء وتظهر فضائله، وإذا اتخذت أصدقاء جددا فلا تول الأصدقاء القدامى ظهرك لتكون دائما كثير الأصدقاء، فقد قيل: إن الصديق الكريم كنز عظيم. وفكر أيضا فى الناس الذين يسيرون معك بطريق الصداقة ويكونون نصف أصدقاء، فعاملهم بالحسنى والوفاق، واتفق معهم وانسجم فى كل سراء وضراء حتى إذا ما رأوا جميعا منك المروءة صاروا أصدقاء مخلصين، لأنه لما سئل الإسكندر: بأية خصلة امتلكت هذه الممالك العديدة فى هذه الأيام القليلة؟ قال: بامتلاك الأعداء بالتلطف، وبجمع الأصدقاء بالتعهد. وأحبب الأصدقاء الذين يحبون أصدقاءك، واحذر من الأصدقاء الذين يحبون عدوك، لأنه يحتمل أن تزيد صداقتهم لعدوك ذاك عن صداقتهم لك، فلا يخشون من الإساءة إليك من قبل عدوك، واحترز من الصديق الذى يجتنبك بغير عذر وحجة، فلا تعتمد على صداقته، ولا تحسبن فى الدنيا شخصا لا عيب فيه، ولكن التزم صداقة الصديق الفاضل؛ لأن الفاضل. يكون قليل العيب، ولا تتخذ صديقا غير فاضل فإن الفلاح لا يتأتى من الصديق غير الفاضل. وعد أصدقاء الكأس من جملة الندماء لا من جملة الأصدقاء، لأن هؤلاء أصدقاء كأسك لا أصدقاؤك، وصادق الأخيار والأشرار، وكن صديقا لكلا الفريقين، فكن مع فريق الأخيار صديقا بقلبك وأظهر الصداقة للأشرار بلسانك، لتحصل لك صداقة الفريقين، لأن حاجات الناس ليست كلها لدى الأخيار، فقد يكون وقت تقضى فيه حاجة بواسطة الأشرار كذلك، إذ إن كل عمل لا يتأتى من يد كل شخص[1]، ولو أن اتصالك بالأشرار لا يروق الأخيار، ولا يروق الأشرار اتصالك بالأخيار، ولكن عش مع كلا الفريقين بحيث لا تتأذى منك قلوب الفريق الآخر، ولا تتصل اتصالا كليا بفريق واحد بحيث يعاديك الفريق الثانى، وسر بطريق الحكمة والعلم وارع الجانب لتسلم، ولكن لا تصادق الحمقى

(١) الترجمة الحرفية: آخر.

أبدا، لأن الصديق الأحمق يعمل بجهله ما لا يعمله العدو العاقل، وصادق القوم الأفاضل طيبى العهد حسنى المحضر، لتكون أنت أيضا معروفا بتلك الفضائل وممدوحا بها، لأن هؤلاء الأصدقاء يعرفون بها ويمدحون، واعتبر الوحدة خيرا من جليس السوء، كما قيل:

رباعى

أيها القلب ذهبت كما يذهب فى الصحراء الوحش، ما اغتممت من أجلى ولا من أجل نفسك

كنت جليس السوء وذهابك خير، الوحدة خير بكثير من جليس السوء

* * *

وينبغى ألا تضيع حق الإخوان وحرمتهم عندك، لكيلا تستحق الملامة، فقد قيل: فريقان من الناس يستحقان الملامة: أحدهما مضيع حق الإخوان، والآخر غير المعترف بالصنيع الجميل.

واعلم أنه يمكن معرفة أن المرء يليق بالصداقة أولا بشيئين: أحدهما أنه عندما يكون صديقه قد صار معسرا لا يضن عليه بماله، بحسب طاقته، ولا يتحول عنه فى وقت العسرة، وإذا ارتحل صديق من أصدقائه من الدنيا يتفقد أبناءه ويسأل عنهم ويشفق عليهم[1]، ويذهب فى كل وقت لزيارة تربة ذلك الصديق لأنها ليست تربة على أى حال بل هى صديقه، لأن التربة قالب صديقه.

حكاية

كذلك سمعت أنهم كانوا قد ذهبوا بسقراط ليقتلوه، وكانوا يعذبونه قائلين: اعبد الصنم، فكان سقراط يقول: معاذ الله أن أعبد صنع الصانع، وكان قوم من تلاميذه يسيرون معه وينوحون، وسألوه قائلين: أيها الحكيم، الآن وقد وطنت قلبك على القتل فأوصنا أين ندفنك؟ فابتسم وقال: إذا كان الأمر بحيث تجدوننى ثانيا فادفنونى حيث تشاءون؛ يعنى أنه لست أنا بل هو قالبى.

وفضلا عن ذلك الزم القصد فى صداقة الناس ولا تربط بالأمل قلبك بالأصدقاء، ولا تقل إن لى أصدقاء، وكن صديق خاصتك، وانظر إلى خلفك وأمامك، ولا تغفل عن نفسك بالاعتماد على الأصدقاء؛ لأنه إذا كان لك ألف صديق فإنه لا يكون شخص أكثر صداقة منك لنفسك، وجرب الصديق فى وقت الضيق لأن كل شخص يحبك فى وقت السعة، وكن مع الأصدقاء فى وقت العتاب كما تكون فى وقت الرضا، وفى الجملة أحبب ذاك الذى يحبك، ولا تفش للصديق شيئا من أسرارك، لأنه إذا حدث بينكما فى وقت ما خصام وانتهى بالعداوة فإنه يضرك ولا يفيد الندم بعد ذلك، وإذا كنت فقيرا فلا تطلب الصديق الغنى، لأنه لا يصادق الفقير أحد وخاصة الأغنياء، فاختر

---

(١) الترجمة الحرفية: ويشفق فى حقهم.

الصديق فى درجتك ، وإذا كنت غنيا ولك صديق فقير فجائز ، أما فى صداقة الناس فثبت قلبك ، وكن مستقيما فى ذلك لتستقيم أمورك ، وإذا انتزع صديق قلبه منك بغير جريرة وآلمك ، فلا تنشغل باسترجاعه فإنه لا يستأهل هذا ، وذلك الشخص الذى له هذه العادة لا تربط به قلبك ، وابتعد عن الصديق الطامع ، لأنه يصادقك للطمع ، ولا تصادق الرجل الحقود أبدا فإنه لا يليق بالصداقة ، لأن الحقد لا يفارق قلب الحقود أبدا ، ولما كان دائما مؤذيا وحقودا فإن صداقتك لا تكون فى قلبه أبدا ، وإذا عرفت حال وحكم اتخاذ الصديق فاعرف الآن حال العدو وأمره ، واستمع جيدا وتذكر واعمل بذلك لتجد الفلاح .



الباب التاسع والعشرون

فى الحذر من العدو

اجتهد يا بنى ألا تعادى، فإن يكن هنالك عدو فلا تخف، ولا تكن حرج القلب فكل من ليس له عدو يكون أمنية العدو، ولكن لا تكن غافلا عن عمله فى الخفاء والعلن، ولا تتقاعس عن إساءته، واشتغل دائما بتدبير المكر به والإساءة إليه، ولا تأمن بأى حال من حيلته ومكره، واستطلع حال العدو ورأيه، ونبه إليه سمعك وعقلك، لتكون قد سددت عليك باب الآفة والبلاء، ولا تظهر العداوة للعدو ما لم يتبين وجه الأمر تماما، وأظهر نفسك للعدو كبيرا، والتزم الغيرة والحمية مهما تكن عاجزا، ولا تظهر نفسك من العاجزين، ولا تعتمد على كلام العدو الطيب وصنيعه الجميل، ولا تثق بالعدو ولا تنزل البشر برسنه، وإذا لقيت السكر من العدو فعده سُمّا، واخش العدو القوى دائما، فقد قيل: يجب الحذر من شخصين: أحدهما العدو القوى والآخر الصديق الغدار. ولا تحتقر فى الظاهر العدو الحقير، ولا تقل من يكون هو، وعاد العدو الضعيف كما تعادى العدو القوى.

حكاية

سمعت أنه كان بخراسان عيار اسمه مهذب، وكان محتشما ورجلا طيبا ومعروفا، وذات يوم كان يسير فى الطريق فوطئت رجله قشرة شمام فزلقت قدمه ووقع، فسل المدية وطعن بها قشرة الشمام، فقال له خدامه: أيها الرئيس أنت رجل محتشم وعيار ألا يخجلك أن تطعن قشرة الشمام بالسكين؟ فأجاب مهذب: إن قشرة الشمامة أوقعتنى فهى عدو ولا يجوز احتقار العدو، وإن يكن حقيرا، فكل من يحتقر العدو سرعان ما يصير حقيرا.

فكن دائما فى تدبير هلاك العدو، من قبل أن يجتهد فى هلاكك، أما الشخص الذى تعاديه فلا تحقره إذا قهرته، وحذار من أن تظهر عدوك عاجزا، فلا يكون لك فخر كثير، ألا ترى أنه عندما يقوم ملك بفتح فإنه وإن لم يكن ذلك الخصم كبيرا فإن الكتاب عندما يكتبون كتاب الفتح يسمون الخصم أولا قادرا ويشبهونه بأسد وتنين، ويطرون عساكر الخصم كثيرا، ويمدحون بكل ما يمكن من المدح فرسانه ومشاته، ونضال الجند وقلب وجناح قادة جيش العدو ثم يقولون: إن جيشا بهذه العظمة عندما وصل الملك فلان هزمه كله بحملة واحدة وأباده، ليكونوا قد وصفوا مخدومهم وأظهروا قوة جيشه.

حكاية

سمعت يا بني أنه كان بمدينة الري في وقت ما امرأة عجوز، وكانت ابنة ملك وعفيفة وزاهدة وابنة عم أمي وزوجة فخر الدولة، ولما توفي[1] فخر الدولة بقي له ولد صغير لقبوه بمجد الدولة، وخلعوا عليه لقب الملكية، وكانت أمه تسوس الملك، ولما كبر مجد الدولة، جاء بئس الخلف ولم يكن أهلا للملك، وكان يلهو في البيت مع الجواري وملكت أمه تسعا وثلاثين سنة، ومقصودي من هذه الحكاية هو أن جدك السلطان محمود أرسل إليها رسولا وقال يجب أن تجعلي الخطبة والسكة باسمي وإلا فأجيء وآخذ الري وأبيدك، فلما جاء الرسول وأدى الرسالة، قالت السيدة: قل للسلطان محمود إني كنت أفكر أنه ما دام زوجي فخر الدولة حيا يتراءى لك أن تقصد الري، فلما تلقى أمر ربه، وصار إلي الأمر زال من خاطري هذا الفكر، وقلت إن السلطان محمود ملك عاقل، ويعرف أنه لا ينبغي لملك مثله المجيء لحرب امرأة، لأن الأسد يكون ذكرا ويكون أنثى أيضا، وإن يأت فإن الحق تعالى عالم بأني لن أفر وأني ثابتة للحرب، لأن الأمر لا يخرج عن وجهين: إما أن يكون لي الظفر أو تقع علي الهزيمة، فإن يكن لي الظفر وأهزمك فإني أكتب لجميع العالم أني كسرت السلطان محمود، أو يكون لي الفخر وتكون أنت السلطان الذي كسر أكثر من مائة ملك وأهزمك أنا الآن، ويشيع في العالم أن امرأة قهرت السلطان محمود وكسرته ويبطل اسمك، ولا يكون عار قط أسوأ لك من ذلك، إذ يقولون إن امرأة كسرت السلطان محمود، وإن يكن لك الظفر وتكسرني لن يكون لك فخر وصيت قط، ولا ينشدون شعر الفتح في هذا، لأنه لا يحصل صيت وفخر من كسر امرأة، فلما أبلغوا السلطان محمود، هذا الكلام وهذه الرسالة لم يقصد الري مرة أخرى طول عمره، وتعطل ذلك العزم بهذه الكلمة الواحدة.

فلا تحقر عدوك كثيرا، ولا تكن آمنا من العدو بأي حال، وخف على الأكثر من العدو الداخلي، لأنه لا يتفق للأجنبي في أمرك ذلك الاطلاع والنظر اللذان يتفقان له، وعندما ينقطع عنك لا يخلو قلبه أبدا من الحقد عليك ويستفسر عن أحوالك، ولا يعرف العدو الخارجي ما يعرفه هو، فلا تصادق أي عدو صداقة خالصة، ولكن تبدي صداقة مجازية، فلعل ذلك المجازي يصير حقيقة، لأن الصداقة تنشأ من العداوة، والعداوة تنشأ من الصداقة، واجتهد أن يكون أصدقاؤك أضعاف أعدائك، وكن كثير الصديق قليل العدو، ولا تغفل أيضا عن عدو واحد بأمل ألف صديق، لأن الألف صديق يغفلون عن رعايتك ولا يغفل ذلك العدو عن عداوتك، ولا تبدأ العدو الذي يكون أقوى منك بالعداوة، ولا تتقاعس عن أن تشتد على ذاك الذي يكون أضعف منك، ولكن إذا طلب عدو منك الأمان فأعطه الأمان، ولو كان عدوا قاسيا وكان مسيئا إليك، وعد ذلك غنيمة كبرى فقد قيل: إن العدو المستأمن والعدو الهارب والعدو الميت سواء، ولكن إذا وجدته ذليلا فلا تقعد عنه

(١) الترجمة الحرفية: تلقى الأمر.

كلية، وإذا هلك عدو على يديك يحق لك إذا ابتهجت، أما إذا مات حتف أنفه فلا تسر كثيرا، وابتهج حين تتحقق أنك لن تموت، ولو أن الحكماء قالوا: إن كل من يعيش أكثر من عدوه بنفس واحد ينبغي أن يعتبر ذلك غنيمة، أما إذا عرفنا أننا جميعا سنموت فلا ينبغي أن تسر كثيرا كما قلت:

رباعي

إذا أصعد الموت من شانئك الدخان، فلم تسر سريعا بذاك الدخان؟

ولما كان الموت سبيلك أيضا، فلم يلزم أن تبتهج بموت الناس؟

* * *

سمعت أن ذا القرنين طاف حول العالم وسخره كله له ورجع وقصد دياره، فلما بلغ دامغان أوصى قائلا: ضعوني في تابوت واجعلوا للتابوت ثقبا، وأخرجوا يدي من ذلك الثقب مبسوطتي الكفين، واحملوني هكذا ليرى الناس أني امتلكت كل العالم وهأنذا أذهب صفر اليدين، ثم قال: قولوا لأمي إذا أردت أن ترضى عنك روحي فاحزني عليّ مع من لم يكن قد مات له عزيز.

فيا بني اقتل بقدمك كل من تلقيه بيدك، لأن الحبل ما دمت تفتله بحد ومقدار تندمج طياته الواحدة في الأخرى وعندما تزيد فتله يتقطع بعضه من بعض، فارع حد الأمور فإن الاعتدال سواء أكان في الصداقة أو العداوة جزء من العقل الكلي، وكن حمولا مع السفهاء ولكن كن متمردا مع المتمردين، وارع طريق المروءة في كل أمر تكون، وأوجب على نفسك كظم الغيظ في وقت الغضب، واعرف قدر نفسك، واعتبر تحمل البارد والحار من الناس عارا، لأن من لا يعرف قدر نفسه يكون في رجولته نقصان، وتحدث بأناة مع الصديق والعدو، وكن معسول الكلام فإن الكلام المعسول سحر ثان، وتوقع جواب كل ما تقول من خير وشر، ولا تُسمع أحدا كل ما لا تريد أن تسمعه، وكل ما لا تستطيع قوله أمام الناس لا تقله من ورائهم، ولا تهدد الناس بالوقاحة، ولا تفخر بعمل لم يعمل، ولا تقل إني أعمل هكذا فقد قلت:

رباعي

أيها الصنم[1] أخرجت حبك من قلبي، وجعلت جبل غمك ذاك كالصحراء

لا أقول لك اليوم كيف سأعمل، فغدا تعرف إذ أقول لك كيف فعلت

* * *

واعرف العمل أكثر من الكلام، أما لسانك فلا تُطله على من إذا أراد استطاع أن يطلق عليك

(١) أيها الحبيب أخرجت حبك من قلبي وهدمت ما كان متراكما فيه من تباريح العشق كالجبل وسويته بالأرض.

لسانه، ولا تكن أبدا ذا وجهين، وابتعد عن ذوى الوجهين، ولا تخف من التنين النافث، وخف من النمام، لأن ما يفتقه في ساعة لا يمكن رتقه في سنة، يقول الحكيم : اعمل بعشر خصال لتنجو من بلايا كثيرة : أولا لا تحارب شخصا أقوى منك ولو كنت محتشما وعظيما، ولا تلج مع من يكون حاد الطبع، ولا تصحب البخلاء ولا تناظر الجهلاء، ولا تشرب مع الشخص الغيور وكذلك المعربد، ولا تجالس النساء كثيرا، ولا تفش سرك لأحد حتى لا تذهب بماء كبريائك وحشمتك، وإذا أخذ عليك شخص عيبا، فاجتهد أن تبعد ذلك الشيء عن نفسك، ولا تحمل نفسك على التكلف حتى لا تهبط بغير تكلف، ولا تثن كثيرا على أى شخص بحيث إذا ما اقتضت حاجة أن تذمه وقتا ما لا تستطيع الذم، ولا تذم كثيرا أيضا بحيث إذا اقتضت الحاجة أن تمدح لا تستطيع المدح، وكل من يتم له أمر بدونك لا تخوفه بغضبك وعتابك لأن كل من يستغنى عنك لا يخاف من غضبك وعتبك، وإذا خوفت من لا يخاف منك تكون قد هجوت نفسك، وكل من لا يتم له أمر بدونك لا تستذله كلية، ولا تتجبر عليه، ولا تضطهد من يكون حسودا، ولا تستعد عليه غضب الآخرين، وإذا أذنب فاصفح عنه، ولا تتلمس الأخطاء لمن هم دونك، لتسود عليهم ولا ينفروا منك، وأصلح من شأن أتباعك لأنهم ضياعك، فإذا عمرت ضياعك، يصلح أمرك، وإذا خربت الضياع، تصير مملقا معدما، والخادم المطيع المخطئ خير من المصيب العاصي، وإذا أمرت بشغل، فلا تأمر به شخصين ليبتعد عنه الخلل، فقد قيل : لا يغلي القدر بشخصين كما أن البيت لا يكنس بسيدتين، وقد قال الفرخي :

بيت

البيت الذي فيه سيدتان　　ترى فيه التراب دائما إلى الركبتين[1]

وإذا كنت في عمل فلا تطلب مساعدا وشريكا حتى لا يدخله خلل، وتكون دائما أحمر الوجه أمام سيدك[2]، أما مع الصديق والعدو فكن كريما، ولا تغضب بشدة لأخطاء الناس، ولا تلف كل كلمة على أصبعك[3]، ولا تصمم على العقوبة بكل حق وباطل، وارع طريق الكرم لتكون ممدوحا في كل زمان.

---

(١) خانه باشد دررودو كدبانو　　خاك بينى هميشه تازانو

(٢) أي : تعلو وجهك حمرة الخجل أمام سيدك.

(٣) لا تشهر بكل كلمة.

الباب الثلاثون

فى العفو والعقوبة

أى بنى، لا تعتبر الناس مستوجبى العقوبة على كل ذنب، وإذا أذنب إنسان فالتمس من نفسك فى سريرتك عذرا لذنبه، لأنه آدمى كذلك وأول ذنب ظهر فى الوجود كان من أبينا آدم عليه السلام.

رباعى

إذا انعـزلت يومـا عن خـدمـتك، ندم قلبى على ذلك مـائة مـرة

أيها الحبيب لا تتحول عن عبدك بسبب ذنب واحد، فإنى آدمى وقد أذنب آدم أولا

* * *



ولا تعاقب بالباطل حتى لا تصير مستوجب العقوبة بغير جريرة، ولا تغضب لكل شيء، وتعود كظم الغيظ وقت الضجر، وإذا طلب منك العفو عن ذنب فاعف وأوجب على نفسك العفو وإن يكن ذنبا فاحشا، لأنه إذا لم يذنب العبد لا يظهر عفو الله، وحينما تكون قد جازيت على جرم فأين إذن يكون فضلك؟ وإذا أوجبت العفو فإنك لا تخلو من الشرف والعظمة، وإذا عفوت عن أحد فلا تؤنبه ولا تذكر ذلك الذنب، لأن ذلك يكون بمثابة عدم العفو، أما أنت فاجتهد ألا تذنب فتدعوك الحاجة بذلك إلى طلب العفو، وإذا فعلت فلا تضق بالاعتذار، لتنقطع الخصومة، أما إذا ارتكب شخص ذنبا يستوجب العقوبة فانظر إلى حد ذنبه ومر بالعقوبة على قدر الذنب، فإن أرباب الإنصاف قالوا: يجب توقيع العقوبة على قدر الذنب. أما أنا فأقول :

إذا أذنب شخص وصار بذاك الذنب مستوجب العقوبة فلا تجعل العقوبة جزاء ذنبه ذاك، واعف عنه لتكون قد سلكت طريق الحلم والمرحمة، وإذا عاقبت ولم تر العفو لازما فاعمل على أى حال بحيث تأمر بنصف درهم من العقوبة لدرهم من الذنب لتكون من الكرام ومن الساسة أيضا، ولا يليق أن يعمل الكرماء عمل غير الرحماء.

حكاية

سمعت أن قوما كانوا قد أجرموا فى أيام معاوية بحيث وجب عليهم القتل، فأمر معاوية بضرب

رقابهم أمامه، ففي تلك الساعة التي كانوا يقتلون فيها أتوا برجل أمامه ليقتلوه، فقال الرجل كل ما ستفعله بنا فهو جزاؤنا ونحن مقرون بجرمنا، ولكن اسمع مني كلمتين لوجه الله تعالى وأجب، فقال معاوية: قل. فقال ذلك الرجل المجرم لقد عرف كل العالم حلمك وكرمك، إذا ارتكبنا هذا الجرم مع ملك لم يكن كريما وحليما مثلك فماذا كان يفعل بنا؟ قال كان يفعل ما أفعله، فقال الرجل: فماذا يفيدنا حلمك وكرمك وأنت تفعل عين ما يفعله ذلك القاسي؟ فقال معاوية: لو قال الرجل الأول هذا الكلام لعفوت عن الجميع، والآن قد عفوت عن هؤلاء الذين تبقوا جميعا.

فإذا طلب المجرم المعذرة فيجب أن تجيبه، ولا تر ذنبا قط لا يستأهل المعذرة، وإذا وقعت لمحتاج إليك حاجة من الممكنات التي لا تضر الدين ولا يكون خلل في المهمات الدنيوية فلا تؤنس قلبه من أجل عرض الدنيا، ولا ترده بغير قضاء حاجته، ولا تفسد ظنه في حقك، لأن ذلك الرجل لا يطلب إليك حاجة ما لم يظن بك خيرا وهو في وقت الاحتياج أسيرك؛ فقد قيل: الاحتياج تلو الأسر. ويجب الرفق بالأسرى فإن قتل الأسير ليس محمودا بل هو مذموم، فلا تستبح التقصير في هذا المعنى لتلقى محمدة كلتا الدارين، وإن تكن لك حاجة إلى شخص فانظر أولا، هل ذاك الرجل كريم أو لئيم، فإن يكن رجلا كريما فاسأل حاجتك ولكن ارتقب الفرصة، فلا تسأله وقتما يكون مهموما، ولا تسأله كذلك قبل الطعام على الجوع ليكون هناك أمل الإجابة، ولا تطلب غير الممكنات، وتدبر الكلام الطيب في طلب الحاجة، ومهد بالقاعدة الحسنة، ثم أبلغ الكلام الملخص لذلك الشخص واخرج، وتلطف كثيرا في الحديث لأن التلطف في طلب الحاجة هو الشفيع الثاني، وإذا عرفت كيفية طلب الحاجة فإنك لا تعود بأي حال من غير قضائها كما قد قلت:

رباعي

أيها القلب أتريد أن تصل إلى الحبيب وأن تصل بغير عناء إلى ذلك البدر التمام

فعش على مراده بأي حال أيها القلب، لأنك إذا عرفت طلب المرام بلغت المرام

* * *

وكن مع كل من تحتاج إليه كأسيره وخادمه، إذ إننا نتعبد لله تعالى لأن لنا حاجة إليه، ولو لم تكن الحاجة لما اتجه أي إنسان نحو الطاعة، وإذا لقيت الإجابة فاشكر على كل حال فإن الله تعالى يقول ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧). والله تعالى يحب الشاكرين، ويكون الشكر على الحاجة أولا وأمل إجابة الحاجة ثانيا، وإذا لم يقض حاجتك فاشك من بختك ولا تشك من ذلك الشخص؛ لأنه لو كان يخشى شكواك لقضى حاجتك، وإن يكن الرجل بخيلا ولئيما فلا تطلب منه أي شيء في حالة الصحو فإنه لا يعطيه، واسأله في وقت السكر لأن اللئام والبخلاء يسخون وقت السكر، ولو أنهم يندمون في اليوم التالي، وإذا وقعت لك حاجة إلى لئيم فاعرف أنك في موضع الرحمة، فقد

قيل : ثلاثة أشخاص فى موضع الرحمة : أحدهم عاقل تحت يد أحمق ، والثانى عظيم قد استولى عليه ضعيف ، والثالث كريم محتاج إلى لئيم. واعلم أنه لما انتهيت من هذه الكلمات التى ذكرتها فى المقدمة ذكرت فصلا من كل نوع على موجب طاقتي وأردت أن أؤدى حق الكلام تماما ، وأذكر الحرف كذلك لتقرأها وتعرفها أيضا ، فلعله تمس الحاجة إليها ، ولو كنت أعرف علم الأولين والآخرين لعلمته لك وصيرته معلوما لديك حتى كنت أرحل عن هذه الدنيا وقت الموت أقل غما ، ولكن ماذا أعمل وأنا راجل فى العلم ، وإذا كنت أعرف شيئا أيضا فماذا يفيد قولى؟ وإذا سمعت منى كما سمعت من أبى فلا موضع لملامتك لأنى أنصف من نفسى ، أما إذا سمعت أو لم تسمع فإنى أقول بعض الكلام فى كل باب حتى لا أكون قد بخلت فى الكلام ، وحتى أكون قد قلت ما يكون قد تجلّى فى الطبع لى .



الباب الحادى والثلاثون

فى طلب علم الدين والقضاء وغيرهما

اعلم يا بنى أنى قلت فى أول الكلام بأن أتحدث عن الحرف أيضا، وليس الغرض من الحرفة إدارة الدكان، بل إن كل عمل يباشره المرء يكون من قبيل الحرفة، إلا أنه يجب أن يعرف ممارسة ذلك العمل جيدا حتى يمكنه أن يطعم منه الثمرة، وكما أراه الآن لا توجد أية حرفة أو عمل يطلبه ابن آدم وتكون تلك الحرفة مستغنية عن قاعدة النظام والصدق، فيلزم الجميع الترتيب.

والحرف كثيرة ولا يمكن شرح كل واحدة على حدة؛ لأن الكتاب يطول ويخرج عن طبيعة أصله، ولكن كل صنعة موجودة لا تخرج عن ثلاثة وجوه: فهى إما علم يتعلق بالحرفة، وإما حرفة تتعلق بالعلم، وإما حرفة بذاتها[1].

أما العلم الذى يتعلق بالحرفة فمثل الهندسة والطب والمساحة والشعر وما أشبه هذا. والحرفة التى تتعلق بالعلم فمثل الغناء والبيطرة والبناية وحفر القنوات وغير ذلك، ولكل منها أسباب ووسائل، وإذا لم تعرف رسمها وأسبابها فإنك تكون فى ذلك الباب كالأسير مهما تكن أستاذا. والحرفة الخالصة معروفة بذاتها ولا حاجة لشرحها، ولكنى أطلعك على أسباب كل واحدة بقدر ما يستطاع لأنها لا تخرج عن اثنتين: فإذا وقعت لك حاجة من اتفاق الأيام وحوادث الزمن تكون عارفا بأسرار كل منها فى وقت الحاجة، وإذا لم تكن حاجة وكنت سيدا فإنه لا بد للأكابر من معرفة علم الحرف.

واعلم يا بنى بأنه لا يمكنك أن تطعم ثمرة أى علم إلا علم الآخرة، وإذا كنت تريد أن تنتفع بالعلم الدنيوى فإنك لا تستطيع إلا بالحرفة التى تمزجها به، مثل علم الشرع والقضاء والقسمة والخطابة والوعظ، ولا يصل إليها كل إنسان ومن يصل إليها يستفيد كثيرا. وفى النجوم والتقويم والفأل لا يصل إلى المنجم نفع دنيوى ما لم يدخل فيها زخرف الجد والهزل، وما لم يدخل فى الطب الصنعة والتمويه. وإعطاء الإهليلج بالصواب وغير الصواب لا يحصل مراد الطبيب الدنيوى. فالعلم الأسمى هو علم الدين لأن أصوله على الدوام التوحيد، وفروعه أحكام الشرع، وحرفته نفع الدنيا والآخرة. فيا بنى دُرْ ما استطعت حول علم الدين لتظفر بالدنيا والآخرة، وإذا وفقت فقوم أولا

---

(١) الترجمة الحرفية: برأسها.

أصول الدين ثم الفروع لأن الفروع بغير الأصول تقليد، فإذا كنت طالب علم من الحرف التى ذكرتها فكن متعففا وقانعا ومحبا للعلم، وعدوا للدنيا وحمولا وخفيف الروح وساهرا ومبكرا، وحريصا فى الكتابة والدراسة، ومتواضعا وغير ملول من العمل، وحافظا ومكررا للكلام، ومتفحصا للسير، ومتجسسا للأسرار، ومحبا للعلوم، ووقورا ومحترما، وكن فى التعلم حريصا وغير خجول وعارفا لحق الأستاذ، وينبغى أن يكون معك دائما الكتب الوافرة والقلم والمبراة والمقلمة والمحبرة والسكينة والفرجار وقلم الجدول والمسطرة وما أشبه هذه الأشياء، ولا ينشغل قلبك بشىء آخر غير هذه، وتعلم كل ما تسمعه، وكن قليل الكلام بعيد التفكير، ولا ترض بالتقليد، وكل طالب علم بهذه الصفة سرعان ما يصير فريد العصر.

فصل

إذا كنت مفتيا فكن دينا وكثير الدرس والحفظ ومتعبدا ومصليا وصائما ولا تتجاوز عن ذلك، وكن طاهر الدين ونقي الثوب وحاضر الجواب، ولا تفت فى أية مسألة ما لم تفكر جيدا ولا تقنع بقصور حجتك وتقليدك، ولا تعمل بتقليد أحد، واعتز برأيك ولا تقنع بوجهين وقولين، ولا تعمل بغير قول المعتمدين، ولا تعتبر كل كتاب وجزء، وإذا سمعت رواية فانظر إلى رواة الحديث، ولا تسمع الحديث المجهول من الراوى المعروف، ولا تعتمد على خبر الآحاد اللهم إلا الرواة الثقات، ولا تتهرب من الخبر المتواتر، وكن مجتهدا ولا تتعصب كثيرا ولا تتكلم بالتعصب، وإذا ناظرت فانظر إلى الخصم، فإذا كانت لك قوته وعرفت أنك ترجحه فى الكلام فتداخل فى المسائل وإلا فتوقف، ولا تقنع بمثال واحد ولا تقل بالحجة الواحدة طردا وعكسا، واحفظ الكلام الأول حتى لا تفسد الكلام الأخير، وإذا كانت المناظرة فقهية فقدم الآية على الخبر والخبر على القياس وحدث بالممكنات، ولا يكون عيبا فى المناظرة الأصولية جمع الموجبات وغير الموجبات والممكنات، واجتهد أن تصير الفرض معلوما وأن تقول الكلام مرتبا ولا تقله أبتر، وكذلك لا تتكلم طويلا وبغير جدوى.

فصل

إذا كنت مذكرا فكن حافظا، واحفظ كثيرا ولا تضرب على كرسى الجدل، ولا تناظر ولو كنت تعرف أن الخصم ضعيف، وادع كل ما تريد على المنبر وإن يكن هنالك سائل فلا خوف، واجعل لسانك فصيحا، واعتبر كذلك أن هؤلاء القوم الذين فى مجلسك جميعا بهائم، وقل كيفما تريد حتى لا تعجز فى الكلام، ولكن اجعل بدنك وثوبك نظيفين، واستحضر المريدين والمهللين بحيث يكونون جالسين دائما فى المجلس ليهللوا لكل نكتة تقولها ويجعلوا المجلس حاميا، وإذا بكى الناس فابك أنت أيضا من وقت لآخر، وإذا عجزت فى القول فلا تخف، و اشتغل بالصلوات والتهليل، ولا تكن عابس الوجه حتى لا يكون أولئك الذين فى مجلسك ثقال الروح عابسي الوجوه مثلك،

لأنه قد قيل : (كل شيء من الثقيل ثقيل) . وكن متحركا فى وقت الحديث ، ولا تكن سريع الوهن فى أثناء الحماس ، وانظر دائما إلى المستمع فإذا أراد المستمع المضحكة فأضحكه وإذا أراد الخرافة فقص عليه الخرافة ، وقل كل ما يرغب فيه العامة[1] ، وإذا وقع القبول فلا تخف وبع أسوأ الكلام كأحسن شيء ، إذ إنهم يشترونه فى وقت القبول ولكن كن حذرا فى القبول ، لأن خصم المذكرين يظهر فى القبول ، ولا تقر فى مكان لا تلقى فيه قبولا ، وكل سؤال يسألونه وأنت على المنبر أجب عما تعرفه ، والذى لا تعرفه قل إن مثل هذه المسألة لا تكون على المنبر وتعالى إلى البيت لأجيبك فإنه لا يأتى إلى البيت أحد ، وإذا تعنتوا أو أكثروا الكتابة فمزق الرقعة وقل إن هذه مسألة الملاحدة والزنادقة وسائل هذه المسألة زنديق فيقول الجميع لتكن اللعنة على الزنديق والملحد ، فلا يستطيع أحد أن يسأل منك مسألة بعد ذلك ، وتذكر الكلام الذى قلته مرة فى المجلس حتى لا يتكرر مرة أخرى ، وكن ناضر الوجه فى كل وقت ، ولا تقم كثيرا بالمدن لأن أرزاق المذكرين والفاَلين تحت أقدامهم وقبولهم فى وجوههم ، وحافظ على نضارة التذكير وناموسه ، واجعل جسدك وثوبك نظيفين دائما ، وحافظ جيدا كذلك على المعاملة الشرعية فى الظاهر والباطن ، وأكثر من نوافل الصلاة والصوم ، وكن ذلق اللسان ، ولا تكثر المقام فى السوق لأن العوام يمرون به كثيرا ؛ لتكون عزيزا فى أعين العامة ، واحترز من قرين السوء وراع أدب المنبر ، وقد ذكرنا هذا الشرط فى مكان آخر ، وابتعد عن التكبر والكذب والرشوة ومر الخلق بعمل ما تعمله أنت لتكون عالما منصفا ، واعرف العلم جيدا ، وما عرفته فاستعمله بعبارة حسنة لئلا تصير خجلا بالادعاء الباطل ، وقل كل ما تقوله فى الحديث والوعظ على أساس الخوف والرجاء ، ولا تؤيس الخلق كلية من رحمة الله تعالى ، ولا ترسل بالعصاة كذلك إلى الجنة جملة ، وتحدث على الأكثر بما تكون ماهرا فيه ويكون معلوما لك جيدا ؛ لأن ثمرة الدعوى بغير الحجة الخجل . وإذا بلغت فى العلم درجة كبيرة وصرت قاضيا ، فكن حمولا مترويا إذا نلت القضاء ، وكن كذلك حاد الفهم وبارعا وصاحب تدبير وبعيد النظر وعارفا بالناس وصاحب سياسة وعالما بعلم الدين وعارفا طريقة كل طائفة ، وكن خبيرا باحتيال كل جماعة وترتيب كل قوم وكل مذهب ، وينبغى أن تكون حيل القضاة معلومة لك حتى إذا ما جاء مظلوم للحكم وليس له شاهد وسيجرى عليه الظلم ويبطل حق من حقوقه تغيث ذلك المظلوم وتبلغ بالتدبير والحيلة ذلك المستحق إلى حقه .

حكاية

كذلك كان بطبرستان قاضى القضاة ، وكان يقال له أبو العباس رويانى ، وكان رجلا مشهورا وعالما وورعا وبعيد النظر ومدبرا ، فجاء مرة رجل إلى مجلسه وادعى على شخص بمائة دينار ، فسأل القاضى الخصم فأنكر ، فقال القاضى للمدعى أعندك شاهد؟ قال لا ، فقال القاضى إذن أحَلِّف

(١) الترجمة الحرفية : كل ما يكون العامة مشترين له .

الخصم، فبكى المدعى بتأثر وقال أيها القاضي: لا تحلفه لأنه يقسم كذبا ولا يخاف. فقال القاضي أنا لا أستطيع الخروج عن الشريعة، فإما أن تلزمك البينة وإما أن أحلفه، فتمرغ الرجل المدعى فى التراب أمام القاضي وقال: حذارا ليست لى بينة وهو يقسم كذبا وأبقى أنا مظلوما فدبر أمرى. فلما رأى القاضي تَوسُّل ذلك الرجل على هذه الجملة، عرف أنه يقول الصدق. فقال أيها السيد قص على قصة ذلك الدين بالحق لأعرف كيف أصل ذلك الأمر، فقال أيها القاضي لقد كان هذا الرجل صديقى عدة سنوات فعشق جارية اتفاقا، وكانت قيمة تلك الجارية مائة وخمسون دينارا، ولم يكن له أى وجه، وكان يبكى ليل نهار كالمولهين وينوح، وذات يوم كنا قد ذهبنا للتنزه، وكنت أنا وهو نتجول وحدنا بالفلاة، وجلسنا زمنا، وكان هذا الرجل يتحدث عن الجارية ويبكى بحرقة، فاحترق قلبى عليه لأنه كان صديقى عشرين سنة، فقلت أيها الصديق ليس لك مال وليس لدى ثمنها كاملا وأنت لا تعرف أى شخص يغيثك فى هذا المعنى، أما أنا فلى فى كل حوزتى مائة دينار قد جمعتها فى سنوات طوال، فأعطيك هذه المائة دينار ودبر أنت وجها للباقى حتى تشترى الجارية وتحقق منها مرادك شهرا وتبيعها بعد شهر وترد إلى مالى ذاك، فتمرغ هذا الرجل أمامى فى التراب، وأقسم قائلا: أملكها شهرا وأبيعها بعد ذلك إذا اشتروها بالخسارة أو الربح وأرد لك مبلغك، فحللت الذهب من وسطى وأعطيته له وكنت أنا وهو والحق تعالى، والآن انقضت على ذلك أربعة شهور فلا أنا أرى المال ولا هو يبيع الجارية، فقال القاضي وأين كنت جالسا فى ذلك الوقت الذى أعطيته فيه المال؟ قال تحت شجرة، فقال القاضي إذا كنت تحت شجرة فلم قلت ليس عندى بينة؟ ثم قال للخصم اجلس لدى، وقال للمدعى لا تشغل قلبك واذهب تحت تلك الشجرة وصل ركعتين أولا وصل على النبى مائة مرة، ثم قل لتلك الشجرة إن القاضي يقول أن تعالى واشهدى، فتبسم الخصم فلمحه القاضي وتغاضى وتغافل، فقال المدعى: أيها القاضي إنى لأخشى ألا تأتى الشجرة بأمرى، فقال القاضي: هذا خاتمى فاحمله وقل للشجرة إن هذا هو خاتم القاضي ويقول أن تعالى وأدى الشهادة التى عليك أمامى، فأخذ المدعى خاتم القاضي وذهب، وجلس الخصم هنالك عند القاضي، وانشغل القاضي بالأحكام الأخرى ولم يلتفت إلى هذا الرجل إلى أن التفت مرة فجأة نحوه فى أثناء حكم كان يحكم به وقال: أيكون فلان قد وصل هنالك؟ فقال لا ليس بعد أيها القاضي، وانشغل القاضي بالحكم، فعرض ذلك الرجل خاتم القاضي على الشجرة وقال: القاضي يدعوك، فلما جلس زمنا عرف بأنه لن يسمع جوابا من الشجرة، فعاد مغموما وجاء أمام القاضي وقال: أيها القاضي ذهبت وعرضت الخاتم فلم تأت، فقال القاضي: أنت مخطئ فقد جاءت الشجرة وشهدت، والتفت إلى الخصم وقال أد مال هذا الرجل، فقال ذاك الرجل: مذ جلست هنا لم تأت شجرة قط ولم تشهد، فقال القاضي: إذا كنت لم تأخذ هذا المال منه تحت تلك الشجرة فلم قلت حينما سألتك أيكون هذا الرجل قد وصل إلى الشجرة: لا بعدُ؛ لأن المسافة من هنا إلى هناك بعيدة؟ ولمَ لَمْ تقل: أية شجرة،

وأنا لا أعرف شجرة قط أخذت منه تحتها مالا ، وأنا لا أعلم أين قد ذهب؟ فألزم ذلك الرجل الحجة وأخذ منه المال وأعطاه لصاحبه .

فالأحكام لا تؤخذ كلها من الكتاب ، ويجب أن يستنبطوا من أنفسهم مثل هذه الاستنباطات ويدبروا التدابير ، وكذلك ينبغي أن تكون في بيتك متواضعا جدا ، أما في مجلس الحكم فكلما كنت أكثر هيبة وعبوسا وأقل ابتساما كان أفضل لتكون ذا جاه وحشمة ، وكن وقورا[1] قليل الكلام ولا تكن ملولا البتة من استماع الكلام والحكم ، ولا تبد من نفسك الضجر واصبر ولا تعتمد على رأيك في مسألة تعرض ، واستشر المفتين أيضا ، ونور رأيك على الدوام ، ولا تخل أبدا من الدرس ، واحفظ كذلك التجارب من المسألة والمذهب كما ذكرت لأن رأى القاضي في الشريعة مساو لرأى الشرع ، وكثيرا ما يكون إذا جاء الحكم ثقيلا على رأى الشرع أن يخففه القاضي ، ويجوز ذلك عندما يكون القاضي مجتهدا ، فيجب أن يكون القاضي زاهدا ومتقيا وورعا ومجتهدا ، وألا يحكم في بعض أوقات : أحدها عند الجوع والعطش ، وأيضا وقت الخروج من الحمام ، وكذلك وقت الكدر والمشاغل الدنيوية التي تعرض . ويجب أن يكون له وكلاء جلد ، ولا يسمح في وقت الحكم بأن تقص لديه القصص والحكايات وتشرح الأحوال ؛ لأن على القاضي شرط إجراء الحكم لا التفحص ، إذ كثيرا ما يكون عدم القيام بالتفحص خيرا من القيام به ، فيقصر الكلام ويسرع بالإحالة على البينة واليمين ، وحيثما يعرف أن المال كثير والناس غير متقين يجرى كل تجربة وتجسس يعرفهما ولا يقصر قط ولا يتساهل ، ويجعل معه على الدوام المعدلين الأخيار ، وكذلك لا ينقض الحكم المبرم أبدا ويجعل أمره قويا محكما ، ولا يكتب بيده قبالة ومنشورا أبدا إلا أن تكون ضرورة ، ويجعل خطه عزيزا ويسجل كلامه ، وخير فضيلة للقاضي العلم والورع ، فإذا لم تزاول هذه الصناعة أيضا ولم تجد هذا التوفيق ولم تحترف الجندية كذلك ، فاتخذ عندئذ طريق التجارة فلعلك تلقى منها النفع ، لأن ما يكون من التجارة يكون حلالا ومستحسنا عند كل إنسان كذلك .

---

(١) الترجمة الحرفية : ثقيل الظل .

الباب الثانى والثلاثون

فى التجارة

أى بنى، ولو أن التجارة ليست بحرفة يمكن أن يقال لها صناعة مطلقا إلا أنه إذا نظرت إلى الحقيقة فإن رسومها مثل رسوم المحترفين، ويقول الأذكياء إن أصل التجارة مبنى[1] على الجهل، وفروعها على العقل، كما قالوا (لولا الجهال لهلك الرجال)؛ يعنى لو لم يكن الجهال لفسدت الدنيا، والمقصود من هذا الكلام أن التجار، طمعا فى زيادة المال، يحملون الأشياء من الشرق إلى الغرب، ويخاطرون بأرواحهم فى الجبال والبحار ولا يخشون اللص والصعلوك، ولا يخافون الحيوان المفترس للناس، ولا الطريق غير المأمون، ويوصلون لأهل المغرب نعمة المشرق، ولأهل المشرق نعمة المغرب، ليكون بهم تدبير عمران الدنيا، وهذا لا يكون بغير التجارة، ويقوم بمثل هذه الأعمال الخطيرة من تكون عين عقله مغمضة.

والتجارة نوعان، وكلاهما مخاطرة: أحدهما المعاملة والآخر المسافرة؛ وتكون المعاملة للمقيمين إذ يشترون المتاع الكاسد طمعا فى الزيادة، وهذا مخاطرة بالمال، ويلزم لذلك رجل جرىء وبعيد النظر يخوله قلبه أن يشترى شيئا كاسدا طمعا فى الزيادة، وقد ذكرت ما هى المسافرة، وعلى كلا الوجهين يجب أن يكون التاجر جريئا غير وجل على المال والنفس، وينبغى أن يكون أمينا، ولا يرغب فى إضرار الناس من أجل نفعه، ولا يطلب نكاية الخلق طمعا فى ربحه، ويعامل من هم دونه، فإذا تعامل مع أكبر منه فليتعامل مع شخص ذى أمانة وديانة ومروءة، ويحترز من المخادعين، ولا يتعامل مع قوم لا بصارة لهم فى المتاع، حتى يأمن دق الباب، ولا يتعامل مع قليلى البضاعة والسفهاء، ولا يعامل الأصدقاء الحميمين، وإذا فعل فليقطع الطمع من الربح حتى لا تفسد الصداقة، فما أكثر ما فسدت الصداقة بسبب قليل من الربح والخسارة، ولا يتعامل بالنسبة طمعا فى الزيادة، إذ كثيرا ما تثمر الزيادة النقصان، ولا يدقق فى التوافه؛ لأن التدقيق فى التوافه ضرر بليغ كما أقول:

(١) الترجمة الحرفية: موضوع.

رباعى

قلت إذا ابتعدت من عنده، فلعل قلبى لا يقاسى بعد ذلك صداعه

فمنذ ابتعدت وأنا بعيد عن النوم والأكل وكثيرا ما يكون الضرر من التدقيق فى التوافه

* * *

وأصل فساد التجارة فى التبذير، فما لم يتحصل شيء من الربح لا ينبغى الأكل من رأس المال، لأن أكبر ضرر للتاجر يكون من أكل رأس المال، واعلم أن خير المتاع ما يشترى بالمن والرطل ويباع بوزن الدرهم، وأسوأ المتاع ما يكون على خلاف هذا، واحترز من شراء الغلة على أمل الربح لأن كل من يبيع الغلة يكون دائما سيئ السمعة والنية، وأكمل الناس دينا من لا يكذب على المشترى، لأن الكذب على السلعة المشتراه غير مستحسن عند الكافر والمسلم، كما قلت بيتين فى هذا المعنى:

نظم

يا من ألقى عشقك فى قلبى النور، وألقى اهتمامى بك على عنقى النير

أنا قد اشتريت عشقك بروحى وقلبى، وأنت تعرف أنه لا يكذب على المتاع المشترى



* * *

ويجب ألا يسلم شيئا قط قبل إتمام البيع، وألا يخجل فى المعاملة، فقد قال الأذكياء: الحياء يقلل الرزق. ولا يعتاد المبالاة من الإكثار ولكن لا يقل المروءة كذلك فى الطريقة، فقد قال متصرفو هذه الصناعة إن أصل التجارة التصرف، ويراعى المروءة فى تصريف المال، ومروءة الجاه.

كما سمعت فى حكاية أن تاجرا تعامل يوما بألف دينار في دكان بياع، فلما تمت الصفقة وقع خلاف بين التاجر والبياع فى الحساب على قيراط من الذهب، فقال البياع: لك علىّ دينار ذهب، فقال التاجر: دينار وقيراط، واستمر الكلام فى هذا الحساب من الصباح حتى صلاة الظهر، وكان التاجر: يصدع البياع ويصيح ولم يتحول عن قوله قط إلى أن ضجر البياع وأعطاه دينارا وقيراطا، فأخذ التاجر المال وذهب، وكل من كان يرى هذا كان يلوم ذاك التاجر، ولما ذهب التاجر جرى خلفه صبى البياع وقال: أيها السيد أعطنى الحلوان[1]، فأعطاه التاجر هذا الدينار والقيراط، وعاد الصبى، فقال البياع: أيها الصبى إن هذا الرجل كان يتعب نفسه من الصباح إلى منتصف النهار من أجل قيراط ولم يخجل وسط الجمع فهل طمعت أنت أن يعطيك شيئا؟ فأظهر الصبى الذهب، وحار[2] الرجل وقال لنفسه: إن هذا الصبى ليس وسيما وهو صغير جدا ولا يمكن إساءة الظن به، فكيف فعل هذا

(١) شاكُرْ دانه.

(٢) الترجمة الحرفية: عجز.

الرجل هكذا مع هذا البخل؟ وبعد ذلك رأى البياع ذاك التاجر وقال: أيها السيد، رأيت منك شيئا عجيبا، إنك أتعبتني يوما بين جماعة من الصباح حتى صلاة الظهر في صداع[1] قيراط ذهب ثم وهبته كله لصبي، فلم كان ذاك الصداع؟ وما هذا السخاء؟ فقال الرجل لا تعجب مني، فأنا رجل تاجر، وفي شرط التجارة أنه إذا غبن شخص في درهم وقت البيع والشراء والتصرف يكون كمن قد غبن في نصف عمره، وإذا ظهرت النذالة من شخص في وقت المروءة، يكون ذلك كما لو أنه قد شهد على دنس أصله، فلم أرد أن أكون مغبون العمر ولا دنس الأصل.

أما التاجر القليل البضاعة فينبغي أن يحترز من المشاركة، وإذا فعل فمع شخص ذي مروءة وغنى وحياء، حتى لا يحيف عليه في وقت القسمة، ولا يشتري في بداية تكوين رأس ماله متاعا يستنفد منه واحدا في المائة وتصير له نفقات كثيرة، ولا يبتاع شيئا يدخل فيه مع الغير، ولا متاع الميت والمنكسر، ولا يجرب حظه في رأس المال، إلا أن يعلم أنه إذا صارت خسارة لا تكون أكثر من نصف رأس المال، وإذا أعطوه كتابا قائلين أوصله إلى المكان الفلاني، يقرأ الكتاب أولا ثم يأخذه، إذ إن في الكتاب المختوم بلايا كثيرة، ولا يمكن أن يعرف كيف يكون الحال، أما كتاب المحتاجين فلا يخشى منه، ولا يخبر عن حيف في كل مدينة يدخلها، وإذا دخل من طريق فلا ينعى أحدا ولا يقصر في خبر التهنئة، ولا يسير في الطريق الخارجي بغير رفيق، وينزل في وسط الزحام بالقافلة ويضع القماش في المكان المزدحم، ولا يذهب أو يجلس بين المسلحين؛ لأن الصعلوك يقصد المسلح أولا، وإذا كان راجلا لا يصحب الراكب، ولا يسأل الطريق من الغرباء، إلا من شخص يتوسم فيه الصلاح، فكثيرا ما يكون رجل لئيم يضلل الناس الطريق، ويأتي من بعد ذلك ويسلب البضاعة، وإذا اعترض الطريق شخص يسلم عليه بوجه طلق، ولا يظهر له نفسه في اضطراب وعجز، ولا يخون الحراس، ولكن لا يقصر في خداعهم بتكلمه معهم بالجرأة، ولا يسير في الطريق الخارجي بغير زاد ومؤنة، ولا يسافر في الصيف بغير ملابس الشتاء، ولو كان الطريق عامرا جدا، ويرضي المكاري، وإذا نزل بمكان لا يعرفه ولا يأنس به، يتخير بياعا أمينا، وينبغي أن يصاحب ثلاث طوائف من الناس: الفتيان والعيارين، والأغنياء وذوي المروءة، والأولاد والعارفين بالبلاد. واجتهد أن تعتاد البرد والحر والجوع والعطش، ولا تسرف في الراحة، حتى إذا ما حل تعب بالضرورة في وقت ما يسهل عليك، وكل عمل تستطيع أن تعمله اعمله بنفسك ولا تأمن لأحد، لأن الدنيا سريعة الخداع، أما رأس مال التجارة فالصدق، وكن جلدا في الشراء والبيع، وكن ثقة وصادقا، وكثير الشراء فالبيع، ولا تتعامل ما استطعت بالنسيئة، فإذا فعلت فلا تتعامل مع بضعة أصناف من الناس: مع العلماء والعلويين، ومع حديثي النعمة وقليلي المال، ووكلاء القاضي الخواص، والصبيان والخدم، لا تتعامل مع هؤلاء القوم قط بالنسيئة، وكل من يفعل ذلك لا ينجو من الصداع والندم، ولا تأمن المحرومين على

---

(١) من جراء.

أموالك، ولا تعتمد على غير المجربين، ولا تمتحن المجربين في كل وقت، ولا تستبدل غير المجرب بالمجرب، إذ يلزم وقت طويل حتى يحصل على مجرب ومعتمد، وفي المثل: الشيطان المجرب خير من الإنسان غير المجرب. وامتحن الناس بالناس ثم بنفسك؛ لأن كل من لا يجدر بنفسه لا يليق بغيره قط، وجرب الناس بالعمل لا بالقول، وعصفور بالنقد خير من طاووس بالنسيئة، وما دمت تربح نصفا من عشرة في سفر البر فلا تسافر في البحر طمعا في ربح خمسة عشر، لأن ربح سفر البحر إلى الكعب وخسارته إلى العنق، ولا ينبغي أن تسلم للربح أصل رأس المال الكبير طمعا في الربح الصغير، وإذا وقعت في البر واقعة فذهب المال، فلعل الروح تبقى، وفي البحر يكون الخطر على كليهما، وللمال عوض أما الروح فلا عوض لها، وقد مثلوا أيضا عمل البحر بعمل الملك، يأتي جملة ويذهب جملة، ولكن إذا ركتب البحر مرة لرؤية الآثار العجيبة فجائز عند القدرة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (اركبوا البحر مرة وانظروا إلى آثار عظمة الله سبحانه وتعالى).

وماكس في وقت الأخذ والعطاء، ولا تماكس بعد البيع، ولا تدع أمرك جملة في أيدي الناس، فقد قيل: ينبغي مسك الحية بأيدي الناس، وترك الشوك لأقدامهم. واحسب ربحك وخسارتك جميعا واكتبها بخطك لتأمن من السهو والخطأ، وحاسب غلمانك وأهلك دائما، ولا تجعل على نفسك واجبًا بيدك، حتى إذا ما أردت أن تنكره استطعت، وتفقد شئونك دائما، واطلع عليها من ربح وخسارة ونقص وزيادة في المعاملة حتى لا تعجز عن معرفة ربحك وخسارتك، واجتنب الخيانة، لأن كل من يخون الناس، يجب أن يعلم أنه كأنما قد ارتكب تلك الخيانة مع نفسه.

حكاية

سمعت أن شخصا كان له غنم وقطعان كثيرة، وكان له راع ورع وصالح يجمع كل يوم لبن الأغنام مهما كان ويحمله إلى صاحبها، وكان ذلك الرجل يخلط اللبن بمقداره من الماء ويعطيه للراعي ويقول: اذهب وبعه، وكان ذلك الراعي ينصح ذاك الرجل ويعظه قائلا: أيها السيد لا تخن المسلمين، لأن كل من يخون الناس لا تحمد عاقبته. فلم يسمع الرجل كلام الراعي وظل يفعل ذلك إلى أن أرقد الراعي الأغنام ذات ليلة اتفاقا في مسيل النهر وذهب هو نفسه فوق مرتفع ونام، وكان فصل الربيع، وللقضاء الإلهي هطلت على الجبل أمطار غزيرة وسالت وسقطت في هذا المسيل وأهلكت الأغنام، وفي اليوم التالي جاء الراعي إلى المدينة وذهب إلى صاحب الغنم بغير لبن، فسأله الرجل لم لم تحضر اللبن؟ فقال الراعي: أيها السيد قلت لك لا تمزج الماء باللبن لأن ذلك خيانة، فلم تطعني، فالآن قد تجمعت كل تلك المياه التي كنت أعطيتها للناس بسعر اللبن وهجمت ليلة أمس وذهبت بغنمك.

فتجنب ما استطعت الخيانة لأن كل من خان مرة لا يعتمد عليه أحد بعد ذلك، واستشعر الصدق

لأن الصدق أكبر طراز، وكن حسن المعاملة وطيب الأخذ والعطاء، ولا تعد أحدا، إذا وعدت فلا تخلف، ولا تكثر الكلام، وإذا تكلمت فقل الصدق ليبارك الحق تعالى في معاملتك، وكن يقظا في أخذ الوثيقة وتسليمها في المعاملة، وإذا أردت إعطاء وثيقة فلا تدعها من يدك ما لم تتسلم حقك أولا، وحيثما تذهب فاطلب صديقا، وإذا كنت تاجرا ولم تذهب أية مرة إلى مدينة، فاذهب إليها بكتاب محتشم لتكون معروفا بتعريفه، وصانع الناس، ولا تسافر مع غير الموافقين والجهال والحمقى والكسالى وتاركي الصلاة والمتهورين، فقد قيل: (الرفيق ثم الطريق). ولا تكذب فيك ظن كل من يأتمنك، ولا تشتر أي شيء تشتريه غير مرئي وغير معروض، واعرف أولا سعر ما تريد بيعه، وبعه بالشرط والميثاق، لتسلم آخر الأمر من التقاضي والجدل، وراع طريق التدبير لأن تدبير البيت أعظم تجارة، ويجب ألا تبدد شئون بيتك، وأن تشتري حوائج البيت جملة في كل سنة وقت الخريف، من كل ما يلزمك، واشتر بقدر ما يلزم في العام وكن عارفا بالسعر، وعندما يرتفع السعر بع النصف من كل شيء مما تكون قد اشتريته، لتكون قد أكلت في تلك السنة بلا ثمن وليس في هذا إثم ولا سوء سمعة، ولا ينسبك أحد في هذا المعنى إلى البخل، لأن هذا من جملة تدبير البيت، وإذا رأيت خللا في شئونك فدبره لتزيد دخلك، وحتى لا يتطرق ذلك الخلل إلى تدبير بيتك فإذا لم تستطع زيادة الدخل، فقلل الخرج ليكون ذلك كما لو تكون قد دبرت الزيادة، فإذا لم يكن قد أصابك خير من التجارة وتريد أن تكون عالما شريفا فليس بعد علم الدين قط أشرف وأنفع من علم الطب، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان).

الباب الثالث والثلاثون

فى علم الطب

أى بنى، إذا كنت طبيبا فينبغى أن تعرف أصول علم الطب، سواء الأقسام العلمية أو الأقسام العملية، واعلم أن كل ما هو موجود فى الجسم الآدمى إما أن يكون من الطبيعة أو خارجا عن الطبيعة، والطبيعى ثلاثة أقسام: فالقسم الأول ما يكون به ثبات البدن وقوامه، والقسم الثانى هو توابع تلك الأشياء التى بها ثبات البدن وقوامه، والقسم الثالث هو ما يحول البدن من حال إلى حال. وذاك الخارج عن الطبيعة إما أن يؤدى إلى فعل المضرة بالواسطة أو غير الواسطة، أو يكون هو نفس ضرر الفعل. أما ذلك القسم الذى به ثبات البدن وقوامه، فإما أن يكون من جنس المادة أو من جنس الصورة. فذاك الذى من جنس المادة، إما أن يكون بعيدا جدا مثل الاستقصات وعددها أربعة، وهى: الهواء والنار والتراب والماء. وإما أن يكون أقرب من الاستقصات مثل الأمزجة وعددها تسعة: واحدة معتدلة وثمانية غير معتدلة: منها أربعة مفردة وأربعة مركبة. وإما أن يكون أقرب من الأمزجة مثل الأخلاط وعددها أربعة: الصفراء والسوداء والبلغم والدم. وإما أن يكون أقرب من الأخلاط مثل الأعضاء وعددها عند جماعة أربعة وعند البعض اثنان، ومعنى هذا الكلام الذى قلته هو أن تركيب الأعضاء من الأخلاط وتركيب الأخلاط من المزاج وتركيب المزاج من الاستقصات، وهى أبعد مادة. وما هو من جنس الصورة على ثلاثة أقسام: القوى والأفعال والأرواح، والقوى على ثلاثة أقسام: نفسانية وحيوانية وطبيعية. أما النفسانية وهى الحواس الخمس: البصر والذوق والسمع والشم واللمس. وقوة الحركة وعدد أقسامها على حسب أقسام الأعضاء التى لها حركة. والقوة المدركة الباطنية وهذه ثلاثة أقسام: المولدة والمربية والمغذية. والأفعال على عدد القوى النفسانية والحيوانية والطبيعية، لأن الروح خادم القوة، والقوة مبدأ الفعل، والفعل تأثير القوة، فالأفعال قائمة على عدد القوى. وتلك التى هى توابع للأشياء التى بها ثبات وقوام البدن: مثل السمن الذى هو تابع لبرودة المزاج، ومثل النحافة التى هى تابعة لحرارة المزاج، ومثل الحمرة التى هى تابعة للدم، ومثل الصفرة التى هى تابعة للصفراء، ومثل حركة النبض التى هى تابعة للقوة الفاعلة الحيوانية، ومثل الغضب الذى هو تابع للقوة المنفعلة الحيوانية، ومثل الشجاعة التى هى تابعة لاعتدال القوة الحيوانية، ومثل العفة التى هى تابعة لاعتدال القوة الشهوانية، ومثل الحكمة التى هى تابعة

لاعتدال النفس الناطقة، ومثل جملة الأعراض والكيفيات التي تكون تابعة للمادة أو تابعة للصورة. وتلك التي تحول البدن من حال إلي حال يقال لها الأسباب الضرورية، هذه ستة أقسام: أولها الهواء، وثانيها الطعام، وثالثها الحركة والسكون، ورابعها النوم واليقظة، وخامسها انبساط الطبيعة وانقباضها، وسادسها الأحداث النفسانية مثل: الغم والغضب والخوف وما شاكلها، ويقال لهذه ضرورية لأنه لا حيلة للإنسان في أية واحدة منها. ولكل واحدة من هذه الجملة تأثير في أجسام الناس، فعندما تكون كل واحدة منها في حال الاعتدال تكون أعمال الإنسان أتم وأصوب وعلى وجه الاعتدال، وعندما يحدث تغير لبعض من هذه الجملة أو يكون استعمال الإنسان لبعض منها على وجه الخطأ يظهر المرض والعلة بموجب الإفراط الذي يكون قد حدث[1].

وذاك الخارج عن الطبيعة ثلاثة أقسام: سبب ومرض وعرض. والسبب على ثلاثة أقسام: إما أن يكون سبب مرض الأعضاء الآلية المشابهة، أو يكون سبب المرض الحار وهذا على خمسة أقسام، أو سبب المرض البارد وذلك على ثمانية أوجه، أو سبب المرض الرطب، أو سبب المرض الجاف؛ وكل واحد من هذين على أربعة أقسام.

فسبب مرض الأعضاء الآلية هو سبب مرض يقع إما في الخلقة أو في المقدار أو في الوضع أو في العدد. وسبب أمراض الخلقة إما أن يكون سبب مرض الشكل، أو سبب مرض التقعير والتجويف وذلك على سبعة أقسام، أو يكون سبب الخشونة وذلك على قسمين، أو يكون سبب الملاسة وهذا على قسمين. وسبب أمراض المقدار على ثلاثة أنواع، وسبب أمراض الوضع وسبب أمراض العدد كل واحد منهما نوعان، وسبب تفرق الاتصال الذي يقال له المرض المشترك، يقع في الأعضاء المتشابهة وكذلك في الأعضاء الآلية، ومرض الأعضاء المتشابهة على ثمانية أقسام؛ أربعة مفردة: حار وبارد ورطب ويابس، وأربعة مركبة: حار رطب، وحار يابس، وبارد رطب، وبارد يابس وأمراض الأعضاء الآلية على أربعة أنواع: الأمراض التي تقع في الخلقة وفي المقدار وفي الوضع وفي العدد. وأمراض الخلقة أربعة أقسام: ذاك الذي يقع في الشكل، وفي التقعير، وذاك الذي يقع على طريق الخشونة، وذاك الذي يكون على طريق الملاسة.

وأمراض المقدار على نوعين: ذاك الذي يقع من طريق الزيادة، وذاك الذي يقع من طريق النقصان. وأمراض الوضع أيضا على نوعين: إما أن يزول العضو من مكانه أو يفسد بالاتصال بالأعضاء الأخرى.

وأمراض العدد على نوعين كذلك: إما أن تكون على طريق الزيادة أو على طريق النقصان. وتفرق الاتصال إما أن يقع في الأعضاء المتشابهة أو في الأعضاء الآلية أو في كليهما. والعرض على

(١) الترجمة الحرفية: ذهب.

ثلاثة أقسام: إما أعراض تتعلق بالأفعال، أو بأحوال الجسم، أو تظهر فى الاستفراغات. وما يتعلق بالأفعال على ثلاثة أقسام، وما يتعلق بالأحوال على أربعة أقسام، وما يتعلق بالاستفراغات على ثلاثة أقسام.

وينبغى أن تعرف بأن الطب على قسمين: علم وعمل. أما القسم العلمى فهو هذا الذى شرحته لك، وأقول الآن من أين يجب أن يطلب كل علم مما ذكرت، لتعرف كلا منها بشرح واستقصاء، فإن تلك العلوم التى ذكرناها بالشرح والاستقصاء يذكر جالينوس أغلبها فى الستة عشر والبعض خارج الستة عشر.

أما علم الاستقصات فاطلب ذلك المقدار الذى ينفع الطبيب فى كتاب الاستقصات من جملة الستة عشر، واطلب علم المزاج فى كتاب المزاج من جملة الستة عشر، واطلب علم الأخلاط من المقالة الثانية من كتاب القوى الطبيعية من جملة الستة عشر أيضا، واطلب علم الأعضاء المتشابهة من التشريح الصغير من الستة عشر كذلك، واطلب علم الأعضاء الآلية من التشريح الكبير الذى هو خارج الستة عشر، واطلب علم قوى الطبيعة من كتاب القوى الطبيعية من جملة الستة عشر، واطلب كذلك القوى الحيوانية من كتاب النبض من جملة الستة عشر أيضا، واطلب القوى النفسانية من آراء بقراط وأفلاطون وهذا الكتاب تصنيف جالينوس خارج الستة عشر.

وإذا أردت أن تكون متبحرا وأن تتجاوز مرتبة الطلب، فاطلب علم الاستقصات وعلم المزاج من كتاب الكون والفساد ومن كتاب السماء والعالم، وعلم القوى والأفعال من كتاب النفس وكتاب الحس والمحسوس، وعلم الأعضاء من كتاب الحيوانات، واطلب أقسام الأمراض من المقالة الأولى من كتاب العلل والأمراض من جملة الستة عشر، وأسباب الأمراض من المقالة الثانية من هذا الكتاب الذى ذكرته، واطلب أقسام الأعراض من المقالة الثالثة من هذا الكتاب أيضا، واطلب أسباب الأمراض من المقالات الرابعة والخامسة والسادسة من هذا الكتاب الذى ذكرته كذلك.

وحيث إنى ذكرت القسم العلمى فلا بد من أن أذكر شيئا من القسم العملى ولو أن الكلام يطول لأن العلم والعمل مثل الجسم والروح معا، فلا يتم الجسم بغير روح ولا الروح بغير جسم، إذا أردت المعالجة فتدبر أغذية الشيوخ والأطفال لأن علاج المرض على نوعين، ويجب على المعالج ألا يبدأ بأية معالجة ما لم يعرف أولا قوة المرض ونوع العلة وسببها، والمزاج والسن وصنعة المريض وكلامه وطبعه وطبع المكان وحال المزاج.

فصل

ينبغى أن يعرف الماء والمجس والجنس والعرض الظاهر والعلامات الحسنة والعلامات السيئة، وأنواع الرسوب، وعلامات الأمراض التى تقع فى الباطن، وعلامات البحران المضطربة، ويبين

أجناس الحميات، وعلى أى وجه يكون تدبير الأمراض الحادة، ويكون ماهرا فى تركيب الأدوية بتدبير مذهب أصحاب القياس وقوانين المعالجة. وإذا شرحت هذه كلا على حدة تطول القصة، ولكنى أقول من أى كتاب ينبغى طلب علم كل واحد منها ليكون معلوما لك فتطلبه فى وقت الحاجة.

أما حفظ الصحة فاطلبه من تدبير الأصحاء من جملة الستة عشر، ومعالجة المرضى وقوانين العلاج من حيلة البرء من جملة الستة عشر، واطلب العلامات الحسنة والسيئة من تقدمة المعرفة ومن فصول بقراط، وعلم النبض من علم النبض الكبير ومن النبض الصغير، واطلب علم البول من المقالة الأولى من كتاب البحران من جملة الستة عشر، ومن كتاب البول لجالينوس الذى هو خارج الستة عشر، وينبغى طلب علامات الأمراض التى تكون فى باطن الجسم من الأعضاء الألية، وعلم البحران من كتاب البحران من الستة عشر، وعلم الحميات من كتاب الحميات من الستة عشر أيضا، وينبغى طلب تدبير الأمراض الحادة من كتاب ماء الشعير من جملة تصانيف بقراط ومن كتب الأدوية التى يكون جالينوس قد صنفها.

ويجب على المعالج أن يقوم بتجارب كثيرة، ولا يعمل التجربة على أناس معروفين ومشهورين، ويجب أن يكون قد خدم فى البيمارستانات[1]، ورأى مرضى كثيرين وعالج كثيرا حتى لا تشكل عليه العلل الغريبة، ولا تخفى عليه علل الأحشاء، ويرى برأى العين ما يكون قد قرأه فى الكتاب، ولا يعجز فى العلاج، ويجب أن يكون قد قرأ وصايا بقراط حتى يستطيع أن يؤدى شرط الأمانة والصدق فى معالجة المرضى، وأن ينظف نفسه وثيابه دائما، وأن يكون مطيبا ومعطرا، وعندما يذهب إلى المريض يكون ناضر الوجه ومبتهجا وعذب الحديث، ويقوى المرضى لأن تقوية الطبيب للمريض تزيد قوة الحرارة الغريزية، وإن يكن مريض تظنه نائما ويجيب عندما تناديه ولكنه لا يعرفك ويفتح عينيه وينام ثانيا فهذه علامة سيئة، وإذا رأيته مدهوشا ويضرب يديه ورجليه بكل جهة ويثير نفسه فتلك علامة سيئة، وإذا كان مدهوشا أيضا ويصيح من آن لآخر ويأخذ بيده وأصابعه ويضغطها فهى علامة سيئة أيضا، وإذا كان بياض عين المريض أشد بياضا من المعتاد والسواد أشد سوادا، ويدير اللسان حول الفم ويسحب النفس من صدره فهى علامة سيئة، وإذا كان مريضا من الغيرة أو من الغم الشديد أو له نفس محرور يكون سيئا، وإذا كان المريض يتقايأ باستمرار قيئا ملونا أحمر وأصفر وأسود وأبيض أو لا يتوقف القىء يكون مخوفا أيضا، وإذا كان للمريض هزال وسعال يأخذ بصاقه على خرقة ويجففها ثم يغسل الخرقة، فإذا بقى أثر فهو علامة سيئة أيضا، ولا تداو هذه الجملة التى ذكرتها قط فالمعالجة لا تفيد ذلك المريض ما دامت فيه هذه العلامات، فيا بنى إذا عدت المريض ولم يكن شىء من هذه العلامات يجب أن تكون أكثر أملا.

---

(١) المستشفيات.

فصل

فعندئذ ضع يدك على مجس المريض فإذا نبض وجرى تحت الأصبع فاعلم أن الدم غالب، وإذا نبض تحت الأصبع رقيقا هينا وأكثر بطئا فالرطوبة غالبة، وإذا نبض تحت الأصبع بطيئا وغليظا وضعيفا فالسوداء غالبة، فإذا كان مخالفا، فاجعل حكمه على ذلك الجانب الذى ترى ميله إلى ناحيته أكثر، فإذا عرفت حال المجس فانظر إلى القارورة[1]، فإذا رأيت الماء أبيض غير شفاف يكون الرجل مريضا من الغم، وإذا كان أبيض وشفافا تكون العلة من الريح الخام والرطوبة غير الملائمة، وإذا كان مثل الماء الشفاف تكون من كراهية المريض، وإذا كان بلون الأترج وفيه ذرات، فالمرض من الإسهال، وإذا رأيت الماء مثل الزيت ويتراءى فى قاع البول خط تكون العلة قريبة العهد، وإذا رأيته بلون الزعفران فاعلم أنه مصاب بالحمى الصفراء وأن الدم مصاحب للصفراء أيضا، وإذا كان على سطح الماء صفرة وأسفل الماء مسودا تكون علته من البلغم الأخضر فلا تداوه، وإذا كان على سطح الماء سواد فكذلك، وإذا كان قاع البول يضرب إلى الصفرة أو يتحول سريعا إلى الخضرة وكان المريض يهذى، والماء أحمر ويميل إلى السواد يكون البلغم الأسود ممزوجا بالدم وقد ذهب لهبه إلى الرأس، فاحترز منه أيضا، وإذا كان أسود وقد استقر على سطحه شىء شبيه بالدم فودعه، وإذا كان أسود وبه شىء شبيه بالنخالة أو استقر فوقه ما يشبه الدم فلا تعد ذلك المريض، وإذا كان الماء أصفر ويبدو كالشمس اللامعة أو تكون هناك صفرة ضاربة إلى الحمرة فالعلة من الدم ويجب الفصد سريعا، وإن يكن أصفر وفيه خطوط بيضاء يطول المرض أكثر، وإذا كان أخضر اللون فالعلة من الطحال، وإذا كان فيه خضرة وسواد فهى من الالتهاب، وإذا رأيته أبيض وفيه شىء مثل الديدان الصغيرة فذلك ريح البواسير ولا يستطيع الجماع. فإذا رأيت الماء والنبض فابحث عندئذ عن جنس العلة لأن أجناس العلل ليست نوعا واحدا.

فصل

وإذا عرفت الجنس فلا تمعن فى الدواء والضماد مادام يكتفى بالغذاء، وما دام يكتفى بالسفوف والطلى فلا تمعن فى الحب والمطبوخ، وإياك أن تجترئ على المداواة فما دام الأمر يتم بالتسكين واللطف فلا تسرف فى الاستفراغ، وإذا كان الأمر سيخرج عن الحد فاشتغل بالدواء المحض ولا تشتغل بالتسكين، ولا تتهم المريض أبدا، ولا تكتب تعهدا ولا تحكم على المريض النهم[2] فإنه لا يقبل، ولكن ادفع مضرات تلك الأشياء التى يكون قد أكلها، وخير شىء للطبيب معرفة الدواء ومعرفة العلة، وتكلمت كثيرا فى هذا الباب لأنى أحب علم الطب إذ إنه علم معتبر، وتحدثت عنه

---

(١) البول.

(٢) الترجمة الحرفية: عبد البطن.

كثيراً لأن كل من يحب شيئا يكثر الحديث عنه، أما إذا لم يتفق لك هذا العلم فعلم النجوم علم شريف، فاجتهد في تعلمه لأنه علم عظيم جدا، ولذلك السبب كانت معجزة النبي المرسل، فهذا علم النبوة من غير شك، ولو أنه في هذا الوقت منسوخ بحكم شريعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.



الباب الرابع والثلاثون

فى علم النجوم والهندسة

إذا كنت منجما فاجتهد أن تحتمل أكثر العناء فى العلم الرياضى، إذ إن علم أحكام النجوم علم وافر لا يمكن أداء حقه تماما بغير خطأ؛ لأنه لا يوجد قط شخص يصيب بحيث لا يجوز عليه الخطأ، أما فى كل حال فثمرة النجوم الأحكام، وإذا عملت تقويما فالفائدة من التقويم هى الأحكام، فإذا لم يكن من الأحكام بد فاجتهد حتى تعرف أصولها جيدا، وتكون قادرا على التقويم، لأن أصل الحكم يصح عندما يكون تقويم النجوم صحيحا ويصح الطالع، وانظر فلا تعتمد على الطالع التخمينى إلا بالاستقصاء الشديد الذى تمهده بالحساب والجداول، وإذا صح الحساب والجداول يصح عندئذ الحكم الذى تعمله منها، ولا تأخذ بكل حكم تعمله مولودا وضميرا ما لم تتعرف حالات الكواكب والطالع ودرجة الطالع وصاحب الطالع والقمر وبروج القمر وصاحب برج القمر، وكيف يكون مزاج الكواكب فى كل برج، وصاحب خانة الحاجة وتلك الكواكب التى يكون قد عاد منها القمر، وذلك الكوكب الذى سيتصل به القمر، وذلك الكوكب الذى يكون مستوليا على درجة الطالع، وخانة ذلك الكوكب المستولى على درجة تسيير الكواكب، وتلك الكواكب الثابتة التى تكون قد وصلت إليها بالسير، ودرجة المنيرة والمسعودة، ودرجة المظلمة ودرجة الآثار، ودرجة المحترقة التى فى جرم الشمس، ولا تغفل عن الصاعد والهابط والأسهم الاثنى عشريات والدريجان وأرباب المثلثات والحد والشرف والهبوط والخانة والجناح والفرح والآفه والأوج والحضيض، ثم انظر فى حالات القمر والكواكب مثل : الخير والشر والنظر والمقارنة والاتصال والانصراف وبعيد النور وبعيد الاتصال وخالى السير والوحشى والدفع وفوت المكانات والقبول والتشريق والتغريب الاجتماعى والاستقبالى، ومعرفة الهيلاج والسيد والعطية ونقص وزيادة العمر وسوق التسييرات الخماسية، فإذا عرفت هذه كلها فتكلم عندئذ ليأتى حكمك صحيحا، واعتمد الحكم من التقويم بحيث يكون حل ذلك التقويم قد عمل من الزيج المعروف بالخطى، ونظر فى أوساطه وشوهد جيدًا مجموعه ومبسوطه وتؤمل فى تعديلاته، واحترز مع كل هذا من السهو والغلط حتى لا يقع خطأ، فإذا كنت قد عملت هذا الاحتياط فينبغى أن تثق بأن كل حكم قد عملته أنا سيكون كذلك، وإذا لم تعتمد على ذلك القول فلا يقع أى صواب، والمسألة التى تسأل عنها يمكن قول ضمير كل ما تقول بحيث يأتى

حكمك صوابا فى الأغلب، أما حديث المواليد فهكذا سمعت من أستاذى أن مولود الناس ليس فى الحقيقة أن يولد الولد من الأم؛ لأن المولود الأصلى هو طالع الزرع وقت مسقط النطفة حيث يسقط ماء الرجل فى رحم المرأة ويتقبله، فذاك الطالع منوط به أصل الخير والشر جميعا، أما تلك الساعة التى يولد فيها من الأم فذاك الطالع يقال له التحويلة الكبرى، وتحويلة العام التى تقع يقال لها التحويلة الوسطى، ويقال لتحويلة الشهور التحويلة الصغرى، ويجرى على الناس ما يكون فى طالع مسقط النطفة، ودليل هذا الكلام خبر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: (السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه). وكلام النبى له نفس المعنى الذى قلته.

أما فى طالع الزرع فليس لك كلام لأن ذلك لم ينسج على قامة من يكون مثلك، وأما هذا الذى تذكره عن طالع التحويلة الكبرى، فحافظ فيه على طريقة الأساتذة الماضين، واعمل فى كل حكم تعمله كما بينت من قبل هذا، فإذا سئلت مرة عن مسألة، فانظر أولا فى طالع الوقت ثم فى القمر وبرج صاحبه، وفى ذلك الكوكب الذى سيتصل به القمر، وفى ذلك الكوكب الذى قد عاد منه القمر، وفى ذلك الكوكب الذى تجده فى الطالع أو فى وتد. وإذا وجدت فى الوتد أكثر من كوكب فانظر أيا منها المستولى ولأيها تكون الشهادة أكثر، فتحدث عن ذلك الكوكب لتكون مصيبا.

فصل

إن ما هو شرط الأحكام هو هذا الذى ذكرته، والآن إذا كنت مهندسا ومساحا فكن قادرا فى الحساب، وإياك أن تكون ساعة واحدة غير مكرر للحساب، لأن علم الحساب علم وحشى، فإذا مسحت أرضا فاعرف الزوايا أولاً ولا تحتقر الأشكال المختلفة الأضلاع، ولا تقل إنى أعمل هذا بلون المساحة والباقى بالتخمين، لأن حساب المساحة يتفاوت كثيرا، واجتهد حتى تعرف الزوايا جيدا فإن أستاذى كان يقول لى دائما: حاذر حتى لا تغفل عن الزوايا فى الحساب، فكثيرا ما تكون فى ذوات الأضلاع زاوية قوسية على هذا المثال< أو على هذا ◄، وكثيرا ما تكون حادة شبيهة بالمنفرجة، وهنالك يكون الموضع الذى يحدث فيه تفاوت كثير، وإذا كان شكل مشكلا، فلا تعمل مساحته بالتخمين بل اعمله كله مثلثات أو مربعات فإنه لا يوجد شكل قط لا يخرج على هذا الشكل، وفى ذلك الوقت امسح كل واحد منها على حدة ليكون صحيحا، وإذا تكلمت فى هذا الباب كذلك يمكن أن يقال كثيرا، ولكن الكتاب يتحول عن حاله، ولم يكن بد عن هذا القدر من الكلام لأنى كنت قد تكلمت عن النجوم فأردت أن أتكلم بضع كلمات عن هذا الباب أيضا لتكون ذا حظ من كل علم.

الباب الخامس والثلاثون

فى رسم الشعر

إذا كنت شاعرا فاجتهد أن يكون كلامك سهلا ممتنعا، وتحاش الكلام الغامض، ولا تقل ما تعرفه ولا يعرفه سواك، فيحتاج إلى الشرح، لأن الشعراء يقولون الشعر من أجل الناس لا من أجل أنفسهم، ولا تقنع بالوزن والقوافى الفارغة، ولا تقل الشعر بغير صناعة وترتيب، لأن الشعر المجرد لا يكون لطيفا، وينبغى أن يكون ذا صنعة وحركة، ويجب أن يكون فى الشعر والإيقاع والصوت تطريب ليلذ الناس، أو تكون فى رسم الشعر صناعة مثل: المجانس والمطابق والمتضاد والمتشاكل والمتشابه والمستعار والمكرر والمردف والمزدوج والموازن والمضمن والمصغر والمسلسل والمسجع والمستوى والموشح والموصل والمقطع والمخلع والمسمط والمستحيل ذى القافيتين والرجز والمتقارب والمقلوب. أما إذا أردت أن يكون كلامك عاليا ويبقى فقل أكثر الكلام مستعارا وقل الاستعارة على الممكنات واستعملها فى المدح، وإذا قلت الغزل والغناء فأنظمه سهلا ولطيفا ومقفى ليكون معروفا، ولا تقل الكلمات العربية الباردة الغريبة، وقل الوجدانيات الغرامية والكلام اللطيف، واستخدم الأمثال الطريفة بحيث تلذ الخاص والعام، ولا تقل الشعر العروضى والثقيل، فإنما يدور حول العروض والأوزان الثقيلة من له طبع سقيم ويعجز عن اللفظ الحسن والمعنى الظريف، أما إذا طلبوا فعندئذ قل فإنه جائز.

واعرف علم العروض وتعلم الشعر والألقاب ونقد الشعر، حتى إذا ما وقعت مناظرة بين الشعراء أو كاشفك[1] شخص أو امتحنوك لا تعجز، وهذه هى البحور السبعة عشر التى تنشأ من دوائر العروض الفارسى، فاعرف أسماء هذه الدوائر وأسماء هذه البحور السبعة عشر مثل: الهزج والرجز والرمل والهزج المكفوف والهزج الأخرب والرجز المطوى والرمل المخبون والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والسريع والمجتث والمتقارب والقريب الأخرب والطويل[2]، والأوزان العربية مثل: البسيط والمديد والكامل والوافر وما أشبه ذلك فاعرفها جملة، وما تقوله من الشعر فى الزهد والمدح والغزل والهجاء والرثاء فأد حقه تماما، ولا تقل الكلام الناقص أبدا، ولا تقل فى النظم كل ما

(١) خاصمك.

(٢) لم يذكر بالأصل من أسماء هذه البحور السبعة عشر سوى ستة عشر وقد يكون اسم السابع عشر سقط سهوا فى النسخ.

يقال في النثر؛ لأن النثر مثل الرعية والنظم مثل الملك، فما يليق بالملك لا يليق بالرعية. وقل الغزل والترانيم الروية، وكن في المدح قويا وجريئا وعالي الهمة، واعرف ما يليق بكل إنسان، واجعل المدح الذي تقوله مناسبا للممدوح، ولا تقل لمن لم يشدد على وسطه مدية قط، إن سيفك يصرع الأسد، وإنك تقتلع بالرمح جبل بيستون، وتفلق الشعرة بالسهم. وذاك الذي لم يركب حمارا قط لا تشبه حصانه بدلدل[1] والبراق والرخش وشبدير، واعرف ما ينبغي أن يقال، ويجب على الشاعر أن يكون عارفا بطبع الممدوح ويعلم ما يروقه، لأنك ما لم تقل ما يريد فإنه لا يعطيك ما يلزمك، ولا تكن حقير الهمة ولا تدعُ نفسك في القصيدة بالعبد والخادم إلا في المدح الذي يكون فيه الممدوح أهلا لذلك، ولا تعتدْ الهجاء لأن الجرة لا تخرج دائما من الماء سالمة، أما إذا كنت قادرا على الزهد والتوحيد فلا تقصر، فإنه حسن في كلا الدارين، ولا تخرج بالكذب عن الحد في الشعر ولو أن المبالغة في الشعر فن، واجعل رثاء الأصدقاء والمحتشمين واجبا أيضا، وإذا أردت أن تهجو فقل على عكس ما تمدح به شخصا في المدح، لأن كل ما يكون ضد المدح هجاء. وكذلك في الغزل والرثاء.

ولكن قل كل ما تقوله من جعبتك، ولا تحم حول أقوال الناس ليتفتح طبعك، ويتسع عليك ميدان الشعر، ولا تبقى على تلك القاعدة التي تكون قد دخلت بها الشعر في البداية، أما إذا كنت قد صرت قادرا على الشعر وتفتح طبعك وبرعت، فإن تسمع معنى غريبا في موضع وراقك وأردت أن تأخذه وتستعمله في موضع آخر فلا تكابر ولا تستعمل نفس اللفظ بعينه، فإذا كان ذلك المعنى في المدح فاستعمله في الهجاء، وإذا كان في الهجاء فاستعمله في المديح، وإذا سمعته في الغزل فاستعمله في الرثاء، وإذا سمعته في الرثاء فاستعمله في الغزل، حتى لا يعرف أحد من أين هو، وإذا طلبت الممدوح وحمت حول السوق فلا تكن مدبر الوجه قذر الثياب، وكن دائما ناضر الوجه وباسما، واحفظ الحكايات ونوادر الكلام والمضحكات الكثيرة وقلها أمام الممدوح لأنه لا بد للشاعر من هذا.

---

(١) بغلة علي كرم الله وجهه.

الباب السادس والثلاثون

فى الغناء

أى بنى ، إذا كنت مغنيا فكن حسن الطبع خفيف الروح ، واجعل نفسك دائما نظيف الثياب ومطيبا ومعطرا ، وكن ذلق اللسان ، وإذا دخلت فى دار للغناء فلا تكن عابس الوجه منقبضا ، ولا تعزف كل الطرق الثقيلة ، وكذلك لا تعزف الطرق الخفيفة[1] ، فليس شرطا أن يكون الضرب من نوع واحد فى كل وقت ، لأن كل الناس ليسوا على طبع واحد ، وكما أن الخلق مختلف فالخُلق مختلف كذلك ، ولهذا السبب قد وضع أساتذة الملاهى ترتيبا لهذه الصناعة ، فقد أعدوا أولا عزف اللحن الخسروانى لمجلس الملوك ، ووضعوا من بعد ذلك الألحان بالوزن الثقيل ، بحيث يمكن أن ينشد بها النشيد ، وسموا ذلك طريقة ، وتلك طريقة قريبة من طبع الشيوخ وأصحاب الجد ، فهذه الطرائق الثقيلة قد أعدت من أجل هؤلاء القوم ، ولما رأوا أن الخلق ليسوا كلهم شيوخا وأهل جد قالوا قد وضعنا طريقة من أجل الشيوخ ونضع كذلك طريقة من أجل الشبان ، ثم بحثوا وجعلوا الأشعار الأخف فى الوزن على الطرق الخفيفة ، وسموها الخفيف ليضربوا من هذا الخفيف بعد كل طريقة ثقيلة ، حتى يكون للشيوخ وللشبان أيضا نصيب فى نوبة الطرب ، ولئلا يحرم الأطفال والنساء والرجال الألطف طبعا صنفوا الترانيم من أجلهم ليجدوا المتعة[2] أيضا ، لأنه لا يوجد قط وزن من الأوزان ألطف من وزن الترانيم ، فلا تضرب ولا تغن الكل من نوع واحد ، ونحن حسبما ذكرت ليحظى كل شخص بسماعك ، وانظر فى المجلس الذى تجلس فيه ، فإذا كان المستمع أحمر الوجه ودمويا فأكثر الضرب على البم ، وإذا كان أصفر الوجه وصفراويا فأكثر الضرب على الزير . وإذا كان أبيض البشرة وسمينا ومرطوبا فأكثر الضرب على البم ، وإذا كان أسود ونحيفا وسوداويا فأكثر الضرب على الـ (سه تاره) ؛ لأن هذه الأوتار أعدت على طبائع الناس الأربع ، ولو أن هذا الذى ذكرته ليس من شروط الغناء ، فإنى أردت أن أطلعك على هذا المعنى ليعلم لك ، وكن فضلا عن ذلك محاكيا ، لتستريح على مقدار الحكاية والمطايبة والممازحة حتى يخف عناء غنائك ، وإذا كنت مغنيا

---

(١) أى : لا تغن الألحان كلها ثقيلة ولا كلها خفيفة .

(٢) الترجمة الحرفية : الراحة .

وتعرف قرض الشعر كذلك، فلا تكن عاشقا لشعرك، ولا تجعل كل الرواية منه، إذ كما يروقك شعرك قد لا يروق أولئك القوم، ولأن المغنين رواة الشعراء لا رواة شعرهم. ثم إذا كنت لاعب نرد ودعيت للغناء وكان هنالك شخصان يلعبان النرد معا فلا تبطل غنائك وتجلس لتعليم النرد أو تنشغل بالنرد والشطرنج، لأنك قد دعيت للغناء لا للمقامرة، وراع الذوق أيضا فى الغناء الذى تتعلمه، ولا تغن الغزل واللحن غير الموزون، ولا تتعلم ما يكون قبيحا، لأن غناءك شيء ولحنك شيء آخر، وإذا كنت عاشقا لشخص فلا تبث شجونك كل يوم، لأنه وإن يطب لك هذا لا يطيب للآخرين، وغن كل أغنية فى معنى آخر، وأكثر من دراسة الشعر والغزل فى الفراق والوصال والتوبيخ والملامة والعتاب والرد والمنع والقبول والوفاء والجفاء والإحسان والعطاء وكل الوجدانيات الوقتية والفصلية، مثل الأغانى الربيعية والخريفية والشتوية والصيفية، ويجب أن تعرف ما ينبغى أن يقال فى كل وقت، فلا ينبغى أن تغنى الخريفية فى الربيع والربيعية فى الخريف والشتوية فى الصيف والصيفية فى الشتاء، ويجب أن تعرف وقت كل أغنية، وانظر فى شأن الحرفاء، وإن تكن أستاذا بلا نظير، فإذا كان القوم من الخواص والشيوخ العقلاء الذين يعرفون حرفة الغناء، فغن كثيرا واعرف الألحان اللطيفة، ولكن أكثر من الغناء فى الشيخوخة ومذمة الدنيا، وإذا كان القوم شبانا وصبيانا فأكثر من ضرب الطرائق الخفيفة وغن الأغانى التى تكون قد قيلت فى وصف النساء أو فى مدح النبيذ وشاربى النبيذ، وإذا رأيت القوم عسكريين وعيارين فغن دوبيتات ما وراء النهر، وفى الحرب وإراقة الدماء ومدح العيارية، ولا تكن مزعجا، ولا تضرب كل الألحان الخسروانية وتقل إن هذا هو شرط الطرب، فاضرب أولا شيئا فى نغمة (الراست) ثم ألق على الرسم بكل نغمة مثل نغمة (العراق) ونغمة (العشاق) ونغمة (الزير) وغن نغمة (البوسليك) ونغمة (أصفهان) ونغمة (النوا) ونغمة (البسته) ونغمة (الحسينى) ونغمة (الباخرز) لتؤدى شرط الطرب، ثم اذهب عندئذ إلى مقام الترانة فإلى أن توفى شرط الطرب يكون الحرفاء قد ثملوا وراحوا، ولكن انظر أية طريقة يحبها كل شخص، وعندما يصل القدح إليه قل ما يريد ليعطيك هو ما تريده أنت، لأن أكبر مزية للمغنى أن يماشى طبع المستمع، ولا تسبق إلى تعاطى الخمر وطلب السيكى الكبير فى المجلس الذى تكون فيه، وقلل من شرب النبيذ إلى أن تحصل على المال، وإذا حصلت مقصودك ووجدت المال، فعندئذ أسلم نفسك للنبيذ، ولا تخاصم السكارى أثناء الغناء فى الأغنية التى يطلبونها، وإن يكن محال فلا تفكر فيه ودعهم ليقولوا، وإذا شربت النبيذ وسكر الناس، فلا تدخل فى المناظرة والمحاكاة مع أقرانك، لأن المال لا يحصل من المناظرة، وتكون قد أضجرت الناس فقط، وراع ألا تعربد مع مطرب آخر فيضيع أجر الغناء بسبب عربدتك وتعود إلى البيت مهشم الرأس والوجه وممزق الثياب ومحطم الآلات، إذ إن المغنين أجراء السكارى، وتعلم أنهم لا يأجرون الأجير (المعربد)، وإذا مدحك شخص فى المجلس فتواضع له وغن ما يريد ليثنى عليك الآخرون، فالثناء يكون أولا بغير مال فى حالة الصحو، فإذا سكر يأتى المال

بعد ذلك الثناء ، وإذا تشدد السكارى فى طريقة أو أغنية كما هى عادة السكارى فلا ينبغى أن تمل حتى يحصل عندئذ غرضك منهم ؛ لأن أحسن فضيلة للمطربين هى الصبر الذى يبدونه مع السكارى ، وإذا لم يصبروا يبقون محرومين دائما ، وقد قالوا كذلك ، إن المطرب يجب أن يكون أصم وأعمى وأبكم ، فلا تكون له أذن حيث لا ينبغى أن تكون له ، ولا ينظر حيث لا ينبغى له النظر ، وحيثما يذهب لا يذكر شيئا يكون قد رآه أو سمعه فى مكان آخر ، لأ ن مثل هذا المطرب يكون دائما مع المضيف .



الباب السابع والثلاثون

فى خدمة الملوك

إذا اتفق أن تكون من جملة حاشية الملك وتتصل بخدمته فمهما مكنك الملك لديه فلا تغتر بقربه وتباعد، ولكن لا تهرب من الخدمة إذ من قرب الملك ينشأ البعد، ومن خدمته يحصل القرب، وإذا آمنك يوما من نفسه فكن غير آمن ذلك اليوم، لأن كل من يسمن من شخص يجب أن يتوقع منه الإسراع فى ذبحه، ومهما تكن عزيزا فلا تغفل عن عرفان نفسك، ولا تقل أى كلام إلا على مراد الملك، ولا تلج معه، فقد قيل فى المثل: إن كل من يلج مع الملك يموت قبل الأجل، والضرب بالقبضة على المخراز حمق. ولا ترشد مليكك إلا إلى عمل الخير، وإذا علمته السوء يسيء إليك.

حكاية

فى أيام فضلون ماماان أبى الأسوار الذى كان ملك كنجة وأران، كان ديلمى محتشم مشيرا له، وكان كل شخص من محتشمى المملكة يرتكب جرما يستوجب عليه القيد والحبس يقبض عليه فضلون ويجعله فى السجن، وكان هذا الديلمى - المشير له - يقول للأمير لا تؤذ الحر فإذا آذيته فاقتله، وقد هلك عدة أشخاص من المحتشمين بمشورته، واتفق أن أذنب هذا الديلمى، فأمر الأمير بأن يقبض عليه ويودع فى السجن، فأرسل الديلمى شخصا يقول: إنى أدفع كذا من المال فلا تقتلنى، فقال فضلون ماماان: إنى تعلمت منك: ألا تؤذ الحر وإذا آذيته فاضرب عنقه فأتلف الديلمى نفسه فى سبيل تعليم السوء.

وإذا ذممت من أجل الخير فهو أحب عندى من أن تمدح من أجل الشر، واعرف أن آخر كل الأمانى النقصان، ولا تغتر بالجاه، واطلب من عمل السلطان الحشمة لا النعمة، لأن النعمة تأتى جارية من بعد الحشمة، وعز خدمة السلطان من الغنى، ومهما تسمن فى عمل الملك فأظهر نفسك نحيلا لتكون آمنا، ألا ترى أن الخروف ما دام هزيلا يأمن الذبح ولا يسعى أحد فى ذبحه، فإذا سمن يطمع الكل فى ذبحه، ولا تكن بائعا لسيدك من أجل الدرهم؛ لأن درهم السلطان مثل الورد والسَّمن[1] الذى يجعل نفسه فى يوم واحد جميلا وعطرا وعزيزا ولكنه قصير العمر كالورد، وحيث إن منافع عمل

(١) زهر خاص زكى الرائحة.

السلطان مثل الورد لا يمكن إخفاؤه، وكل درهم يجمع فى عمل السلطان أكثر انتشارا من غبار العالم، وحشمة خدمة الملوك خير رأس مال، والدرهم الذى يجمع منها هو الربح، فلا تدع رأس المال من يدك من أجل الربح، لأنه ما دام رأس المال باقيا يدوم أمل الربح، وإذا ذهب رأس المال من اليد لا يمكن الوصول إلى الربح، وكل من يجعل الدرهم أعز من نفسه يهوى من العزة إلى الذلة، واعلم أن الرغبة فى جمع المال هى هلاك العز وعزل الأعزاء، إلا أن تجمع بحد ومقدار وتعطى الخلق نصيبا لتنعقل ألسنتهم، وإذا صرت عظيما فى خدمة السلطان وأحرزت مرتبة فلا تخن سيدك أبدا، فإنك إن تفعل يكن ذلك بقلم الشقاء، لأنه عندما يرفع كبير صغيرا ويكافئ هو ذاك الولى النعمة بالخيانة يكون ذلك دليلا على أن الله تعالى يريد أن يسترد منه هذه الرفعة، لأنه لو لم يصل سوء الحظ إلى ذلك الرجل لما جزى إحسان سيده بالإساءة.

حكاية

وكذلك عندما أرسل الأمير فضلون أبو السوار أبا البشير الحاجب إلى بروع للقيادة، قال أبو البشير لا أذهب ما لم يحل الشتاء، لأن ماء بروع وهواءها رديئان جدا خاصة فى الصيف، وقد طال الكلام فى هذا المعنى، فقال الأمير فضلون لم يلزم أن تعتقد مثل هذا الاعتقاد حيث إنه لا يموت أحد قط بغير أجل. قال أبو البشير هو كما يقول الملك، لا يموت شخص قط بغير أجل. ولكن ما لم يكن قد حان أجله فإنه لا يذهب إلى بروع.

وفضلا عن ذلك لا تكن غافلا عن عمل الصديق والعدو ليصل نفعك وضرك إليهما، وتطيب العظمة بأن تكافئ الصديق والعدو بالإحسان والإساءة، ولا ينبغى للرجل الذى صار محتشما أن يكون شجرة بغير ثمر، ويطلب الغنى من العظمة، والشخص الذى لا نفع منه ولا ضر مثل اليهودى الذى له مائة ألف دينار، وليس له اعتبار، لأن نفعه وضره لا يصلان إلى الناس، فاعلم أن منافعك من نعمة قضاء الحاجات، ولا تكف المروءة عن الناس، فإن حضرة النبى صلى الله عليه وسلم قد قال: (خير الناس من ينفع الناس) ولا تطلب خدمة السيد الذى تكون دولته قد بلغت الغاية، لأنها تكون قريبة إلى النزول، ولا تحم حول الدولة التى قد شاخت، لأنه مهما يكن للشيخ عمر باق فإن الناس يرونه أقرب إلى الموت من الشبان، وكذلك قلما يكون شيخ تفى له الأيام، وإذا أردت أن تبقى فى خدمة ملك، فكن كما قال العباس عم النبى عليه السلام لابنه عبد الله: اعلم يا بنى أن هذا الرجل ـ يعنى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ـ قد استعملك لديه واعتمد عليك من جملة الخلق. والآن إذا أردت ألا يتغلب عليك الأعداء فارع خمس خصال لتكون آمنا: يجب أولا: ألا يسمع منك الكذب قط، ثانيا: لا تغتب أحدا عنده، ثالثا: لا تخنه أبدا، رابعا: لا تخالف أمره، خامسا: لا تفش سره لأى إنسان. لأنه يمكن بهذه الأشياء الخمسة حصول المقصود من خدمة المخلوق، وكذلك لا تقصر فى خدمة ولى نعمتك. وإذا وقع تقصير فلا تظهر نفسك له مقصرا، كيلا يعرف

أنك فعلته قصدا، ويعد ذلك التقصير فى الخدمة منك جهلا لا قلة أدب وعصيانا، لأن الجهل لا يؤخذ ذنبا عليك، ويعدون قلة الأدب وعدم الطاعة ذنبا، وكن دائما مشغولا بالخدمة قبل أن يأمرك، وكل ما يريد عمله شخص آخر فاجتهد أن تعمله أنت، وكن بحيث كلما يراك، ويراك فى خدمة من خدماته، وكن دائما حاضرا فى البلاط بحيث كلما طلب أحدا يجدك، لأن همة الملوك أن يكونوا دائما فى تجربة أتباعهم، فإذا طلبك مرة ومرتين وعشر مرات ووجدك كل مرة فى خدمة ويراك مقيما فى بلاطه يعتمد عليك فى الأعمال العظيمة كما يقول قمرى الجرجانى:

بيت

الكـــلام عنـــدك مخـــاطـــــــرة لنــــــا وبالمخاطرة يستخرج الجوهر من هذا البحر

* * *

وما لم تتحمل عناء الضعة لا تصل إلى راحة الرفعة، ألا ترى أنه ما لم يتفتت ورق الوسمة لا يصير نيلا، وأن الحق جل جلاله خلق الملك بحيث يكون كل خلق العالم محتاجون إلى خدمته وعبوديته، ولا تظهر نفسك لدى الملك حسودا، لأنك إذا ذكرت بعد ذلك عنده كلاما عن شخص محسود لا يسمع ويعده من جملة الحسد وإن يكن حقا، واخش دائما غضب الملك إذ لا يجوز الاستهانة أبدا بشيئين: أولهما غضب الملك، ثانيهما نصيحة الحكماء، لأن كل من يستهن بهذين الشيئين يهون.

هذه هى شروط خدمة الملك، فإذا كان الأمر بحيث تجاوزت هذه الدرجة وبلغت مقاما أسمى وصرت إلى منادمته فينبغى أن يعلم لك شرط منادمة الملك، وسأذكر ذلك أيضا.

الباب الثامن والثلاثون

فى آداب المنادمة

إذا أسند إليك الملك المنادمة، فلا تقبل إذا لم تكن عندك آلة منادمته؛ فإن كل من ينادم الملك ينبغى أن تكون فيه بضع خصال، بحيث إذا لم يكن لمجلس الملك منه زين فلا يكون على الأقل شين، فيجب أولا أن تكون كل حواسه الخمس طوع أمره، ثم يجب أن يكون ذا لقاء بحيث لا تكون للناس كراهية من رؤيته لئلا يمل مرآه ولى نعمته هذا أيضا، وكذلك يجب أن يعرف الكتابة بالعربية والفارسية، فإذا ما وقعت للملك حاجة إلى قراءة وكتابة شىء فى وقت ما بالخلوة ولا يكون الكاتب حاضرا ويأمرك الملك بقراءة أو كتابة كتاب لا تبقى عاجزا، ثم ينبغى أن يعرف النديم ردىء الشعر وجيده إن لم يكن شاعرا، ولا يخفى عليه النظم، وأن يحفظ الأشعار الفارسية والعربية حتى إذا ما وقعت للملك حاجة إلى بيت من وقت لآخر لا يلزم طلب شاعر فيقول بنفسه أو يرويه عن شخص، وكذلك يجب أن يعرف شيئا من الطب والنجوم حتى إذا ما جرى حديث عن هاتين الصناعتين أو وقعت حاجة فى هذا الباب تقول ما تعرفه إلى أن يأتى الطبيب والمنجم؛ لتكون قد أديت شرط المنادمة فيصير للملك اعتماد عليك ويكون أكثر رغبة فى خدمتك ومنادمتك، ويجب أن يكون للنديم باع فى الملاهى، وأن يعرف عزف شىء حتى إذا ما صارت للملك خلوة لا يكون للمطرب فيها موضع تطيب وقته بما تعرفه؛ ليكون مشفقا عليك بهذا السبب ويزيد العناية بك، ويجب أيضا أن تكون محاكيا وتحفظ حكايات ومضحكات كثيرة ونوادر بديعة؛ لأن المنادمة بغير الحكايات والنوادر تكون ناقصة، ويجب كذلك أن تعرف لعب النرد والشطرنج ولكن لا بحيث يكون مقامرا، فإنك لا تليق بالمنادمة عندما تكون مقامرا بطبعك، ومع كل هذا الذى ذكرته يجب أن تحفظ القرآن أيضا، وأن تعرف شيئا من التفسير كذلك، وشيئا من أخبار الرسول عليه السلام، وألا تكون جاهلا فى الفقه وعلم الشريعة من كل نوع حتى إذا ما جرى فى مجلس الملك حديث فى هذا المعنى تعرف الإجابة، فلا يتحتم الذهاب فى طلب القاضى أو الفقيه، وينبغى كذلك أن تكون قد قرأت كثيرا سير الملوك لتحكى عند مولاك خصال الملوك الماضين فتؤثر فى قلب الملك ويكون لعباد الحق تعالى فى ذلك نفع وتفريح، ويجب أن يكون فيك جد وهزل كذلك، وأن تعرف حتى يكون وقت استعمالهما، فلا تقل الهزل فى وقت الجد، ولا تقل الجد فى وقت الهزل، لأن كل علم تعرفه ولا تعرف استعماله يكون العلم

والجهل به سيان، ويجب أن يكون فيك مع كل هذا الذى ذكرته فروسية ورجولة، لأن الملك لا يشتغل كل وقت باللهو والطرب، فإذا لزم إبداء الرجولة فى وقت ما فابدها، ويكون لك القدرة على أن تقاوم رجلا أو رجلين، وإذا دبر شخص والعياذ بالله خيانة أثناء اللهو فى الخلوة ـ ضد الملك ـ وتقع حادثة من جملة الحوادث تؤدى أنت ما يكون من شرط الرجولة، ليجد ولى النعمة الخلاص بسببك، فإذا قتلت تكون قد أديت حق نعمته وذهبت بسمعة طيبة، ويكون حق أبنائك قد وجبت على ذلك الملك، وإذا نجوت تكون قد لقيت بذلك السمعة الطيبة والعيش الحسن ما حييت، وإذا كان هذا الذى ذكرته موجودا فيك تكون جديرا بمنادمة الملك، وإذا كان الغرض من المنادمة أكل الطعام وتناول الشراب وأن تعرف قول الهزل فحسب فتلك لا تكون منادمة بل تكون لؤما، فاشتغل بالمنادمة العامة حتى لا تصير تلك الخدمة وبالا عليك، وكذلك لا تغفل عن مولاك ما بقيت، ولا تنظر فى مجلس الملك إلى غلمانه، وإذا أعطاك الساقى القدح فلا تنظر إلى وجهه، وأطرق برأسك إذ تأخذ النبيذ واشرب وردَّ القدح بحيث لا تنظر إليه حتى لا يحصل للملك تخيل فيك، واحفظ نفسك حتى لا تقع منك خيانة كما وقع للقاضى عبد الملك العكبرى.

حكاية

سمعت أن الخليفة المأمون أسند للقاضى عبد الملك منادمته الخاصة، إذ إن عبد الملك كان مدمنا للنبيذ وعزل من القضاء لهذا السبب، وذات يوم قدم غلام النبيذ إلى هذا القاضى فى مجلس الشراب فلما أخذه نظر إلى الغلام وأشار إليه بعينه فنظره المأمون ورآه، فعرف عبد الملك أن المأمون رأى تلك الإشارة فأبقى عينه نصف مفتوحة كذلك، فسأله المأمون بعد ساعة عمدا قائلا: أيها القاضى ماذا حدث لعينك؟ فقال عبد الملك لا أدرى، أغمضت فى هذه الساعة فلم يفتح ما عاش بعد ذلك عينه تماما أبدا فى السفر والحضر وفى الخلا والملا حتى زال ذلك الغبار من قلب المأمون.

فينبغى أن يكون لمن ينادم الملك مثل هذه الكفاية.

الباب التاسع والثلاثون

فى الكتابة والإنشاء

إذا كنت كاتبا فينبغى أن تكون قادرا على الكلام ولك خط حسن، وألا تعتاد التجاوز فى العبارة، وأن تتعود كثرة الكتابة لتصير ماهرا.

حكاية

سمعت أن الصاحب إسماعيل بن عباد كان يوم السبت بالديوان يكتب شيئا، فالتفت إلى الكتاب وقال: إنى كل يوم سبت أرى فى كتابتى نقصانا لأنى لم أكن يوم الجمعة قد أتيت إلى الديوان، ولم أكتب شيئا.



فاشتغل دائما بالكتابة بخط واضح مبين مستقيم وعبارة منسجمة محكمة، وينبغى كتابة الكتاب بحيث يستخدم كثرة الأغراض والمعانى فى كلام موجز كما قيل:

بيت

الكتاب المليء بالمعانى فى حديث مختصر   نكتــه قـــد خــرجت من فم الــدهر

وزيّن كتابك بالاستعارات والأمثال والآيات القرآنية والأخبار النبوية، وإذا كان كتابا فارسيا فلا تكتبه بالفارسية المطلقة لأنها غير حسنة وخاصة الفارسية الدارية إذ إنها غير معروفة، فلا ينبغى أن يكتب ذلك بأى حال والأولى ألا يقال، وتكلفات الكتاب العربى معروفة كيف يجب أن تكون، والسجع فى الرسالة العربية براعة وحسن جدا ويستملح، ولكنه يقبح فى الرسائل الفارسية، فإذا لم تذكره أفضل، ولكن قل كل كلام تتحدث به عاليا ومستعارا وعذبا ومختصرا، وينبغى أن يكون الكاتب دراكا وأن يعرف أسرار الكتابة ويفهم العبارات المرموزة.

حكاية

سمعت أن جدك السلطان محمود رحمه الله كتب كتابا إلى خليفة بغداد القادر بالله، وقال يجب أن تمنحنى ما وراء النهر، وتعطينى منشورا بذلك لأعرض المنشور على الولاية، فإما أن آخذ الولاية بالسيف وإما أن تطيعنى الرعية بأمرك ومنشورك، فقال الخليفة ليس فى كل ولايات الإسلام أحد

أطوع منهم، معاذ الله أن أعمل هذا العمل وإذا قصدتهم بغير أمرى فإنى أثير العالم عليك، فغضب السلطان محمود من هذا الكلام، وقال للرسول قل للخليفة ماذا تقول؟ هل أنا أقل من أبى مسلم؟ لقد وقع لى هذا الأمر معك، هأنذا قدمت بألف فيل لأخرب دار الخلافة بأقدام الفيلة وآتى بترابها على ظهور الفيلة إلى غزنين، وهدد تهديدا عظيما، فذهب الرسول وعاد بعد ذلك بمدة، فجلس السلطان محمود واصطف الحجاب وغلمان السراى، وأقيمت الفيلة على باب القصر وعبئ الجند وأذن للرسول فدخل، ووضع أمام السلطان محمود كتابا يقرب من ربطة من الورق المنصورى بقطع متصل وملفوف ومختوم وقال: إن أمير المؤمنين يقول قرأنا كتابك وسمعنا تحميلك وهذا هو جواب كتابك وتحميلك مكتوب كله فى هذا الكتاب. فمد السيد أبو النصر مشكان ـ الذى كان عميد ديوان الرسائل ـ يده ورفع الكتاب وفضه ليقرأه، وكان هذا مكتوبا فى أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم ثم وضع سطر هكذا (ألم) وآخر الكتاب (الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين) ولم يكتب شىء آخر، فوقع السلطان محمود مع كل الكتاب فى الحيرة قائلين ما هو هذا الكلام المرموز؟ وقرأوا كل آية فى القرآن كانت (ألم) وفسروها فلم تكن قط جواب محمود، وآخر الأمر كان السيد أبو بكر القهستانى شابا ولم يكن له بعد درجة الجلوس، وكان واقفا بين الندماء الذين كانوا وقوفا فقال: يا مولاى إن الخليفة لم يكتب (ألف ولام وميم) بل إن السلطان كان قد هدده بالفيلة وقال إنى آتى بدار الخلافة على ظهور الفيلة إلى غزنين، وقد كتب جواب السلطان ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (الفيل: ١)، يرد جواب فيلة السلطان.

سمعت أن السلطان محمود وقع مغشيا عليه ولم يفق إلى مدة طويلة، وبكى كثيرا وناح كما كانت ديانة ذاك الملك وطلب من الخليفة المعذرة وتلك القصة طويلة، وأمر لأبى بكر القهستانى بخلعة ثمينة وأجاز له أن يجلس بين الندماء، ونال بهذه الكلمة الواحدة درجة عظيمة.

حكاية

وسمعت أيضا أنه فى أيام السامانيين كان الأمير أبو على سيمجور، الذى كان بنيسابور، كان يقول أنا القائد وأمير خراسان ولكن لم يكن يذهب إلى البلاط، وكان ذلك آخر عهد دولة السامانيين، ولم تكن لهم قوة بحيث يأخذون أبا على بالعنف، فكانوا يرضون منه مضطرين بالخطبة والسكة والهدية، وكان عبد الجبار الخوجانى ـ الذى كان خطيب خوجان ـ يعرف القصة جيدا وأديبا وكاتبا جلدا وكيسا وكامل الرأى وكفئا لكل عمل، فأحضره الأمير أبو على من خوجان وأسند إليه الكتابة فى حضرته، وأمر له بكامل التمكين، ولم يكن يعمل أى عمل بغير مشورته[1]؛ لأنه كان رجلا ذا كفاية، وكان أحمد رافع يعقوب كاتب حضرة أمير خراسان، وكان رجلا فاضلا جدا

(١) الترجمة الحرفية: ولم يكن فى أى شغل بغير مشورته.

ومحتشما، وكانت أعمال ما وراء النهر تحت قلمه، وكان لأحمد رافع صداقة مع عبد الجبار ـ بغير سابق ممالحة وملاقاة بينهما ـ ولكنهما بمناسبة الفضل كان يتصادقان مع أحدهما الآخر بالمكاتبة، وذات يوم قال أمير خراسان للأمراء لو لم يكن عبد الجبار الخوجاني كاتبا لأبي على سيمجور لكان من الممكن الإتيان بأبي على باليد، فإن كل فتنة أبي على هذه من كفاية وتدبير عبد الجبار، فيجب كتابة كتاب لأبي على والقول له: إذا كنت بطاعتنا وعبدا لنا فينبغي عندما يصلك هذا الكتاب أن تفصل رأس عبد الجبار عن جسده في الحال، وتضعها في مخلاة وترسلها بيد هذا القاصد إلى الداركاه[1] حتى نعلم أنك في طاعتنا، ومعلوم لنا أن كل ما تفعله إنما تعمله بمشورته، وإلا فإني أنا أمير خراسان هأنذا آتيك بنفسي فاستعد للحرب، فلما دبروا هذا التدبير قالوا لا ينبغي بأي حال أن يكون هذا الكتاب بخط أحمد رافع لأنه صديق عبد الجبار، ولا بد أن يرسل شخصا ويطلعه على هذه الحال ويفر عبد الجبار، فدعا أمير خراسان أحمد وأمره بأن يكتب كتابا لأبي على في هذا الباب، وقال إذا كتبت الكتاب فإني لا أريد أن تخرج من هذه السراى ثلاثة أيام بلياليها ولا يراك في هذه الأيام الثلاثة أي شخص لك أو من أتباعي؛ لأن عبد الجبار صديقك فإذا لم يقبض عليه أعرف أنك قد أخبرته وأنه طليقك، فلم يستطع أحمد رافع أن يقول شيئا فكان يبكي ويقول لنفسه: يا ليتني لم أكن كاتبا أبدا حتى لم يكن صديق بكل هذا العلم والفضل يقتل بخطي، ولا أعرف أي تدبير لهذا الأمر، وأخيرا تذكر هذه الآية: ﴿أن يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا﴾ (المائدة: ٣٣). فقال لنفسه ولو أنه لا يعرف هذا الرمز ولا يقع على سر هذا المرموز فإني أؤدي ما يكون من شرط الصداقة، فلما كتب الكتاب عنونه وكتب على زاوية الكتاب (ألفا) بقلم رفيع وعلى الجانب الآخر (نونا) يعني ﴿أن يُقَتَّلُوا﴾ وعرض الكتاب على أمير خراسان ولم يلتفت أحد إلى العنوان فلما قرأوا الكتاب ختموه وأعطوه للجماز[2] الخاص ولم يطلعوا الجماز على هذه الحال، وقالوا له اذهب وسلم هذا الكتاب للأمير على سيمجور، وخذ ما يعطيه لك وأت به، واعتقلوا أحمد رافع ثلاثة أيام بلياليها فذهب إلى بيته بعد ثلاثة أيام بقلب دام، ووصل المجمز إلى نيسابور وذهب إلى الأمير أبي على وسلمه الكتاب حسب الرسم، فرفع أبو على الكتاب وقبله وسأل عن حال سلامة أمير خراسان، وكان عبد الجبار الخطيب جالسا فسلمه الكتاب وقال فض الخاتم واعرض الأمر، فأخذ عبد الجبار الكتاب ونظر إلى العنوان، وقبل أن يفض الختم رأى ألفا مكتوبة على زاوية وعلى الزاوية الأخرى نونا فتذكر في الحال هذه الآية ﴿أن يُقَتَّلُوا﴾ فعرف أن الكتاب في باب قتله. فوضع الكتاب من يده كما هو بالختم ووضع يده على أنفه يعني جاءني رعاف من الأنف، وقال إذهب وأغتسل وأعود، وهكذا ذهب من عند أبي على ويده موضوعة على أنفه وخرج من الباب وتوارى بمكان، وانتظروه زمانا، فقال أبو على نادوا الخاجة[3] فطلبوه في كل مكان ولم يجدوه، فقالوا إنه لم يركب جوادا وذهب ماشيا ولم يذهب إلى

(١) البلاط أو قصر الأمير.

(٢) أي: راكب الهجين.

(٣) تكتب بالفارسية: خواجة. ولا تنطق الواو ومعنى هذه الكلمة السيد وتستعمل أحيانا بمعنى الوزير.

البيت ولا يعرف أحد أين هو، فقال أبو على ادعوا كاتبا غيره، فجاء وقرأ الكتاب أمام المجمز، فلما علم الحال تعجب الخلق جميعا قائلين من أخبره بما كتب فى هذا الكتاب؟ فأظهر الأمير أبو على بعض الضجر فى حضور المجمز ولو أنه كان مسرورا بذلك ونادوا فى المدينة، وأرسل عبد الجبار شخصا فى الخفاء قائلا إنى قد أقمت متواريا فى المكان الفلانى فسر أبو على بذلك وشكر الحق تعالى، وأمره قائلا ابق بنفس المكان الذى أنت فيه، فلما انقضت بضعة أيام أعطى المجمز خلعة حسنة وكتب جواب الرسالة قائلا: إن الحال كان على هذه الجملة، وأقسم الأيمان قائلا إنى لم يكن لى خبر بهذا والجماز شاهد على هذه الحال، فلما وصل الجماز وعلم الحال عجز أمير خراسان فى ذلك وأرسل بخطه وختمه قائلا إنى عفوت عنه بشرط أن يقول بماذا عرف ما كان مكتوبا فى ذلك الكتاب، فقال أحمد رافع أعطنى الأمان على حياتى لكى أقول، فقال أعطيتك فقل، فحدثه أحمد رافع عن ذلك الرمز فعفى أمير خراسان عن عبد الجبار وطلب كتابه ذاك ثانيا، ليرى ذلك الرمز فاستردوا الكتاب فكان كما قال أحمد رافع فعجز كل الخلق عن إدراك ذلك.

ثم إن شرط الكتابة أن تكون ملازما الحضرة على الدوام، وكن سباقا للعمل وحاد الفهم وذا دراية وغير ناس للعمل، ومتفحصا فى كل الأمور، واحتفظ بتذكرة بما تؤمر به وكن واقفا على حال كل أهل الديوان، واطلع على معاملات كل العمال، وتجسس وتعرف بجميع أنواع الأعمال، فإذا لم تنفعك فى الحال فقد تنفع فى وقت ما، ولا تفش هذا السر لأحد إلا وقت الضرورة ولا تتفحص فى الظاهر شغل الوزير، ولكن اطلع على كل الأمور فى الخفاء، وكن قادرا على الحساب، ولا تخل ساعة واحدة من التصرف والتدبير وكتابة كتب المعاملات لأن هذه كلها ميزة فى الكتاب، وخير ميزة للكتاب حفظ اللسان وعدم إفشاء سر ولى النعمة، وإحاطة مولاهم بكل الأشغال وعدم الفضول.

وأما إذا كنت قديرا فى الخط وتقلد[1] كل نوع تراه من الخط كذلك فهذا العلم حسن جدا، ولكن لا تظهره لأى إنسان حتى لا تصير معروفا بالتزوير فيزول عنك عندئذ اعتماد ولى النعمة، وإذا ارتكب شخص آخر تزويرا ولم يعرفوا من ارتكبه يلصقونه بك، ولا تزور لكل أمر حقير لكى تستفيد يوما ما ويكون النفع عظيما، وإذا فعلت فإياك أن يرتاب فيك أحد، فقد أهلكوا كثيرا من الكتاب الأفاضل والمحتشمين والوزراء العلماء بسبب الخط المزور.

حكاية

كان الربيع بن المطهر القصرى كاتبا فاضلا ومحتشما وكان يزوّر فى ديوان الصاحب، فبلغ هذا الخبر سمع الصاحب، وحار الصاحب، ولم يكن يستطيع إهلاك هذا الرجل وإظهار هذا الكلام له أيضا بسبب فضله، فكان يفكر ماذا يفعل معه، فحدث اتفاقا أن عرضت للصاحب عارضة وكان

---

(١) الترجمة الحرفية : تكتبه.

الناس يذهبون لعيادته، فدخل الربيع بن المطهر ليعوده وجلس عنده حسب الرسم، وسأل الصاحب قائلا: أي ألم بك وأي شراب تشرب؟ فقال الشراب الفلاني، فقال أي طعام تأكل؟ قال ما تفعله أنت يعني مزورا[1]، فعرف الكاتب أن الصاحب قد علم بذلك، فقال يا مولاي بحياتك ورأسك لا أفعل بعد ذلك، فقال الصاحب إذا تبت فإني لا أعاقبك بما فعلت وعفوت عنك.

فاعلم أن هذا التزوير أمر خطير فاجتنبه، ولا أستطيع أن أؤدي حق الكلام من نفسي في كل حرفة وكل شغل تماما، لأن الكلام يطول وأتخلف عن المقصود، ولا أستطيع الخلاص أيضا بدون القول فعليه أقول بضع كلمات تفيدك من كل باب ليصير معلوما لك أني قلت طرفا من كل نوع، فإذا أصغيت بسمع القلب يقع لك من هذا استخراجات[2]، إذ يمكن إضاءة مصابيح كثيرة من مصباح واحد، فإذا من الله تعالى عليك ووصلت من درجة الكتابة إلى درجة الوزارة فينبغي أن تعرف أيضا شروط الوزارة.



(١) اسم طعام وفي ذلك تورية.
(٢) أي: فوائد.

الباب الأربعون

فى شرائط الوزارة

أى بنى، إذا اتفق لك أن تكون وزيرا فكن محاسبا واعرف المعاملة جيدا، واستشعر الصدق مع مولاك، وانصف ولى نعمتك، ولا تطلب الكل لنفسك، فإنك لا تعطى الكل، وإذا أعطوك فى الحال فإنهم يطلبونه من بعد ذلك، وإذا تركوه أولا فإنهم لا يتركونه آخرا، فاحفظ مال الملك، وإذا أكلت منه فكله بأصبعين حتى لا يتوقف فى حلقك[1]، ولكن لا تغل يد العمال مرة واحدة، لأنك إذا ضننت بالدسم على النار يبقى الكباب خاما، وما لم تدع دانقا للآخرين لا تستطيع أكل درهم، وإذا أكلت لا يسكت المحرومون ولا يدعونه يبقى خافيا، وكما تكون منصفا مع ولى نعمتك كن منصفا مع الجند والرعية أيضا، ولا تعمل التوفيرات الحقيرة فإن استخراج اللحم من تحت الأسنان بالخلال وأكله لا يشبع، وتكون بذلك القدر الضئيل من التوفير قد جعلت العسكر أعداء وصيرت الرعية عدوا لمولاك، وإذا أردت الكفاية فجد فى العمارة والزراعة وحصل منها وعمر خرائب المملكة ليكون التوفير عشرة أمثال ولا تكون قد أعجزت خلق الله.

حكاية

هكذا سمعت أن ملكا من ملوك فارس غضب على وزيره وعزله وقال له اختر مكانا آخر لأهبه لك لتذهب هنالك بنعمتك وحشمتك ويكون هناك مقامك، فقال الوزير لا أريد نعمة ووهبت ما أملك للملك، ولا أطلب أن يهب لى أى مكان عامر، فإذا رحم فليهب لى من ملكه قرية خربة بحق الملك لألبس مرقعا وأعمر ذلك المكان وأقيم فيه، فأمر الملك قائلا: أعطوه قرية خربة بقدر ما يريد، فطافوا في كل مملكة الملك فلم يحصلوا على قطعة خربة ليعطوها له فأخبروا الملك، فقال الوزير: أيها الملك إنى كنت أعرف أنه لا يوجد خراب قط فى جميع الولايات والأماكن التى فى تصرفك بفضل عملى، والآن وقد أخذت الولاية منى فأعطها لمن إذا استرجعتها منه يردها كما سلمتها، فلما علم هذا الحال اعتذر الملك لذلك الوزير المعزول وخلع عليه وقلده الوزارة مرة ثانية.

والمقصود هو أن تكون فى الوزارة معمارا وعادلا لتكون كلمتك دائما نافذة، وتكون حياتك آمنة، وإذا شغب عليك الجند فلا مناص من وجوب تقصير أيدى الرؤساء حتى لا يقصروا أيديهم عن

---

(١) أى: الزم القناعة حتى لا تغص.

مولاك، ولا تكون قد أجريت ذلك الجور على الجند، بل تكون قد أجريته على نفسك وعلى مولاك كذلك، ويصير ذلك التوفير تقصيرا في عملك، فرغب الملك في الإحسان إلى الجند والرعية فإن إثبات الملك بالجند وعمار القرية بالدهقان، فاجتهد دائما في العمارة، ودبر الملك، واعلم حقا أنه يمكن إقامة الملك بالجند، ويمكن امتلاك الجند بالمال، ويحصل على المال بالعمارة، وتكون العمارة بالحق والعدل والإنصاف، فكن منصفًا وعادلا، واخش الملك مهما تكن صائنا وأمينا، فإنه لا يجب على شخص الخوف من الملك كما يجب على الوزير، وإذا كان الملك صغيرا فلا تعده صغيرا لأن مثال أبناء الملوك كمثال صغار البط، إذ لا يلزم تعليم صغار البط السباحة، فلا يمضي زمن طويل حتى يعرف محاسنك ومساوئك، وإذا كان الملك بالغا ورشيدا لا يخرج عن اثنتين: إما أن يكون عاقلا أو جاهلا، فإن يكن عاقلا لا يرضى بخيانتك فيكف يدك عن العمل على الوجه الأحسن. وإذا كان - نعوذ بالله - غير عاقل وجاهلاً يعزلك بأسوأ وجه، وربما تنجو بحياتك من العاقل ولا خلاص من الجاهل بأي وجه. وفضلا عن ذلك فلا تفارق الملك حيثما يذهب ولا تدعه وحيدا حتى لا يجد أعداؤك في غيابك فرصة للوشاية بك عنده، ويحولوه عن حاله، ولا تغفل عن حال الملك بأي حال، فاعمل بحيث يكون مقربوه جواسيسك ليطلعوك على كل نفس يتنفسه، وتكون مدبرا لكل كلمة قولا، وتعمل لكل سُمّ ترياقا، وكن أيضا على الدوام متنبها لملوك الأطراف والنواصي، ويلزم كذلك ألا يشرب أي صديق أو عدو للملك شربة ماء من غير أن يطلعك عليها، وتكون عارفا بحال مملكته كمملكة مولاك.

حكاية

سمعت أن وزير فخر الدولة الشهير، الصاحب إسماعيل بن عباد، لم يأت يومين إلى الديوان ولم يأذن لأحد، فاطلع المنهي فخر الدولة على تلك الحال، فأرسل فخر الدولة شخصا إلى الصاحب وقال: سمعت بخبر تكدرك فانشغل قلبي، ولا أعرف سبب ذلك، فإذا كان في المملكة موضع لانشغال القلب فأطلعني عليه، لأتدارك أنا أيضا مصلحة ذلك الأمر، وإذا كان مني تقصير في حقك فبينه لأعتذر، فقال الصاحب معاذ الله أن يكون للعبد تكدر من مولاه وبالمملكة قصور [1]، بل إن أمر المملكة على النظام، فينبغي أن يكون الملك مشغولا بالانبساط لأن تكدر العبد هذا يزول سريعا، وفي اليوم الثالث جاء إلى سراي الملك في مكانه راضي القلب كما كان، فسأله فخر الدولة قائلا: لأي سبب كنت مشغول القلب؟ فقال كان أصحاب أخباري [2] قد كتبوا إليَّ من كاشغر أنه في اليوم الفلاني قال الخاقان للقائد الفلاني كلاما ولم نستطع أن نعرف ماذا قال، فلم ينزل الطعام من حلقي من ذلك الغم، إذ كيف ينبغي أن يقول خاقان التركستان كلاما بكاشغر لا أعرفه هنا، واليوم وصلت ملاطفة وصار معلوما أي حديث كان ذلك فطاب قلبي.

---

(١) أن يكون بالمملكة خلل أو نقص.

(٢) منهيان من.

فينبغى أن تكون ذا دراية بأحوال كل الملوك، وتعرض الأحوال على مولاك، ليعرف الصديق والعدو ويُعَلمُ للملك حال كفايتك وذكائك، واعط كل عمل تأمر به للجدير بالعمل، ولا تضع الدنيا فى أيدى الجاهلين والظلمة من أجل الطمع، ولا تسند العمل الكبير إلى العمال الوضيعين والسفلة؛ فقد سألوا بزرجمهر قائلين: كان مثلك فى شغل وعمل آل ساسان فلم اضطربوا؟ فقال: لأنهم استعانوا بالعمال الأصاغر فى الأمور الكبيرة والعظيمة حتى وصل أمرهم إلى تلك الغاية. ولا تسند العمل إلى المفلس والمملق وخاصة العمل الكبير، لأنه لا ينشغل بحاجاتك ما لم يوف حاجات نفسه، ولكن إذا كانت له مؤونة لا ينشغل بنفسه كلية ويترك عملك سريعا، وكذلك إذا رويّت المزارع والمخضرات فإن مسقاة المزرعة والمخضرة إذا كانت رطبة روية توصل الماء سريعا إلى المزرعة والمخضرة، وإذا كانت أرض تلك المسقاة جافة وقد مضت مدة طويلة لم يمر فيها ماء فإنه عندما ينزلون بها الماء لا توصله إلى المزرعة والمخضرة ما لم تترطب وتتشبع بالماء أولا، فالعامل المعوز كالمسقاة الجافة ويدبر حوائجه أولا ثم حوائجك، وفضلا عن ذلك عَظِّم أوامرك ولا تدع شخصا يجرؤ على مخالفتها.

حكاية

سمعت أن أبا الفضل البلعمى أسند إلى سهل الخجندى رياسة ديوان سمرقند، ووقَّع فرمانه وخلع عليه، وذهب إلى سراى الوزير للوداع والاستئذان فى ذلك اليوم الذى أراد فيه الذهاب، فلما أدى خدمة الوداع لم يقل علنًا ما أراد أن يقول، فطلب الخلوة، فأخلى الوزير الدار، فقال سهل: أطال الله بقاء مولاى، عندما أصل إلى عملى فلا بد من أن تنفذ من هنا الأوامر، فليعط مولاى علامة لعبده أن أى أمر يجب تنفيذه أولا وأيها لا يجب تنفيذه؛ ليعرف عبدك ويعمل كما يأمره مولاه، فقال أبو الفضل البلعمى يا سهل حسنا قلت، أعلم أنك فكرت فى هذا أياما طويلة، ويلزمنا أن نفكر أيضا لأن أمرا كهذا لا يجوز الإجابة عليه في التو فتوقف بضعة أيام، فذهب سهل الخجندى إلى بيته، وأسندت رياسة ديوان سمرقند فى الحال إلى سليمان الجفانى وأرسل مع الخلعة المنشور وأمروا بأن يقال لسهل بأنه يجب ألا يخرج من البيت إلى مدة سنة، فأقام سهل سجينا فى بيته سنة، وبعد سنة استدعاه مولاه إليه وقال: يا سهل، أى وقت كنت قد رأيتنا عملنا بمنشورين أحدهما صدق والآخر كذب، ونحن نُعلّمُ أكابر الدنيا الطاعة بالسيف؟ أى حماقة رأيت فينا حتى نُعلّم مرءوسينا العصيان ونقول لهم لا تعملوا بأمرنا؟ إن أمرنا واحد، ما نريد عمله نأمر به وما لا نريده لا نأمر به، إذ ليس لنا رهبة وخشية من أحد، وكذلك لسنا عاجزين فى العمل، وهذا الظن الذى ظننته بنا هو شأن العاجزين، وكما عرفتنا راجلين[1] فى العمل فنحن أيضا عرفناك راجلا فيه حتى لا تذهب إلى العمل بذاك القلب فيجترئ شخص على ألا يعمل بذلك الأمر.

---

(١) عاجزين.

فلا توقع بالكذب ما حييت وإذا لم يعمل عامل بأمرك فعاقبه عقوبة بالغة. لتجعل توقيعك فى حياتك معظما ونافذا، لأنه لا يعمل أحد بتوقيعك من بعدك، كما لا يعملون الآن بتوقيعات الوزراء الماضين.

فيجب أن يكون أمر الملوك والوزراء واحدا، وأمرا قاطعا، لتدوم الحشمة وتكون الأعمال نافذة، ولا تشرب النبيذ لأن الغفلة والرعونة والإثم تنشأ من شرب النبيذ، ونعوذ بالله من الوزير المدمن للنبيذ ومن العامل الأرعن، وكذلك عندما يكون الملك مشغولا بشرب النبيذ يظهر الخلل فى المملكة، فاحفظ نفسك وكن كما ذكرت، لأن الوزير حارس المملكة، ويكون قبيحا جدا أن يلزم للحارس حارس آخر، فإذا اتفق أن تَحَوَّل عملك من الوزارة إلى القيادة فينبغى أن تعرف شرائط القيادة لتكون كل يوم فى الترقى.



الباب الحادى والأربعون

فى شرائط القيادة

أى بنى ، إذا كنت قائدا فأحسن إلى العسكر والرعية ، اعمل الخير من جانبك واطلب أيضا من مولاك الإحسان ، وكن يقظا دائما ، واعرف جيدا طريقة قيادة الجند وإعداد الحملة ، وفى اليوم الذى تقع فيه المعركة ابعث إلى الميمنة والميسرة بالقواد الذين مارسوا الحروب وخبروا الدنيا ، وأقم أشجع القواد مع خير طائفة فى الجناح ، ليكون هؤلاء القوم ظهرا للجنود الذين فى الجناح . ومهما يكن الخصم ضعيفا فلا تره ضعيفا ، واحتط فى أمر[1] ذلك الضعيف كما تحتاط فى أمر القوى ، ولا تندفع فى الحرب حتى لا تسلم الجند للريح ، وكذلك لا تكن كثير التشاؤم فتُصَيِّر جندك منهزما بسبب تشاؤمك ، ولا تغفل عن إرسال الجواسيس واستطلاع حال العدو ، ولا تقصر فى إرسال الطلائع ليل نهار ، وكن باشًا يوم المعركة عندما تلقى بنظرك على عسكر العدو ويلتقى الجمعان وجها لوجه ، وقل لجندك من يكون هؤلاء وما أصلهم؟ لندمرنهم هذه الساعة ، ولا تزحف بالجيش دفعة واحدة ، وابعث إليهم لواء[2] لواء وفوجا فوجا من الفرسان ، وعين رئيسا رئيسا وضابطا ضابطا قائلا : يا فلان اذهب أنت إلى الجهة الفلانية مع فرقتك ، واحتفظ عندك بالأشخاص الذين هم حملة الأمر ، وكل من يحسن القتال ويصرع شخصا أو يجرحه أو يأسر فارسا أو يأتى بفرس أو يقوم بخدمة مرضية ، فراعه بأضعاف تلك الخدمة ، من خلعة وزيادة معاش ، ولا تقتصد فى المال فى ذلك الوقت ، ولا تكن أيضا وضيع الهمة حتى يحصل غرضك سريعا ، لأنهم حينما يرون هذا تقوم رغبة الحرب فى كل الجنود ولا يقصر أى شخص فى الحرب ، ويأتى الفتح بالمراد ، فإذا حصل مقصودك على هذه الجملة فيها ونعما ، لا تتسرع وابق فى مكانك ولا تجهد نفسك أبدًا ، وإذا صارت نوبة الحرب إلى القواد وتحرج الموقف فانتهز الفرصة إذا صار إليك أمر القتال ، ولا تفكر فى الهزيمة ، وصارع الموت لأن كل من يستعذب الموت ويستطيع اقتلاع القلب من حياته لا يمكن زحزحته بأى باطل عن موضعه ، وإذا ظفرت فلا تطارد المنهزمين كثيرًا إذا يقع كثير من الخطأ فى الرجعة ولا يمكن أن يعرف كيف يكون الحال .

(١) الترجمة الحرفية : باب .

(٢) الترجمة الحرفية : علامة علامة .

ولم يكن الأمير الكبير أبي ـ رحمه الله ـ يطارد المهزومين ، وكان يقول : إن المنهزمين إذا عجزوا ينهضون بأرواحهم ويصمدون ، وإذا كروا فلا ينبغى الاشتباك معهم لكيلا يقع خطأ . وإذا ذهبت إلى الحرب فلا بد وأن ترى بعين رأسك طريق الدخول ظاهرا كما ترى بعين القلب طريق الخروج فى الباطن ، فربما لا يكون الأمر كما تريد ، ثم لا تنس هذه الكلمة ، ولو أنى قد ذكرتها فى موضع آخر ، فإنى أكررها مرة أخرى ، إذا وقعت حرب وقتا ما وكان موقفك حرجا مثلا ووراءك موضع فسيح بمقدار خطوة فحذار أن تتقهقر تلك الخطوة ؛ لأنك إذا تقهقرت قبضة يهزمونك فى الحال ، فاجتهد دائما أن تتقدم عن موضعك ولا تتقهقر خطوة أبدا ، وكذلك يجب أن يقسم جندك فى كل وقت بحياتك ورأسك ، وكن سخيا مع العسكر ، فإذا لم تستطع أن تزيد عن ذى قبل فى الخلعة والصلة فلا تقصر فى كلامك على الأقل ، ولا تأكل لقمة خبز ولا تشرب قدح نبيذ بغير جندك ، فإن ما تفعله لقمة الخبز لا يفعله الذهب والفضة والخلعة ، واجعل جندك دائما راضين ، وإذا أردت أن لا يضنوا عليك بالروح فلا تضن عليهم بالخبز ، ولكن اعمل ما يكون من شرط التدبير على طريق الصواب ولو أن كل أمر منوط بتقدير الخالق جل جلاله ، لأن ما هو مقدور يكون ، فإذا من الله تعالى عليك وأوصلك إلى الملك فارع شرط أدب الملك وكن عالى الهمة على هذه الجملة .



الباب الثاني والأربعون

في آداب الملك

أي بني، إذا صرت ملكا يوما ما فكن ورعا، وكف عينك عن حرم المسلمين، وكن طاهر الإزار لأن طهارة الإزار طهارة الدين، واجعل رأيك مطيعا للعقل في كل أمر، وشاور عقلك أولا في كل عمل تريد أن تعمله، لأن وزير وزراء الملك هو العقل، ولا تتسرع ما دمت ترى وجها للتأني، وتدبر أولا طريق الخروج من كل أمر تريد ولوجه، ولا تر الأول ما لم تر الآخر، وراع المداراة في كل الأمور، وكل أمر يتم بالمداراة لا تنجزه بغير مداراة، ولا ترض الجور، وانظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين العدل حتى تستطيع أن ترى الحق والباطل في كل الأمور، لأن الملك إذا لم يفتح عين العدل والعقل، يستغلق عليه طريق الحق والباطل، وكن صادقًا دائما، ولكن كن قليل الكلام والضحك حتى لا يجترئ عليك من دونك، فقد قيل أسوأ الأمور للملك اجتراء الرعية وعصيان الحاشية وألا يصل إلى المستحقين العطاء الذي يأتي منه، وكن عزيز اللقاء حتى لا تصير حقيراً في أعين الجند والرعية، وحذار أن تحقر نفسك، وكن رحيما بعباد الحق تعالى ولكن لا ترحم من لا يرحمون، وكن ذا سياسة خاصة مع وزيرك، ولا تظهر نفسك البتة بسلامة القلب معه، ولا تفتقر كلية إلى رأيه، واستمع إلى كل كلام يقوله الوزير بشأن[1] أحد أو طريق يبينه ولكن لا تجب في الحال، وقل حتى ننظر وحينئذ نأمر بما يجب، وبعد ذلك مر بتفحص تلك الحال لترى ما إذا كان يطلب في ذلك الأمر صلاحك أو نفع نفسه، فإذا عرفت ذلك فأجب بما رأيته جوابا، لكيلا يعدك أسير رأيه، واتخذ وزيرك شيخا سواء أكنت شيخا أو شابا، ولا تقلد الشاب الوزارة حيث إنهم قالوا:

بيت

لا كان قائد الجيش سوى الشيخ　　　الشاب شاب كذلك ولو كان أستاذا قديرا

* * *

وفضلا عن ذلك إذا كنت شيخا فإنه أمر قبيح أن يكون شاب مدبرا وسائسا لشيخ، وإذا كنت شابا

---

(١) الترجمة الحرفية: باب

والوزير شابا، تلتئم نار شبابك مع نار شباب الوزير وتحترق المملكة بكلتا النارين، ثم يجب أن يكون الوزير بهى الوجه وشيخا أو كهلا وتام القامة وقوى التركيب وكبير البطن؛ لأنه لا أبهة قط للنحيف وقصير القامة وأسود اللحية، فينبغى أن يكون الوزير عظيم اللحية.

حكاية

كذلك أراد السلطان طغرل بك أن يسند الوزارة لواحد من فضلاء خراسان، فاختار الفارابى العالم، وكان لهذا العالم لحية طويلة جدا وعريضة تبلغ سرته، فأحضروه وسلموه رسالة السلطان حيث يقول: إننا عيناك لوزارتنا فيجب أن تتولى تدبير أمورنا فإننا لا نرى شخصا أجدر منك بهذا الأمر، فقال العالم: قولوا لمولاى السلطان أبقاك الله ألف عام، الوزارة مهنة يلزمها آلات كثيرة وليس لهذا الخادم من كل الآلات شيء آخر غير اللحية، فلا يغتر بلحيتي، وليأمر بهذه الخدمة لشخص آخر.

وكل من أسندت إليه الوزارة مكنه فيها تمام التمكين حتى لا تستغلق عليك شئون المملكة وأشغالها، وأحسن إلى أقربائه والمتصلين به، كيلا يقع تقصير فى تأدية المعاش وعمل الخير، ولكن لا تأمر بأى عمل لأقارب الوزير والمتصلين به، لأنه لا يمكن تسليم الألية جملة للقطة. إذ إنه لا يحاسب ذويه بالحق بأي حال، ولا يؤذى أقاربه من أجل مالك، وكذلك يرتكب أقارب الوزير من الجور على المسلمين، ما لا يرتكب الغرباء منه واحدا فى المائة لانتسابهم إلى الوزير، ولا ترحم اللص ولا تجز العفو عنه، ولا تعف عن القاتل، واحتط فى أمر القاتل لأنه إذا كان مستحقا للقصاص وعفوت عنه تكون يوم القيامة شريكا له فى ذلك الدم وتؤخذ به، ولكن ارحم غلمانك لأن الملك كالراعى والرعية كالقطيع، فإذا كان الراعى غير رحيم بقطيعه ولم يحفظه من السباع يهلك القطيع سريعا، وكل من عينت له قسطا لا تعتمد على ما تكون قد عينت له، ومر لكل شخص بعمل ولا تضن عليهم بالشغل لأن ذلك النفع الذى يجدونه من الشغل يضمونه إلى قسطهم ويعيشون مستكفين، وتكون أنت أقل انشغالا من أجلهم؛ لأن الغلمان يقتنون لأجل العمل، ولكن عندما تُعطى الغلمان عملا تأمل جيداً وأعط العمل للجدير به؛ فمن يليق بالفراشة لا تعطه السقاية، ومن يليق بالسقاية لا تعطه الخزانة، ومن يليق بالخزانة لا تعطه الحجابة، إذ لا يمكن إعطاء كل عمل لكل إنسان كما قيل: (لكلِ عملٍ رجالٌ ولكلِ مكانٍ مقال)، حتى لا يطول عليك لسان الطاعنين، ولا يظهر فى عملك خلل، لأنه إذا أمرت لخادم بعمل ولا يعرفه فإنه من أجل منفعته لا يقول بأى حال إني لا أعرفه، ويعمله ولكن العمل يكون فاسدا، فاعط العمل للخبير به لتستريح من وجع الرأس كما يقول الشاعر:

بيت

ولكـن أرجـــو من إلـهك التـــوفـــيق　　　لأن تسند الأعـــمـــال للخــبـيـــرين بهـــا

* * *

فإذا كانت لك عناية فى حق إنسان وتريد أن تصيره محتشما، فإنك تستطيع أن تعطيه النعمة والحشمة بغير عمل من غير أن تأمر له بشغل بغير موجب، حتى لا تكون قد أشهدت على جهلك، ولا تدع شخصا يستهين بأمرك فى مملكتك، لأن ذلك يكون كما لو قد أهانك فى ملكك، إذ إن راحة الملك ولذته فى إصدار الأوامر، وإلا فإن الملك يكون مساويا للرعية فى الصورة، والفرق بين الملك والرعية هى أن يكون الملك آمرا والرعية طائعة.

حكاية

سمعت أنه كان فى أيام جدك السلطان محمود عامل يقال له أبو الفرج البستى عهد إليه بأعمال نسا وباورد، فقبض على رجل فى نسا واغتصب منه أموالا طائلة، وصادر ضياعه وأودعه السجن، وبعد مدة احتال الرجل وفر من السجن وذهب إلى غزنين، ودخل على السلطان وطلب النصفة، فأمر السلطان أن يكتب له كتاب من الديوان، فأخذ الرجل الكتاب وأتى حتى وصل إلى نسا، وعرض الكتاب، ففكر العامل أن كيف يذهب هذا الرجل مرة أخرى إلى غزنين ويرى السلطان، فلم يرد إليه ضياعه ولم يعمل بذلك الكتاب أى عمل، فأخذ الرجل المظلوم طريق غزنين مرة أخرى وسار حتى وصل إلى غزنين، وكان يذهب كل يوم إلى باب سراى السلطان محمود، إلى أن كان السلطان محمود ذات يوم يخرج من باب الحديقة فصاح الرجل واستغاث كثيراً من العامل، فأمر له السلطان بكتاب مرة أخرى، فقال إنى حملت مرة كتابا ورجعت، وهذا لا يجدى فى نسا، إلا أن السلطان كان متكدرا فى تلك الساعة لسبب من الأسباب فأجاب الرجل قائلا: علىَّ إصدار الأمر فإذا لم يعمل بالكتاب فماذا أعمل؟ اذهب واحث التراب على رأسك. فقال الرجل: أيها الملك إن عاملك لا يعمل بأمرك فهل يجب على أنا أن أحثو التراب على رأسى؟! وعين فى الحال غلامين من سرايه ليذهبا إلى نسا، وأحضرا شحنة تلك النواحى وعلقا ذلك الكتاب بعنقه وأصعداه على المشنقة ونودى بأن هذا جزاء ذلك الشخص الذى لا يعمل بأمر الملك، وبعد ذلك لم يكن لأى شخص جرأة على ألا يعمل بأمر الملك، وصارت الأوامر نافذة واستراح الناس.

وكذلك يا بنى فى أيام خالك السلطان الشهيد مسعود لما تولى الملك عرف طريق الشجاعة والمروءة جيدا، ولكنه لم يكن يعرف قط طريق تدبير الملك، وآثر عشرة الجوارى على الملك، فلما رأى الجند والعمال بأى الأعمال يشتغل، أخذوا طريق العصيان، وتعطلت أشغال الناس وتجرأ الجند والرعية، إلى أن جاءت امرأة عجوز مظلومة ذات يوم من رباط فراوة واستغاثت من عمال ولاية

السلطان مسعود، فأمر لها بكتاب فلم يعمل به العامل، وقال في نفسه إن هذه المرأة العجوز لا تذهب إلى غزنين مرة ثانية، فعادت العجوز مرة أخرى وسارت إلى غزنين وذهبت إلى دار المظالم وطلبت النصفة، فأمر السلطان مرة أخرى بكتاب. فقالت العجوز: حملت مرة كتابا ولم يجد. فقال مسعود ماذا أعمل؟ فقالت أيها الملك إن تدبير هذا سهل، دبر الولاية بحيث يطاع أمرك، وإلا فدعها ليتولاها شخص آخر يعملون بكتابه، وابق أنت كذلك في لهوك حتى لا يبتلي عباد الله تعالى ببلاء الظلم. فخجل مسعود وأمر فأدوا حق تلك المرأة العجوز وعلقوا ذلك العامل على باب فراوة، وأفاق بعد ذلك من نوم الغفلة ولم تكن لأحد جرأة على أن يقصر في أمره.

فالملك الذي لا يكون أمره نافذا، أيُّ فرق بينه وبين سائر الناس؟! يجب أن يعرف نظام الملك في نفاذ الأمر، فإذا لم يكن للأوامر نفاذ يظهر الخلل في الملك، ونفاذ الأمر لا يجوز بغير السياسة، فلا ينبغي التقصير في إجراء السياسة لتكون الأوامر نافذة، ثم يجب ألا يسلط الجند على رءوس الرعايا لأن المملكة لا تعمر، وكما تراعي مصلحة الجند ارع كذلك مصلحة الرعية، لأن الملك كالشمس لا يجوز أن تضيء على واحد ولا تضيء على آخر، وكذلك إذا كان يمكن جعل الرعايا مطيعين بالجند فإنه يمكن أيضا امتلاك الجند بالرعية، وبالرعية تعمر الولاية لأن من الرعية يحصل الدخل، وبالعدل تكون الرعية ثابتة وعامرة، فلا تجعل للظلم سبيلا إلى قلبك؛ فإن بيوت الملوك العادلين تبقى ويطول عهدها، وبيوت الظالمين تزول سريعا، لأن العدل هو العمران، والظلم هو الخراب، ولما كان التعمير يقتضي وقتا أطول فإنه يبقى أكثر، وبما أن التخريب يمكن القيام به سريعا فإنه يزول سريعا.

وقد قال الحكماء إن الملك العادل هو ينبوع العمار والبهجة في العالم، والملك الظالم ينبوع خراب العالم وبؤسه، ولا تصبر على آلام عباد الله تعالى، ولا تشتغل دائما بالخلوة لأنك إذا نفرت من الجند والناس ينفر الجند منك أيضا، ولا تقصر في حسن رعاية الجند والرعية، وإذا قصرت يكون من ذلك التقصير توفير للأعداء، ولكن لا تجعل الجند جميعا من جنس واحد، فإذا كان جند الملك من جنس واحد يكون دائما أسيرا لجنده، وعاجزا على الدوام، لأن الجنس الواحد يتفق ولا يمكن ضربهم بأحدهم الآخر، فإذا كانوا من كل جنس يضرب هذا الجنس بذاك وذاك بهذا؛ فلا يستطيع أولئك القوم من خوف هؤلاء وهؤلاء من خوف أولاء أن يعصوا، ويكون أمرك نافذا على جندك، وكان لجدك السلطان محمود أربعة آلاف غلام تركي من غلمان السراي، وأربعة آلاف روات هندي للسراي، وكان دائما يخوف الهنود بالأتراك والأتراك بالهنود فصار كلا الجنسين مطيعين من خوف أحدهما الآخر، وفضلا عن ذلك ادع في كل وقت كبراء الجند إلى طعامك ونبيذك، وأحسن إليهم بالخلعة والصلة والآمال، وتعود إظهار المودة، ولكن إذا أردت إعطاء صلة لشخص فلا تعلنها على الملأ بلسانك إذا كانت قليلة، وقل له في الخفاء إنها جائزة حتى لا تكون قد ارتكبت خسة بذلك الشيء الذي لا يليق بهمة الملوك، ثم لا تكون قد صيرت نفسك معروفا للناس بالخسة.

كنت ثماني سنوات نديما للسلطان مودود بغزنين فلم أر منه قط ثلاثة أشياء : أولها : أن كل صلة كانت تقل عن مائتى دينار لم يكن يعلنها على رأس الملأ إلا على أنها جائزة . وثانيها : أنه لم يكن يضحك بحيث تظهر أسنانه . وثالثها : أنه لم يكن يشتم شخصا أبدا إذا غضب وهذه العادة كانت حسنة جدا . وسمعت أن ملوك الروم لهم مثل هذه العادة ، ولكن لهم رسم آخر ليس لملوك العرب والعجم ، وهو أنه إذا كان الملك قد ضرب شخصا بيده لا يستطيع أى إنسان بعد ذلك أن يضرب ذلك الرجل ويقولون ما دام حيا : إن الملك قد ضربه بيده فينبغي أن يضربه ملك كذلك .

والآن قد جئنا إلى رأس الكلام الأول ، ثم لا أستطيع أن أقول لك في حديث السخاء كن سخيا بالمال ، وعلى كل فلا تكن وضيع الهمة ، وإذا لم تستطع أن ترتدع عن جبلتك فلا أقل من ألا تظهر خستك للناس على الملأ كما ذكرت ، لأنك إذا لم تسخ يصير كل الخلق أعداءك ، فإذا لم يستطيعوا أن يقولوا لك شيئا في الحال فإنهم لا يجعلون أرواحهم فداء لك إذا ما ظهر عدو ، ويكونون أصدقاء عدوك ، ولكن اجتهد ألا تكون ثملا بشراب الملك ، ولا تقصر في المحافظة على ست خصال : الهيبة والعدل والعطاء والحفاظ والوقار والصدق . فإذا لم تكن في الملك واحدة من هذه الست فإنه يكون إلى سكرة الملك أقرب ، وكل ملك يكون ثملا بالملك فإنه يفيق عند ذهاب ملكه ، ولا تكن في الملك غافلا عن معرفة أحوال ملوك العالم ، بحيث ينبغي ألا يتنفس أى ملك من غير أن تعرف ، فإني سمعت من أبي الأمير الراحل أن فخر الدولة فر من أخيه عضد الدولة ولم يستطع الإقامة بأى مكان ، فجاء إلى بلاط جدى قابوس بن وشمكير مستأمنا ، وآمنه جدى وأكرمه وزوجه عمتي ، وأنفق في زواجه مالاً يفوق الحد ، بسبب أن جدتي كانت خالة فخر الدولة وكان أبي وفخر الدولة كلاهما ولدى ابنة فيروزان ، فأرسل عضد الدولة رسولا إلى شمس المعالى ، وجاء الرسول وسلم الكتاب وقال إن عضد الدولة يسلم كثيراً ويقول : إن أخى الأمير على جاء إليكم ، وأنت تعلم أن بيننا صداقة وأخوة وبيت كلينا واحد ، وأخي هذا عدوى ، فيجب أن تقبض عليه وترسله إلى ، حتى أدع لك أى ناحية تعينها من ولايتي مكافأة على ذلك وتتأكد صداقتنا ، وإذا لم ترد أن تلحق بنفسك هذا العار فناوله السم هنالك ليتحقق غرضى ولا يكون عار عليك ، وتلك الناحية التي تريدها تعطى لك أيضا . فقال شمس المعالى : سبحان الله ، ماذا يدعو مثل ذلك المحتشم إلى مخاطبة مثلى بمثل هذا الكلام ، حيث لا يمكن أبدا القيام بمثل هذا العمل الذى يكون فيه عارى إلى يوم القيامة؟ فقال الرسول أيها الملك ، لا تفرط في عضد الدولة من أجل الأمير على لأن مليكنا يحبك أكثر من أخ شقيق له ، وقسما بكذا وكذا إنه في هذا اليوم الذى حملني وسيرنى إليك كان يقول أثناء الحديث : يعلم الله أنى أحب شمس المعالى جدا ، إلى حد أنه في يوم السبت الفلانى وقد انقضت بضعة أيام من الشهر الفلانى ، ذهب شمس المعالى إلى الحمام وانزلقت قدمه في البيت الأوسط وسقط فاغتممت وقلت : هل أدركته الشيخوخة في سن السابعة والأربعين وانحطت قوته؟ وكان غرض ذلك الرسول أن يقول اعلم كيف أن مليكى مطلع على أحوالك ، وكان ذلك من تعليم عضد الدولة ، فقال شمس المعالى :

دام بقاؤه! إنى امتننت بهذه الشفقة التى أبداها، ولكن عرفه كذلك بغمى، لأنه فى اليوم الفلانى من الشهر الفلانى الذى أوفدك فى غده، شرب السيكى تلك الليلة فى المجلس الفلانى ونام فى المكان الفلانى وكان مع نوشتكين الساقى، فقام فى نصف الليل، وذهب إلى الحريم وصعد إلى السطح بحجرة الخيرزان العوادة واجتمع بها ولما رجع زلت قدمه وهو ينزل من السطح، وسقط من درجتين من السلم فانشغل قلبى من جهته أيضا، وقلت هل حدث نقصان فى عقله فى سن الثانية والأربعين؟! لم يشرب الرجل وهو ملك فى سن الثانية والأربعين هذا القدر من الشراب بحيث لا يستطيع النزول من السطح! ولم يلزم الانتقال من فراشه فى نصف الليل حتى تقع مثل تلك الحادثة؟ وأخبر ذلك الرسول بعلمه بأحوالهم.

وكما تعرف أحوال العالم والملوك يجب كذلك أن تكون واقفا على ولايتك وحال رعيتك وجيشك لأنك إذا لم تعرف حال بلدك تكون أقل معرفة ببلاد الأجانب.

حكاية

اعلم يا بنى أنه فى أيام ابن خالك السلطان مودود بن مسعود جئت إلى غزنين فأعزنى وأكرمنى كثيرا، ولما انقضت مدة ورآنى وجربنى أسند إلى منادمته الخاصة، والنديم الخاص هو الذى لا يغيب عن مجلسه أبدا، فكان يتحتم على أن أكون دائما حاضرا عند الطعام والشراب، سواء أكان الندماء الآخرون، يوجدون أم لا، وذات يوم فى الصباح الباكر كان قد أعد الصبوح، وكذلك أذن للجند فى أثناء شرب النبيذ، فدخل الخلق وخدموا وعادوا، وكان الوزير[1] الكبير عبد الرزاق أحمد بن حسن الميمندى وزيراً له، فاستبقى الوزير وقت الشراب، فلما كان زمن دخل مشرف البلاط، وسلم عليا ابن ربيع الخادم ملاطفة فقدمها على الخادم إلى السلطان، وكان السلطان يشرب النبيذ ويقرأ الملاطفة، فالتفت إلى الوزير وقال: أدب هذا المنهى[2] بضربه خمسمائة عصا، حتى يشرح الإنهاء مرة أخرى، إذ كتب فى هذا الخط[3] قائلا إنه ليلة أمس طبخ فى غزنين حساء السماق فى اثنى عشر ألف بيت، وما دمت لا أعرف بأى بيت وحى كان ذلك فاشهد كما تريد، فقال الوزير أطال الله بقاء الملك، إنه قال هذا من أجل تخفيف الجمع، لأنه إذا تكلم بالتفصيل كان كتابا، ولما كنت تستطيع قراءته فى يوم، لأنه لما قال حساء السماق، كان يلزم أن يذكر الألوان الأخرى، فإذا عفا الملك وجعل هذا التأديب رحمة حتى أقول إنه بعد هذا لا يقول شيئا بالإجمال، فيذكر البيت وصاحب البيت، ويوضح أن فلان والشخص الفلانى يأكل كذا وكذا فى المحل الفلانى فى المحلة الفلانية، فقال السلطان عفوت هذه المرة وبعد هذا يجب أن يقول كما يقول الوزير.

---

(١) خواجة وفى الفارسية تنطق خاجة ومعناها السيد وتأتى أحياناً بمعنى الوزير.

(٢) الذى ينهى الأخبار.

(٣) هذا الكتاب أو هذه الرسالة.

فينبغى ألا تكون غافلا عن حال مملكتك وعن حال رعيتك وجندك، وخاصة عن حال وزيرك، ويجب ألا يشرب وزيرك الماء ما لم تعرف، لأنك قد استودعته روحك ومالك، فإذا غفلت عنه تكون قد غفلت عن روحك ومالك لا عن عمل وحال وزيرك، وإذا كنت صديقا لملوك أطراف العالم الذين هم أنداد لك، فلا تكن نصف صديق، وإذا كنت عدوا فكن عدوا فى الظاهر لتستطيع إظهار العداوة علنا، ولا تعاد فى الخفاء من هم على شاكلتك.

سمعت أن الإسكندر كان يسير لحرب عدو، فقيل له أيها الملك إن عدونا هذا رجل غافل فيجب الغارة عليه ليلا، فقال الإسكندر: إن الذى ينال الظفر باللصوصية لا يكون ملكا.

وتعود عظائم الأمور فى الملك، لأن الملك أكبر من كل إنسان، فيجب أن يقوم بالأمور من فعل وقول بعظمة لينال الذكر الحسن، كما أن فرعون عليه اللعنة لو لم يكن قد تكلم بتلك العظمة كيف كان الخالق جل جلاله يروى حديثه حيث قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات: ٢٤). وتتلى هذه الآية إلى يوم القيامة ويذكر اسمه بالعظمة؟ ولو أنه قبيح وملعون وليس فى هذا الكلام غرض لمدحه.

فكن كما ذكرت، لأنه لا يرتفع ذكر للملك القليل الهمة، وعظم توقيعك أيضا، ولا توقع من أجل كل أمر حقير، إلا بولاية كبرى أو إقطاع كبير تمنحه، وإذا وقعت فلا تخالف توقيعك (إلا بعذر واضح) لأن الخلف ليس مقبولا من كل إنسان وخاصة من الملك. هذا هو شرط الملك، ولو أن هذه مهنة عزيزة ولا يصل إليها كل شخص، ولكنى ذكرتها كما هو شرط الكتاب، وإذا اتفق لك صناعة أخرى، كالفلاحة أو حرفة من حرف السوق، فراع ما يكون من شروطها ليكون عملك ذا رونق دائما.

الباب الثالث والأربعون

في الزراعة والصناعة

إذا كنت زارعا فاعرف أوقات الزراعة، وكذلك لا تدع شيئا يجب القيام به حتى يفوت وقته، وإذا زرعت قبل الوقت بعشرة أيام فخير من أن تزرع بعد الأوان بيومين، واجعل آلات الزراعة والحراثة معدة وحاضرة، ومر بأن يشتروا البقر الجيد ويحسنوا رعايته بالعلف، واحتفظ دائما بزوج من البقر مستريحا على حدة، حتى إذا ما أصابت بقرة من تلك الأبقار علة لا تتعطل عن العمل، ولا يفوتك وقت الزرع، وعندما لا يكون الوقت وقت زرع وحصاد فلا تغفل عن عزق الأرض، ودبر هذا العام زراعة العام القادم، وازرع دائما الأرض التي تكسو نفسها؛ لأن كل أرض لا تستطيع أن تكسو نفسها لا تستطيع أن تكسوك أيضا. وكذلك يجب أن تكون دائما مشغولا بالتعمير لتجني الثمرة من الفلاحة، وكن من بين جميع محترفي السوق سريع العمل محمودا في أية حرفة تحترفها؛ ليكثر مريدوك، وأد كل عمل تؤديه خيرا مما يؤديه الصناع، واقنع بالربح القليل، وإلى أن تجعل العشرة أحد عشر تستطيع أن تجعلها عشرة ونصفا مرتين، وفضلا عن ذلك لا تنفر الحرفاء[1] بالمماكسة واللجاج الكثير لتكون مرزوقا في عملك ويتعامل الناس معك أكثر، واجتهد عندما تبيع شيئا في إظهار التواضع، وقولك يا حبيبي ويا روحي ويا أخي، ولا تتكلم ما استطعت بالعنف والقبح ليخجل المشتري من المماكسة للطفك ويحصل مقصودك، وإذا فعلت ذلك تكون كثير الحرفاء، وتكون بالضرورة محسودا من ذوي الحرف الآخرين، وتصير معروفا ومشهورا بالسوق، وتعود قول الصدق في الشراء والبيع، وتجنب البخل، ولكن استعمل التصرف، واعف عمن دونك، وتواضع لمن هو أعلى منك، ولا ترهق العاجز، ولا تغل الثمن في المعاملات على الأطفال والنساء والأصدقاء والغرباء، ولا تكن خجولا في التجارة فكثيرا ما يكون الخجل ضارا بك، وساعد الخجول الذي لا يكثر المكاس وأحسن إلى المستحق، وكن سوقيا مع السوقة، وصادقا في الوزن والميزان، ولا تكن ذا قلبين وكيسين مع عيالك، ولا تخن الشركاء، ولا تزوّر في أي صناعة تقوم بها، واجعل عملك مع الخبير وغير الخبير سواء، وكن ورعا، وإن تكن لك مكنة فاعتبر الإقراض غنيمة، ولا تحلف كذبا ولا

(١) العملاء.

تراب، ولا تكن صعبا فى المعاملة، وإذا كان لك مال على صديق فلا تلحف فى المطالبة إذا علمت أنه غير قادر، وكن طيب القلب لترى الخير، ويبارك الله في أخذك وعطائك، وكل محترف على هذه الجملة التى ذكرت يكون أكرم المحترفين، ولكل قوم من الصناع فى تلك الصناعة التى يكونون فيها طريق فى المروءة.



الباب الرابع والأربعون

فى المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة

أى بنى، إذا زاولت المروءة فاعرف أولا: ما هى المروءة وم تنشأ؟

اعلم يا بنى أن من صفات الناس ثلاثة أشياء، لا تجد آدميا قط يقول إن هذه الأشياء الثلاثة ليست لى، والعالم والجاهل راض من الله تعالى بهذه الأشياء الثلاثة، ولو أن الله تعالى فى الحقيقة قد أعطى هذه الأشياء الثلاثة: لقليل من الناس، وكل شخص له هذه الأشياء الثلاثة فهو من جملة المقربين إلى الله.

وأول هذه الثلاثة: العقل، وثانيها: الصدق، وثالثها: المروءة. وإذا نظرت فى الحقيقة إلى ادعاء الخلق فإن أى إنسان لا يدعى العقل والمروءة والصدق كذبا، لأنه لا يوجد أى جسد ليست فيه هذه الصفات الثلاث، ولكن عدم مضاء الآلة وظلمة طريق الأصل يسدان هذا الباب على أغلب الخلق، فالله تعالى قد جعل جسم الإنسان من كل المتفرقات حتى إذا ما دعوته العالم الكلى أو العالم الجزئى فكلاهما جائز، كما أن ما فى الجسد الأدمى من الطبايع والأفلاك والأنجم والعنصر والهيولى والصورة والنفس والعقل الكلى، هذه كل واحد منها على حدة عالم فى المراتب لا فى التركيب، والإنسان مركب ومجموع من هذه العوالم، فالخالق أقام هذا الجمع بالروابط والصلات لأنه ليست لها نسبة إلى بعضها البعض كما ترى فى هذا العالم الكبير من رابطة الأفلاك والطبائع المعلقة ببعضها البعض فى الجنسية ولو أنها مختلفة فى الجوهر، مثل النار والماء اللذين كل منهما ضد للآخر فى كل صفة، والتراب والهواء المضاد كل منهما للآخر، فالتراب صار واسطة بين النار والماء، وصارت للتراب رابطة مع النار باليبوسة ومع الماء بالبرودة، وللماء مع التراب بالبرودة ومع الهواء باللين، والهواء مع الماء باللين، ومع النار بالحرارة، وللنار مع الأثير بالجوهر، وللأثير بالإشعاع مع الشمس التى هى ملكة الأنجم والأفلاك، وللشمس مع الهيولى بالجوهرية بقبولها لإشعاع الهيولى الذى هو جوهر للشمس من العنصر الخامس، وصار للهيولى بالنفس روابط بالفيض العلوى، وللنفس بالعقل، وكذلك صار للمطبوعات صلة مع الطبائع بمادة القوة والغذاء، وإذا لم تجد المطبوعات القوة من الطبائع فى المادة، فإنها تنهار بذلك الرباط المربوطة به، وقس أيضا على هذا، الطبائع من الفلك

والفلك من الهيولى والهيولى من النفس والنفس من العقل، وكذلك فى الجسم الآدمى كل ما يكون من ظلمة وكثافة يتجمع من تركيب الطبائع، وتتجمع الصورة والطلعة والحياة والقوة والحركات من الفلك، وتتجمع الحواس الخمس الجسمانية كالسمع والشم والذوق واللمس والنظر من الهيولى، وتتجمع الحواس الروحانية كالحفظ والتفكير والتخيل والنطق والتدبر من النفس، وأشرف ما فى الجسد الآدمى هو الشيء الذى لا يكون له معدن ظاهر، ولا يمكن الإشارة إلى موضعه، مثل المروءة والعلم والكمال والشرف فإن أساس هذه كلها العقل؛ والعقل حل فى الجسد من فيض العقل الكلى، فجسدنا هذا حى بالروح، والروح بالنفس والنفس بالعقل، وكل شخص ترى له جسدا متحركا فلا بد من الروح، وكل من ترى له نفسا ناطقة فلا بد من النفس، وكل من ترى له نفسا باحثة فلا بد من العقل، وهذه موجودة فى كل آدمى، ولكن عندما يصير المرض حجابا بين الجسد والروح تضعف رابطة الاعتدال ولا تصل المادة تماما من الروح إلى الجسد، يعنى الحواس الخمس، وكل من يصير الجهل والظلمة وعدم المعرفة حجابا بين نفسه وعقله فإن مادة العقل لا تصل إلى النفس، يعنى الفكر والتدبير والمروءة والصدق، ففى الحقيقة لا يوجد جسد بغير العقل والمروءة، ولكن عندما يكون المنفذ الروحانى للفيض العلوى قد انسد فإنك تجد دعوى ولا معنى، فلا يوجد شخص قط فى الدنيا لا يدعى المروءة، ولكن اجتهد أنت يا بنى ألا تكون كالآخرين وألا تدعى دعوى بغير معنى، وأن تجعل المنفذ الروحانى مفتوحا للفيض العلوى بالتعليم والتفهيم ليكون لك المعنى كله بغير دعوى.

واعلم يا بنى أن الحكماء قد جعلوا من المروءة والعقل صورة بالألفاظ لا بالجسد، لتكون تلك الصورة جسدا وروحا وحواس ومعانى مثل الإنسان، وقد قالوا: إن جسد تلك الصورة هو المروءة، وروحها الصدق، وحواسها العلم، ومعانيها صفاتها. فقسموا هذه الصورة على الخلق، فأصاب قوما الجسد ولا شيء آخر، وقوما الجسد والروح، وقوما الجسد والروح والحواس، وقوما الجسد والروح والحواس والمعانى.

أما أولئك القوم الذين صار الجسد نصيبهم، فهم جماعة العيارين والجنود، فإن لهم مروءة على قدر حالهم، وقد سموا رجولتهم مروءة، وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح هم أرباب معرفة الظاهر والباطن وفقراء التصوف الذين سموا مروءتهم الورع والمعرفة، وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح والحواس هم الحكماء والأنبياء والأولياء الذين سموا مروءتهم العلم والفيض، وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح والحواس والمعانى هم الروحانيون والأنبياء المرسلون.

فاسع يا بنى واجتهد حتى ترقى ذلك المقدار الذى تستطيعه ويكون مقدورك، وقد قال الحكماء إن أصل المروءة ثلاثة أشياء: أحدها: أن تعمل ما تقول، وثانيها: أن تراعى الصدق فى القول والفعل،

وثالثها: أن تتمسك بالصبر؛ لأن كل صفة تتعلق بالمروءة تنضوى تحت هذه الأشياء الثلاثة، فإذا استعصى عليك الأمر يا بنى فإنى أعذرك، وسأبين هذه الصفات الثلاثة لهؤلاء القوم ودرجة كل واحدة ومقدارها، لتصير معلومة لك.

اعلم يا بنى أن أكثر الناس مروءة هو من كان له عدة فضائل متنوعة، وذلك[1] بأن يكون شجاعا وذا رجولة وصابرا فى كل الأمور وصادق الوعد وطاهر العورة وطاهر القلب، ولا يطلب ضرر أحد لنفعه، ولكنه يجيز ضرر نفسه من أجل نفع الأصدقاء، ولا يكون قاسيا على الضعفاء، ولا يطيل يده على الأسرى، ويعين المساكين، ويدفع الشر عن المظلومين، وكما يقول الصدق يسمى الحق وينصف من نفسه ولا يسىء إلى السفرة التى يكون قد أكل عليها الخبز والملح، ولا يكافئ الإحسان بالإساءة، ويرى الرياء عارا، ولا يضيق بالبلاء، وإذا أنعمت النظر فإن جميع هذه الفضائل التى ذكرناها تتعلق بهذه الأشياء الثلاثة التى ذكرت من قبل.

حكاية

فى الحديث أنه ذات يوم كان العيارون جالسين معا فى جبل، فأقبل رجل وسلم وقال: إنى رسول إليكم من قبل عيارى المدينة ويقرئونكم السلام ويقولون إن هناك ثلاث مسائل فاسمعوها منى، وإذا أجبتم عنها فإننا نرضى بتبعيتكم وإن لم تجيبوا فأقروا بسيادتنا، قالوا هاتها فقال: ما هى المروءة؟ وما الفرق بين المروءة واللوم؟ وإذا كان فتى جالسا على قارعة الطريق ويمر عليه رجل وعندما تمضى ساعة يتعقبه رجل بالسيف بقصد قتله، وحينما يصل الرجل إلى هذا الشاب ويسأله أرأيت أن فلانا مر من هنا؟ بم يجيبه هذا الشاب؟ فإذا قال مر يكون غمزاً وإذا قال لم يمر يكون قد كذب، وكلا هذين لا يجوز، وكلاهما لؤم فى المروءة، فلما سمع عياروا الجبل هذه المسائل نظروا إلى بعضهم البعض، وكان من بينهم رجل يقال له أبو الفضل الهمدانى فقال: أنا أجيب على هذه الأسئلة، فقالوا: قل حتى نرى ما تقول، قال: إن أصل المروءة أن تفعل كل ما تقول، والفرق بين المروءة واللؤم هو الصبر، وجواب ذلك العيار الذى كان جالسا على الطريق هو أن يجلس فى الحال على بعد قدم من تلك الناحية ويقول مذ جلست هنا لم يمر أحد ليكون قد قال الصدق.

فإذا عرفت هذا الكلام فإنه يتحقق لك أن ما هو أصل المروءة، فهذه المروءة التى ذكرتها فى العيارين إذا طلبتها من الجنود فجائز، إذ إنه شرط للجنود أن يكونوا على هذا الرسم أيضا لأن تمام العيارية فى الجندية، ولكن يجب أن يكون الكرم والاستضافة والسخاء وعرفان الحقوق وطهارة الثوب وكثرة التسلح فى رجال الجندية أكثر، أما الدقة فى الكلام وحب الذات والخدمة والحياء فإنها فضيلة فى الجندية، وعيب فى العيارية.

---

(١) الترجمة الحرفية: واحدة.

وأما مروءة أهل السوق فلها أيضا شرط ولكنى ذكرت هذا الفصل فى باب الاحتراف ولا حاجة لتكراره.

أما أولئك القوم الذين وصلهم من صورة المروءة الجسد والروح فقد قلت إنهم أهل المعرفة والدين وفقراء التصوف، الذين سمينا مروءتهم المعرفة والورع، ولهؤلاء القوم مروءة أكثر من كل الأقوام، لأن المروءة جسد الصورة والصدق هو الروح، ولهؤلاء الروح يعنى الصدق، ومن بعد حق أدب هذه الجماعة يأتى أولئك الذين هم أرباب معرفة الدين كالعلماء، ومروءتهم أن تكون فيهم هذه الصفات وهى[1]: أن يكونوا ورعين فى الكلام، وصادقين فى القول والعمل، وثابتين فى دينهم، وبعيدين عن الرياء، ويبرءون من البخل، ومتعصبين فى الدين، ولا يجعلون أنفسهم متهمين بالحسد، ولا ينافقون ولا يمزقون ستر إنسان من أجل أغراضهم، ولا يفتون الفتاوى السخيفة الضعيفة حتى لا يجرؤ الناس بفتاواهم تلك على الحلف والطلاق، ولا يشددون كذلك على الخلق فى الفتوى، وإذا وقع لعاجز سهو فى الشرع ويستطيعون علاجه لا يبخلون، ويعلمون بغير طمع، ولا يعرضون زهدهم على الخلق ويعرفون بحسن السمعة، ولا يلومون الفاسق على الفسق وخاصة أمام الخلق، وإذا أرادوا أن يوبخوا أحدا فإنهم يفعلون ذلك فى خفية عن الخلق؛ لأن إسداء النصح للناس أمام الخلق ملامة وجفاء، ولا يجترئون على دم أحد أبدا ولا يفتون، ولو علموا أن ذلك الشخص مستوجب القتل، لأنه يمكن تلافى الفتوى الخطأ إلا فى القتل، لأن الميت لا يحيا، ولا يرمون أحدا بالكفر فى التعصب للمذهب لأن الكفر خلاف الدين لا خلاف المذهب، ولا ينكرون كتابا وعلما غريبا إذ ليس كل ما لا يعرفونه كفرا، ولا يشجعون العامة على الإثم، ولا يُيْئسُون أى شخص من رحمة الله عز وجل، وكل فقيه ومتعبد على هذه الصفة يكون رجلا وذا مروءة أيضا.

أما آداب الفتوة والمروءة فى طريق التصوف فقد ذكرها الأساتذة القدامى فى رسائلهم وخاصة أستاذنا أبو القاسم القشيرى ـ رحمه الله ـ فقد ذكرها فى كتاب رسائل آداب التصوف، وذكرها الشيخ الإمام أبو الحسن المقدسى فى بيان الصفا، وأبو منصور الدمشقى فى كتاب عظمة الله، وعلى الواحدى فى كشف العيان، وإنى لا أستطيع أن أذكر تمام شرط هذه الطريقة فى هذا الكتاب، كما ذكرها المشايخ فى الكتب الأخرى، بحكم أن غرضى فى هذا الكتاب إسداء النصح إليك وطلب إسعادك، ولكنى أؤدى شرط التنبيه حتى إذا ما اتفق لك مجالسة هؤلاء القوم لا تثقل عليهم ولا يثقلون عليك، وسأشرح شرط مروءة هؤلاء القوم لأنه لا يصل إلى أية طائفة من العناء فى الحياة بحق وحرمة كما يصل إلى هذه الطائفة التى ترى نفسها أسمى من كل الخلق، وسمعت أن أول من كشف أصل هذا الطريق كان عزير النبى، حتى بلغ تلك المكانة فى صفاء الوقت، فكان اليهود يقولون إنه ابن الله، وسمعت أنه كان بأيام الرسول صلوات الله عليه اثنا عشر شخصا كان يقال لهم أصحاب

---

(١) الترجمة الحرفية: واحدة.

الصفة، وكان الرسول عليه السلام يجالسهم كثيرا فى الخلوة، وكان يحب هؤلاء القوم، فشأن هذه الطريقة ومروءة هذه الطائفة ـ لهذا السبب ـ أصعب من تلك الطائفة الأخرى، والأدب والمروءة فى هؤلاء القوم على نوعين: أحدهما خاص بدراويش التصوف، والآخر خاص بالمحبين، وإنى سأذكر كليهما.

اعلم أن تمام الدروشة أن يكون المرء مجردا دائما لأن التجريد والوحدة عين التصوف.

حكاية

سمعت أن اثنين من الصوفية كانا يسيران معا ذات مرة وكان أحدهما مجردا والآخر معه خمسة دنانير، وكان هذا المجرد يسير بلا خوف ولم يكن يطلب أى رفيق، وكان يجلس وينام ويستريح ولا يخشى أى شخص فى أى مكان يصل إليه سواء أكان مأمونا أو مخوفا، وذاك الذى كان معه خمسة دنانير كان يوافقه ولكنه كان دائما فى خوف، إلى أن وصلا فى وقت ما إلى رأس بئر، وكان المكان مخوفا ومعدنا للصوص والصعاليك، فشرب ذاك الرجل المجرد من تلك العين ووضع رأسه وراح فى النوم، ولم يكن صاحب الدنانير الخمسة يستطيع النوم، وكان يقول لنفسه سرا ماذا أعمل؟ ماذا أعمل لآمن القضاء؟ فاستيقظ المجرد فجأة وسمعه. فقال: أى فلان ماذا أصابك حتى تكثر ترديد ماذا أعمل ماذا أعمل؟ فقال الرجل يا أخى معى خمسة دنانير وهذا المكان مخوف، وأنت نمت هنا وأنا لا أستطيع النوم ولا أستطيع الذهاب، فقال ذلك الصوفى المجرد: أعطنى تلك الدنانير الخمسة لأدبر أمرك، فأعطاه الرجل الخمسة دنانير فأخذها الصوفى المجرد وألقى بها فى البئر وقال: قد نجوت من ماذا أعمل ماذا أعمل، فاجلس الآن آمنا ونم لأن الإفلاس قلعة فولاذية[1].

فحقيقة التصوف بإجماع كل المشايخ ثلاثة أشياء: التجريد والتسليم والتصديق. فإذا كان لك واحد من هذه وكنت بعيدا عن الآفة ومتمتعا بكليتك بغير عيب فلك عين هذه الطريقة، فالدرويش يلتزم التسليم ولا يكاشف[2] أى أخ أبدا إلا فى حق الأخ، ويجب أن تكون الغيرة دائما على أن يقول: لم لا يكون أخى أحسن منى؟ ويخرج الأنانية من رأسه ولا يكون صاحب غرض، ويترك الغرض ويدع جانبه، وينظر بصدق وتجريد، ولا ينظر إلى أى شىء بنظرين، ويقطع نظر التخيل والخلاف، لأن كل من يكون نظره بصدق وبغير تخيل لا يخالفه شخص، لأن نفى الاثنينية عين الحقيقة، ونفى الخلاف عين الصدق.

واعلم يا بنى بأنه إذا وضع شخص قدمه على الماء بالصدق يجمد الماء تحت قدمه، وإذا حكى لك شخص عن كرامات الأولياء بحيث تكون تلك الحكاية والمعنى بعيدين من طريق العقل فلا تنكر إذا

---

(١) الترجمة الحرفية: قلعة نحاسية (رويين).

(٢) أى: يخاصم.

عرفت حقيقة الأمر وإن بدت لك غير ممكنة، فإن في الصدق أثرا لا يمكن إحلاله في القلب، لا بالعقل ولا بالتكلف بل بفضل الحق تعالى وعطائه وجبلة النفس.

فالدرويش هو من ينظر إلى الشيء بعين الصدق ولا يستوحش، ويكون ظاهره وباطنه سواء، ولا يخلى قلبه من التفكير في التوحيد، ويجب أن يختار السكون والأناة في التفكير حتى لا يحترق في نار التفكر، لأن أرباب هذه الطريقة قد رأوا التفكر نارا ماؤها التسلى فجعلوا السرور والبهجة والرقص والسماع وسيلة للتسلى، وكل درويش لا يرغب في السماع والقول، يحترق دائما بنار التفكر، ومن ليس له تفكر التوحيد محال عليه السماع والقول، لأن الظلمة تزداد بالظلمة، ومنع الشيخ أخى الزنكانى السماع في آخر عمره، وقال: السماع ماء ويجب أن يكون الماء حيث لا تكون النار، لأن صب الماء على النار يجلب الظلمة والوحل، وإذا كان لواحد في قوم عدتهم خمسين رجلا نار، فإنه لا ينبغي تكدير أولئك التسعة والأربعين لأجل واحد، لأنه لا يمكن السكون من ذلك الواحد كما يمكن الصدق من هؤلاء الآخرين، أما إذا كان هناك درويش ليس له أدب باطنى ومعرفة روحانية فيجب أن يكون له أدب ظاهر ليتحلى بإحدى الصورتين، فينبغي أن يكون الدرويش معتمدا، ذلق اللسان وغير مؤذ، مستور الفسق، ظاهر الورع، طاهر الجسد والثوب، ومزودا بآلات السفر والحضر كالعصا وإبريق الطهارة والمئزر والوطاء والسجادة والزورقى والمشط والمسواك والإبرة ومقلمة الأظافر، ويجب أن يستغنى عن الخياط وغسال الملابس، ويخدم الإخوان في هذين الشيئين، ويحب السفر ولا يسير وحده لأن الآفة تنشأ من الوحدة، وإذا دخل الخانقاه لا يكون مانع الخير يعنى لا يمنع شخصا من التقرب، ويحل أولا حذاء القدم اليمنى ويلبس القدم اليسرى أولا، ولا يسير بين القوم مشدود الوسط ويجلس حيث يجعلون زاويته ويستأذن عندما يجلس، ويصلى ركعتين باستئذان ويسلم في كل وقت يدخل أو يذهب، وإذا لم يفعل فجائز، أما في الصباح فلا يقصر ويتكلم مع الناس بالحسنى ويتحاشى المتهمين، وإذا لم يكن له معاملة طامات فلا يذكر أحاديث الطمطمات[1]، ولا يدخل منزلا أو خانقاها حتى يكون عزيزا، ولا يطلب صحبة أحد ظلما، ولكن يحسن رعاية الحرم لأن رعاية الحرمة فريضة والصحبة ليست فريضة، ويعمل كل الأمور بحكم الجمع ورضاهم، وإذا أنكر عليه جماعة أمرا فلا يخالف الجماعة وإن يكن بريئا، بل يستغفر ويؤدى الغرامة ويحتمل الجور، ولا يتشدد في التدقيق على الخلق، ويقل الغياب عن السجادة، ولا يذهب إلى السوق قصدا، وإذا أراد القيام من أجل حاجة ما بأن يريد أداء عمل من أعماله، كأن يلبس ثوبا أو يخلعه مثلا يستأذن من الجمع أو من شيخ الجماعة، ولا يجلس متربعا على السجادة ولا يخيط الخرقة خفية عن القوم، ولا يأكل شيئا في الخفاء، وإن يكن لوزة واحدة، لأنهم يستقبحون ذلك، ولا يكثر الكلام أمام الجمع، وإذا وضعوا[2] الخرقة يوافقهم، وكذلك في خلعها،

(١) الطامات والطمطمات بمعنى وهى الكلام غير المفهوم الذى يتفوه به المريدون في حلقات الذكر في حالة الانجذاب والوجد.
(٢) أى: لبسوا.

ولا يمزق ما استطاع خرقة أحد، ولا يقوم بتفرقة الطعام؛ لأن فى ذلك شروط لا يستطيع أداءها كل شخص، ولكن يعد صب الماء على الأيدى غنيمة، ولا يضع قدمه على خرق الناس وسجاجيدهم، ولا يمشى متعجلا بين الجماعة، ولا يمر كثيرا أمام الجمع، ولا يجلس مكان الآخرين، ولا يسبب ضجرا، وفى الوقت الذى يشتغلون فيه بالسماع أو يمزقون الخرق، لا يقوم ولا يقول شيئا ولا يرقص عبثا ما لم يبدأ الشيخ، ولا يولى أحدا ظهره فى الرقص، وإذا مزق الثياب على جسده لا يخلعها فى الحال ولا يضعها أمام الشيخ، وإذا مدحه درويش أو ذمه يشكره ويقدم له شيئا، وإذا أعطاه درويش خرقة لا يقول لا آخذها بل يأخذها ويزيد عليها ويردها إليه، وإذا أدى لدرويش عملا أو خاط له ثوبا أو غسله لا يعيده إليه بغير شكر، وإذا قام بعمل يحصل منه كراهة لدرويش يكفر عنه سريعا، وإن أصابته راحة يشكر وينصف من نفسه، ولا يطلب ما استطاع الانتصاف من أحد.

أما دراويش أصفهان فيطلبون ويعطون، وقوم خراسان لا يطلبون ولا يعطون، وقوم طبرستان يطلبون ولا يعطون، وقوم فارس يعطون ولا يطلبون، وسمعت أن التصوف ظهر أولا فى فارس. ويجب أن يعد الدرويش عناء نفسه كنزا، ويختار الأناة فى الشيخوخة، ولا يغيب عن السفرة وقت تناول الطعام حتى لا ينتظره القوم، ولا يمد يده إلى الزاد قبل الجماعة، ولا يكف يده عن الطعام إلا باتفاق القوم، ولا يتطلع إلى زيادة فى التفرقة، ولا يستأثر بنصيبه على أحد بغير إذن، وإذا لم يستطع تناول الطعام لعلة يقدم العذر قبل وضع السفرة ولا يقول شيئا على السفرة، وإذا كان صائما لا يخبر أحداً بصومه، ويفطر ويوافق ولا يتطهر بغير تمييز، ويقصر الثياب للطهارة ولا يتوضأ تارة على الطريقة الخوارزمية وتارة على الطريقة العراقية، وفى الوقت الذى يتوضأ لا يجلس مبتل القدم على السجادة، ولا يدخلها فى الحذاء ولا يضعها على الأض وإن تكن طاهرة، لأن ذلك ليس من الطهارة، وهذا هو شرط المروءة وآداب التصوف.

أما شرط المحب فهو ألا يكون منكرا على طمطمات الصوفيين، ولا يسأل عن تفسير الطامات ويرى عيبهم فضلا، ويعد كفرهم - مثلا - إيمانا، ويكفر عن الكلام غير المقبول، وأن يحفظ ثوبه طاهرا عندهم ويجلس فى مكانه باحترام، وأن يحترم خرقتهم التى تكون من نصيبه ويقبلها ويضعها على رأسه ولا يضعها على الأرض ولا يبسطها للأعمال الوضيعة، ولا يكون خلوّا من الخير ما استطاع، وإذا رأى الصوفيين قد خلعوا الخرقة يخلعها هو أيضا، وإذا كانوا بحيث قد خلعوا تلك الخرقة من أجل الراحة والمتعة فى دعوة أو طعام يقوم ثانية ويرفعها ويقبلها ويضعها على رأسه ويردها لأصحابها، وإذا كانت تلك الخرقة قد سقطت بسبب النقار فلا ينشغل بذلك البتة ويتركها ثانيا للشيخ، ولا يتدخل فى نقار الصوفيين ما استطاع، وإذا حدث ذلك فى وقت ما يقف فى مكانه ولا يتكلم قط حتى يصلحوا شأنهم بأنفسهم مَرة أخرى، ولا يكون وكيلا لله بين الصوفية كأن يقول: حان وقت الصلاة. أو يقول: فلنقم لنصلي. ولا يكون باعثا على الطاعة لأنهم مستغنون عن أمر

شخص لهم بالطاعة، ولا يضحك بينهم كثيرا، وكذلك لا يكون ثقيل الروح وعابس الوجه لأنهم يسمون مثل هذا الشخص حذاء ليذهب، وإذا وجد مرة طعاما حلوا وإن يكن قليلا يحمله إليهم ويعتذر قائلا: ولو أنه قليل فإني لم أرد أن أسيء الأدب[1] لأن الحلوى بالصوفية أولى، ودليل كلامي هذا بيتان.

رباعي

أنا صوفي يا من وجهك بين الحسان فرد، وكل الناس شيب وشباب ونساء ورجال

يعرفون أن شفتك الحمراء من الحلاوة حلوى، وفي مذهب الصوفية يجب عمل الحلوى

* * *

فإذا فعلت هكذا تكون قد أديت تمام صدق المحبين ومروءتهم لأن ما ذكرته هو شرط صدق ومروءة المريدين والمحبين.

أما ذلك الفريق الذين أصابهم من الصورة الإنسانية الجسد والروح والحواس يعني المروءة والصدق والعلم فأولئك هم الأنبياء، لأن كل جسد تتجمع فيه هذ الخصال الثلاث لا بد وأن يكون نبيا مرسلا أو وصيا حكيما، لأن فيه كلا الفضيلتين الجسمانية والروحانية؛ والفضيلة الجسمانية هي الصدق والمعرفة، والفضيلة الروحانية هي العلم، وإذا خفي عليك أن لماذا أحلوا العلم فوق المعرفة، فاعلم بأن الاسم الفارسي للمعرفة هو (شناختن) وحقيقة (شناختن) هي أن تأتي بالشيء من حد الغرابة إلى حد المعرفة، والاسم الفارسي للعلم هو (دانش) وحقيقة (دانش) هي أن تعرف المعروف والغريب في حالتي المعرفة، والغرابة تماما لتعرف الدرجات الحسنة والدرجات السيئة، واعلم كذلك أن تمام العلم في كل شيء خمسة أنواع: الأيشية والكمية والكيفية والسببية واللمثية؛ يعني المصادر من: أي شيء؟ وكم؟ وكيف؟ وما سبب؟ ولم؟

فالأيشية هي أن تقول إني أعرف فلان أي شيء هو ومن هو وهذه هي المعرفة، والبهائم مشاركة للآدمي في هذا المعنى لأنها تعرف غذاءها وصغارها وكذلك الآدمي، ولكن لما زاد العلم في الآدمي عرف الأيشية مع الكيفية والكمية والسببية واللمثية، ألا ترى أنك إذا وضعت للبهائم النار في مذودها فإنها لا تبتعد ما لم تدخل فيه رأسها ويصيبها ألم النار وتحترق؟ لأنها تعرف النار بالأيشية لا بالكيفية، والآدمي يعرف الأيشية والكيفية، فصار حقا أن العلم فوق المعرفة، وأن كل من له كمال العلم يليق بالنبوة لهذا السبب؛ لأن للأنبياء علينا من الشرف والزيادة بقدر ما لنا على البهائم، ولأن للبهائم معرفة الأيشية وحسب، وللآدمي الكيفية والكمية، وللأنبياء الكيفية والكمية والسببية واللمثية، والبهائم تعرف أن النار تحرق فقط، والآدمي يعرف أنها تحرق وكيف تحرق ولأي سبب

(١) الترجمة الحرفية: أن أعمل القبيح.

تحرق، أما كمال الآدمى فهو الإنسانية، يعنى أن يكون له كمال المروءة، وكمال المروءة هو أن يكون له كمال العلم، وتلك هى النبوة، وكمال النبوة هو الروحانية لأنه لا توجد فى درجة الآدمى منزلة أعلى من النبوة، فأولئك القوم الذين أصابهم من الصورة الإنسانية الجسد والروح والحواس والمعانى ليسوا سوى الأنبياء، وفى الحقيقة أن ذلك الشخص الذى أصابه نصيب من الصورة الإنسانية الكاملة لا يمكن أن يوصف إلا على موجب الصفاء، وهو أسمى من الوهم ومعرفته بالمعاملة لا بالقول، وتجربة ذلك الشخص الذى له صفاء تكون منه وحده، ويكون منه كذلك علمه وصفاؤه بغير سلف، وقصده بغير غرض وبغير طلب، وهو مبرأ من الوحشة ومنزه عن الذاتية وبقاؤه فى الفناء ويكون صافى الصفة فى الصفات، ويرى نفسه بغير نفسه وينظر إلى العين بالعين من غير عين، فإذا سمت منزلة هؤلاء القوم وصارت قبلة[1] النظر فجائز.

فاجتهد يا بنى أن تكون بعيد النظر فى كل صفة تكون، وكن قرينا للمروءة لتكون مختارا من الدنيا، وإذا أردت طريق المروءة فى أى طائفة تكون بها فدع عدم الحفاظ وكف على الدوام ثلاثة أشياء عن ثلاث: العين عما لا ينبغى رؤياه، واللسان عما لا يليق قوله، واليد عما لا يحل أخذه. وافتح للصديق ثلاثة أشياء: باب البيت والسفرة، ورباط الكيس على قدر طاقتك. ولا تكذب لأن كل اللئام يتميزون بالكذب، وكل اللؤم فى قول الكذب، وإذا اعتقد شخص فى مروءتك، وإن كان قد قتل أعز الناس عليك وكان أكبر عدو من أعدائك، متى أسلمك نفسه وأقر بعجزه، واعتمد على مروءتك من دون كل الخلق، إذا كانت روحك ستذهب فى هذا الأمر فدعها تذهب ولا تخش، وجاهد من أجله بروحك لتتحقق فيك المروءة[2]، وحذار أن تشغل بالانتقام لما مضى، ولا تفكر فى الخيانة لأن الخيانة ليست من شرط المروءة، واعلم يا بنى أن هذا الطريق طويل، وإذا بينت مروءة كل طائفة فإن طريق كلامى هذا سيطول فى كيف ولم، ولكنى أختصر الكلام فإن كل هذا الذى قلته سيف هذا الكلام.

اعلم أن أتم المروءة هو أن تعد ما هو لك من متاعك، وتقطع الطمع عما للخلق، وإذا كان لك شيء تجعل منه نصيبا للناس، ولا تطمع فى مال الناس ولا تحمل ما تكون قد ادخرته، وإذا استطعت إسداء المعروف إلى الناس تفعل، وإذا لم تستطع عمل الخير فلا أقل من أن تكف شرك عن الخلق؛ لأن أكبر الناس من يعش فى العالم كما ذكرت، فتكون له الدنيا والآخرة أيضا.

واعلم يا بنى أنى تحدثت عن القناعة فى هذا الكتاب فى عدة مواضع وأكرر ذلك مرة أخرى، فإذا أردت ألا تكون حرج القلب على الدوام فكن قنوعا ولا تكن حسودا، ليطيب وقتك دائما، لأن أصل الغم هو الحسد، واعلم أن تأثير الفلك من خير وشر يصيب الناس دائما، وكان أستاذى يقول: يجب

---

(١) الترجمة الحرفية: موضع.

(٢) الترجمة الحرفية: لتصل إليك المروءة.

أن يشرئب المرء بعنقه ويفغر فاه أمام الفلك على الدوام حتى إذا ما وقعت شدة تلقاها بعنقه أو لقمة تلقاها بفمه، كما يقول الله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤). لأن تأثير الفلك لا يعدو هذين، وإذا أخذت الطريق على يدك[1] وتعودت القناعة فإن جسدك الحر لا يكون عبدا لشخص، ولا تجعل للطمع مكانا فى قلبك، وارض بالخير والشر على تلك الجملة التى قد اتفقت لك، واعلم أن الناس جميعا من أية طائفة تكون عبيداً لرب واحد وكلهم أولاد آدم، وأن فردا أقل من فرد بسبب الحاجة والطمع، فإذا أخرج المرء الطمع من قلبه واتخذ القناعة حرفة يستغنى عن كل العالمين، فأكثر الناس احتشاما فى الدنيا من لا تكون له حاجة إلى أحد، وأحقر وأخس شخص فى العالم من كان له طمع واحتياج، إذ إن الناس يجعلون أنفسهم عبيدا لأمثالهم بسبب الطمع والحاجة.

حكاية

ذهب الشبلى ـ رحمة الله عليه ـ إلى مسجد ليصلى ركعتين ويستريح بعض الوقت، وكان فى ذلك المسجد صبيان كتاب، وكان الوقت وقت طعامهم، فكانوا يأكلون الطعام وكان طفلان جالسين اتفاقا أمام الشبلى: كان أحدهما ابنا لغنى والآخر ابن فقير، وكان فى زنبيل ذلك الولد الغنى حلوى، وفى زنبيل ذلك الولد الفقير خبز يابس، وكان ابن الغنى يأكل الحلوى وابن الفقير يطلب منه، فقال له إذا أردت أن أعطيك حلوى فكن كلبى، فقال هذا الصبى أنا كلبك، فقال ابن الغنى انبح نباح الكلب فانثنى ذلك الولد الفقير المسكين وأخذ ينبح نباح الكلب حتى أعطاه قطعة الحلوى، فكان الشبلى ينظر إليهما ويبكى، فسأله المريدون: أن ماذا حدث يا شيخ فبكيت؟ فقال: انظروا إلام يصل الطمع بالناس، لو أن ذلك الصبى كان يقنع بخبزه القفار ولم يكن يطمع فى الحلوى لما كان يلزم أن يكون كلبا لمثله.

فإن تكن زاهدا أو فاسقا فكن قانعا ومحمود الفعال لتكون فى الدنيا أكبر وأقل خوفا.

اعلم يا بنى أنى ذكرت فى هذا الكتاب أربعة وأربعين بابا، وفى كل باب تحدثت إليك عن كل معنى عرفته بقدر ما واتا فى الطبع، وذكرت كل ما كان من عظة ونصيحة إلا فى باب العقل لأنى لا أستطيع أن أقول قط كن عاقلا وأريبا بالعسف، إذ لا يمكن أن يكون المرء عاقلا قسرا، اعلم أن العقل نوعان: عقل غريزى وعقل كسبى، أما ذلك الغريزى فيقال له فى الفارسية (خرد) وذلك الكسبى يقال له (دانش). أما ما يكون كسبيا فيمكن تعلمه، ولكن العقل الغريزى هدية الله ولا يمكن تعلمه من المعلم، فإذا كان الحق تعالى قد أعطاك العقل الغريزى فاجتهد فى الكسبى، وتعلم واقرن الكسبى بالغريزى لتصل إلى درجة الكمال وتكون بديع الزمان، وإذا لم يكن عقل غريزى لا نستطيع أنا وأنت

---

(١) أى: إذا سلكت الطريق.

عمل شيء، فلا تقصر في الكسبي على أي حال، وتعلم بقدر ما تستطيع حتى إذا لم تكن من جماعة العقلاء لا تكون أيضا من جملة الجهلاء ويحصل لك واحد من الاثنين؛ فقد قيل إذا لم يكن الأب فلا أفضل من الأم، فالآن إذا أردت أن تكون عاقلا فتعلم الحكمة فإنه يمكن تعلم العقل بالحكمة، كما سألوا أرسطاطاليس: أن من أي شيء تكون قوة العقل؟ فقال قوة كل إنسان من الغذاء، وغذاء العقل من الحكمة. فاعرف الآن يا بني أني ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلا في كل باب، وكل ما كان من عادتي جعلته جملة كتابا في أربعة وأربعين بابا من أجلك، واعلم أن هذه كانت دائما عادتي من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة، وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة، وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائة فإذا أعطاني الله تعالى عمرا بعد هذا أكون على تلك القاعدة ما حييت، وما استحسنته لنفسي استحسنته لك أيضا، وإذا رأيت خصلة وعادة أفضل من هذه بحيث تكون أفضل لك فاعملها وإلا فاسمع وصاياي هذه بمسمع القلب واعمل بها؛ وإذا لم تسمع ولم تقبل فلا ضير عليك ومن يكن الله تعالى قد خلقه سعيدا يقرؤها ويتقبلها ويعمل بها، لأن كل ما قلته علامة السعداء في الدارين فليرحمني الله وإياك ويبلغك رضائي في الدارين بمنه وفضله وكرمه والحمد لله رب العالمين.

* * *



تمت بعون الله ترجمة هذا الكتاب بمعرفتنا في القاهرة، يوم الأحد ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٢م، الموافق ٨ محرم سنة ١٣٧٢ هـ.

أمين عبد المجيد

خريج معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الأول
وأمين مكتبة معهد التربية للمعلمين بالقاهرة

محمد صادق نشأت

أستاذ الأدب الفارسي بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

رقم الإيداع ١٩٠٨٧ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977- 09 - 2107- 4



مطـابع الشروق